
أسامة علام
الوحش
الأبيض

الوشم الأبيض

أسـامة عـلام

تصميم الغلاف:

طبعـة دار الشروق الأولى ٢٠١٦

تصنيف الكتاب: أدب / روايـة

٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ١٩٠٦٩/ ٢٠١٦
ISBN 978-977-09-3394-7

أسامة عـلام

الوشـم الأبيـض

رواية

دار الشروق

في قدرك يجب أن تمعن النظر

وأن تكون واعيًا كيف تمشي في الحياة

عندما تنام، ثمة شخص يكتب التاريخ

بينما هناك من يلعب بحياتك

كلنا كتب علينا شيءٌ اسمه القدر

لا أحد يستطيع الهرب منه

لا توجد أي نظريات

فكل شخص له معركته الخاصة..

أغنية يونانية قديمة

ماذا لو كنت هناك، تحت شمس ميناء بوردو الفرنسي الشهير؟ يخبرني التقويم السنوي الذي سقط من يد أحد الحمالين بأنها سنة ١٧٣٧. لكني لم أستطع أن أنحني لأعيد التقويم إلى مكانه فوق كومة الأغراض المنزلية التي تثقل ظهر المسكين. أتابع بعيوني صامتا الصغار وهم فرحون بركوب المحيط للمرة الأولى. تمتعني براءة ألعابهم ويحزنني قدرهم الذي أعلمه. أشاهد دموع الحنين في عيون السيدات اللاتي لم يبدأن الرحلة، وأستمع إلى همهمات رجالهم الواعدين بمستقبل أروع في فرنسا الجديدة. هنا على الضفة الأخرى من المحيط. في بلاد أصبحت أنتمي إليها رغم كل شيء. أرض بكر مذبذبة الهوية. كندا التي ستصبح ملاذ الباحثين عن الأمل والوطن البديل. كنت أعرف ما ستئول إليه الأمور بعد ما سيسميه أبناء البلد بـ ٣٠٠ عام من المقاومة. عندما يعيش أحفادهم محاولتهم المستميتة للحفاظ على الجذور. في مقاطعة يسمونها «كيبك»، لا تحمل من فرنسا الأم سوى اللغة وحبل سري تم قطعه عن الوطن من عقود.

كان الميناء مكدسا بكل ما هو مفيد للحياة في البلاد الجديدة التي تشتهر بشتائها القارس: أسرة خشبية، أدوات مائدة، عطور فرنسية، ملابس صنعتها الأمهات أو الحبيبات، بهارات هندية، لحوم مقددة، براميل نبيذ، بنادق وصناديق بارود، صور عائلية للجدود، خرائط وكتب. السفينة العملاقة المعدة للرحلة الطويلة تبتلع كل شيء. تحت عيون السادة

الفرنسيين المتقين لأشعة الشمس الحارقة بمظلات بيضاء يحملها عبيد تم جلبهم من المستعمرات البعيدة، كل شيء يتم نقله ببطء ودقة. ورغم أجواء السفر الكئيبة، تطربني فالسات جوقة العزف الملكية المفرحة.

كئوس النبيذ الباردة لم تهدئ حالة الارتباك العاطفي التي أصابت السادة. فقرروا في لحظة كرم استثنائية مشاركة العبيد كأسا من النبيذ الفاخر. ربما يتركون بها ذكرى أخيرة عن نبل سادتهم المسافرين إلى المجهول. فابتسم العبيد لأول مرة في يومهم الطويل. متمنين بصدق أن تصل الحملة إلى وجهتها، من دون أن يشغلهم كثيرًا ما يدور في عقول السادة، المؤمنين بضرورة أن تستمر راية الإمبراطورية الفرنسية محلقة على الأرض التي أعلنها الفرنسيون امتدادا لبلادهم منذ عام ١٥٣٤، ليتعلم شعب الهنود الحمر البدائي التحدث بالفرنسية كبشر متحضرين.

وسط حالة الشجن المربك هذه حدث ما لم يتخيله أحد. سُمع صوت بوق جوقة الفرسان الملكية. فرسان ثلاثة يتوسطهم حامل الراية الملكية، يضمون أيديهم إلى صدورهم كعلامة احترام مقدسة للموت، يتبعهم ثلاثة عشر نعشا تجرها العربات الملكية. تصمت موسيقى الفالسات المبهجة. ويقف الجميع عبيدا وسادة خالعين قبعاتهم احتراما لراية الملك. وبإشارة واحدة من قائد المجموعة يجري الحمالون والعبيد لإنزال النعوش الثلاثة عشر وتحميلها إلى جوف السفينة. ومن خلف النعوش ظهر وجه الرجل صاحب السيرة المرعبة في باريس «چون سبيستيان أندريه» المشئوم، بوشمه المشهور الذي يلف رقبته ممتدا إلى وجهه. صورة أفعتي كوبرا تبخان سمومهما واحدة فوق كل صدغ. يرتدي معطفه الأسود الشهير في هذا الحر الخانق،

رافعا قبعته احتراما لرجاله المحمولين في النعوش. فيرسم المشاهدون علامة الصليب بأيديهم خوفا ورهبة. تمتلئ قلوبهم بالتشاؤم من هذه الصحبة النجسة.

أما چون سبيستيان نفسه أو «أندريه الدموي»، كما اشتهر اسمه بباريس، فقد بصق في اتجاه حامل الراية الملكية. فلم يكن من قائد المجموعة سوى أن أدار وجهه للجهة الأخرى، متظاهرا بعدم ملاحظته للإهانة الموجهة لهيبة التاج الفرنسي. ورغم أن المرسوم الملكي الصادر ممهورا بختم الملك، قد أمر بأن يمحى ذكر اسم چون سبيستيان أندريه من كل الإصدارات المنشورة بالصحف المحلية، فإن الاسم المرعب، أصبح أيقونة الشر لعوالم البارات الرخيصة والعصابات المنظمة لعقود.

كانت مهنة چون سبيستيان التي حولته إلى أسطورة سوداء هي رسم الوشم المقدس. صناعة أكسبته شهرة لم يعرف بها صانع وشم في التاريخ المعروف. حتى إنه إلى الآن تَعُدّه جماعات مشهورة بدمويتها من عبدة الشياطين وقوى الشر الخفية، إله الوشم الأسود. ذلك الرسم الذي بطباعته على الجلد يستطيع تغيير قدر الموشوم. يقسم من يؤمن بأسطورته بأنه اختار بنفسه رجاله الثلاثة عشر. والذين كانوا من أفضل رجال البلاط الملكي، بالإضافة إلى علماء وفنانين وسحرة مشهورين في زمانهم. فحولهم بالوشم إلى رجال لن تنسى البشرية أساطيرهم المخيفة. فصدر المرسوم الملكي بنفيهم إلى الأرض الجديدة بعد أن قتلوا جميعا عدا چون سبيستيان أندريه. لأن وجود جثثهم في أرض فرنسا نذير بقلاقل ستهز التاج الملكي. إيمانا بنبوءة العرافة الملكية التي تنبأت بزلزال مدمر ستشهده باريس. كمحاولة من أرض الرب الصالحة

للفظ أجسادهم الشريرة. كالقيء المصاحب لتناول طعام مسمم، تخرج بعدها الحيوانات الأسطورية المرسومة على جلودهم، فتحول باريس إلى مدينة تسكنها الشياطين.

تستطيعون الآن تخيل مدى الرعب الذي عانى منه ركاب السفينة الطيبون. وهم ينتظرون مصاحبة چون سبيستيان أندريه ورفاقه في توابيتهم الخشبية في رحلتهم الطويلة.

تذكر كتب التاريخ بأن تلك الرحلة المشئومة لم تصل أبدًا. وأن الرجل الذي يحمل وشم الكوبرا برأسين يضخان السم واحد لكل صدغ ـ (في إشارة إلى چون سبيستيان وصحبته، دون خرق للمكتوب الملكي بعدم ذكرهم بالاسم) ـ قد مات غرقا وأكلته أسماك المحيط. دون التنويه إلى خطة الملك العملية في تفجير السفينة في عمق المحيط. ودون الانشغال كثيرًا بموت عشرات الأسر الفرنسية البريئة. كتضحية بالبعض من أجل مجتمع فرنسي وليد. أصبح مع تحولات التاريخ، الذي لا يفهم أفعاله أحد، مجرد مقاطعة فرنسية مهمومة بهاجس الحفاظ على هوية اللغة الفرنسية وسط أمريكا الشمالية.

هذا ما ذكرته كتب التاريخ القديمة الملقاة على رفوف مظلمة في مكتبات لا يهتم كثيرون بزيارتها.

أما ما أقسم لكم عليه أنا.. أشرف مبروك حسن المدني، المواطن الكندي المصري الأصل. طبيب الأمراض النفسية بمستشفى رويال فيكتوريا بمونتريال، فهو أن المدعو چون سبيستيان أندريه يسكن في مدينتي. وأنه المريض الذي غير حياتي كلها بقصته العجيبة.

* * *

لم تكن طفولتي عادية بالمعنى التقليدي. ولدت في ليبيا ونشأت في سلطنة عمان، وترعرعت في مصر، ودرست بفرنسا، وأكمل ما تبقى من عمري في كندا. جذور عائلتي تعود إلى أمازيغ صحراء مصر الغربية الذين قطنوا واحة سيوة، قبل أن يهاجر أبي إلى حياة المدينة بدلتا مصر. طفولتي كانت مقسمة دائمًا بين عالمين. عالم ظاهر يراه الجميع، وعالم الخفاء الأكثر عمقا. ذلك العالم الذي كنت أتقن فيه الاختباء في الأركان المظلمة. مستمتعا كمجنون بالتهام الكتب وبحزن نبيل ربما لا يناسب الأطفال. خالقا عوالم كاملة من أساطير تسكنها جنيات وكائنات متخيلة. طيبون أو أشرار لا يهم. فجميعهم كانوا خدامي المخلصين في مملكتي الخاصة. فعشت عوالم الهذيان تلك بروعتها التي لا تضاهى.

ربما الآن بعد أن تخطيت عتبة الأربعين، أتذكر كثيرًا من شخصيات عوالم طفولتي كظلال باهتة تحاول دائمًا الهرب من ملاحقة ذاكرتي. المدهش أنه بمرور سنوات العمر ترسخ لديّ الشعور بأن كثيرين ممن أقابلهم في حياتي قد قابلتهم في خيالات طفولتي. أو أننا ربما تقابلنا في أزمنة أخرى. كنت أيضًا على يقين بقدري وقدر جدودي الأوائل في عالم الهجرة. تتساقط دموعي عند مشاهدة البرامج التلفزيونية عن المغتربين وحكاياتهم. سبَّب ذلك كثيرًا من الإرباك لأبوي. لأنهما لا يستطيعان تفسير بكاء وحيدهم المراهق لمجرد مشاهدة التلفزيون. ورغم محاولة أبي لطمأنة أمي بأن أمورا كهذه قد تحدث بشكل طبيعي

للمراهقين، فإنها أصرت على أن تذهب بي لعيادة الطبيب النفسي. ربما لأن أبي وأمي كائنان ينتميان إلى كوكبين مختلفين. اشتركا فقط في حب ابنهما الوحيد الذي من أجله أكملا حياتهما معا.

كان لديّ وقتها إيمان راسخ بأن أبي لا بد أن يكون من كوكب المشتري. مشاعره شديدة الغموض ككوكبه الأكبر في المجموعة الشمسية. الكوكب الأكثر قدرة على فرض سيطرته على الأقمار التي تتبعه بإذعان. كيان بارد لكنه قوي ومدهش. كوكب ذكر بكل ما للكواكب الذكور من قوة وجبروت. لا تخلو حياته من أعاصير وتقلبات جعلت الرومان يعتقدون بأنه إله البرق والسماء.

أما أمي المسكينة واللطيفة دوما، فكانت لا تزيد على كونها كوكبا صغيرا مسالما. كوكبا يسكن بوداعة آخر المجموعة الشمسية. كوكبا متذبذبا لا يجيد التعبير عن نفسه، لكنه قادر على اختراع أشياء مدهشة، ككوكب بلوتو الذي سماه الرومان إله العوالم السفلية. لذلك كانت معاركهما تنتهي دائمًا بفوز سكان الكوكب الأقوى، أو هكذا كنت أفسر الأشياء في عالمي الطفولي.

المرة الوحيدة التي استطاعت أمي الانتصار فيها في معركة فاصلة، كانت بسبب مشكلة بكائي المستمرة. فذهبنا معا إلى عيادة الطبيب النفسي. وللحقيقة، كنت مولعا أيضًا منذ طفولتي بكل ما هو نفسي. كنت في سنوات مراهقتي الأولى تلك، ألتهم كتب الطب النفسي والسحر والجان. كدلائل مؤكدة على أن ما يعيش في مخيلتي حقيقي. بدليل أنه مطبوع بحروف على ورق يشتريه الناس على شكل كتاب. كنت مؤمنا بسذاجة أن الكتب لا تستطيع الكذب كالبشر.

كنت أتخيل أن الطبيب النفسي هو شخص يتم اختياره بعناية ليدرس على يد سحرة ومشعوذين أو ربما رجال دين. لأن هؤلاء فقط هم من يستطيعون فهم الروح التي أمرها من علم ربي. كمعلومة مبهمة يمكن بها تفسير أمر الأرواح برمته. بلا أهمية لمعلومات عن الدورة الدموية والجهاز العصبي المقررين في مناهج الدراسة، معتقدا أن أشياء كهذه يجب أن تنتمي إلى مادة الجغرافيا التي تهتم بتفصيلات كل ما هو واقعي كالجبال والصحراء والبحار.

استقبلت خبر زيارتنا للطبيب النفسي بفرح، كرحلة مشوقة لزيارة رجل يشاركني بالتأكيد عالمي السري. رجل سيكتشف مباشرة أشخاص مخيلتي السرية بمجرد دخولي إلى حجرته. وفي الليلة السابقة للزيارة، رسمت الهيئة المثلى التي سيقابلني بها هذا الصديق الخاص. تخيلته شيخا بلحية بيضاء طويلة جدًّا كدلالة على الحكمة. يرتدي ملابس برتقالية كسكان التبت، ويدخن غليونا لا بد أنه محشو بالحشيش. يجلس القرفصاء على الأرض فوق سجادة بألوان مبهجة كصور القصص الهندية. لديه القدرة على الاستماع طويلا هازا رأسه ومغمضا عينيه. بشرته السمراء لفحتها شمس تأملاته النفسية. يفرح بمجرد رؤيتي، ناظرا مباشرة إلى عقلي. يبتسم مؤكدا لأمي بأنني شخص مميز جدًّا. وبأنه سيكون لي مستقبل مهم. ربما كطبيب نفسي مثله. دون أن يعلق على تلك التفاهة التي كانت تشغل بال أمي بشدة. أمي المتدينة الحالمة والضائعة في الدوران في فلك أبي محاولة تغييره إلى شخص أكثر رومانسية وقدرة على التعبير عن مشاعره. حماقة أنني أعاني من بدايات جنون، نتيجة إفراطي في ممارسة العادة السرية. مما يفسر بكائي المستمر على خطيئتي. دون أن تتخيل أن رأسي مشغول تمامًا بمطاردة كائنات خيالية لا أهمية لهويتها الجنسية.

في الزيارة المرتقبة، خذلني الرجل الذي حلمت به بقسوة. لم يكن سوى شاب على مشارف الأربعين، مهندم تنضح دماء الحيوية من وجهه الحليق بعناية وصبر. معجب بنفسه لا يرى سواها. يتحدث مع أمي عني، من دون حتى النظر لوجهي المحتقن من الغيظ وخيبة الأمل. تاركا لها فرصة الحديث بحرية لا تتاح لها كثيرًا في بيتنا. فانبرت المسكينة في سرد حكايات اهتمامها المبالغ فيه بي. شارحة تفاصيل تضحياتها للبقاء بالبيت حاملة جدرانه الأربعة. لتنتهي الزيارة من دون أن أفتح فمي. ولتصل أمي التي لها حكمتها الخاصة في تقييم البشر، إلى نتيجة مفادها أننا زرنا رجلا مختلا عقليا، بعد أن نصحها بعدم الالتفات إلى أفعالي. مكررا لها كلام والدي ذاته عن المراهقين ومشاعرهم التي ستستقيم مع الوقت. بعد أن وصف لي دواء جعلني أعيش كحصان مخدر. فكثرت شطحاتي الخيالية في قاعات الدرس وانخفضت درجاتي المدرسية بشكل ملفت. فألقت أمي بالدواء في صفيحة القمامة، وأقنعت نفسها بالتغاضي عن أفعالي. فسمح لي ذلك أيضًا بالتوغل أكثر في عوالمي المدهشة. مستمتعا بالبكاء وقتما أشتهي دون مراقبة.

الآن بعدما وصلت لعمري هذا، أتذكر حكايتي تلك وأبتسم. فبعد عودتي إلى بيتنا ليلتها، أغلقت باب حجرتي لاعنا كذب البشرية كلها، الممثَّل في خدعة أمي بإرسالى لطبيب نفسي مزيف، كان ذلك الدرس العملي الأول الذي تلقيته في مهنة الطب النفسي، درسًا عن المسافة الضوئية بين الساكن في عقول المرضى، والمسكونة به عقول الأطباء من حبوب وعقاقير مثبطة للنشاط، قادرة على تحويلك إلى حيوان مستأنس.

الآن وأنا خلف مكتبي بمستشفى رويال فيكتوريا بمونتريال. لا أعلم لماذا تذكرت هذه الحكاية. أمامي ملف چون سبيستيان أندريه الذي أكاد أحفظه عن ظهر قلب. ولكن قبل السماح لچون سبيستيان بالدخول. دعوني أراجع معكم للمرة الأخيرة ما حفظته.

* * *

الاسم: چون سبيستيان أندريه.

تاريخ الميلاد: ٢/ ٦/ ١٩٧١.

الجنس: ذكر.

محل الميلاد: مونتريال ـ كيبك.

المهنة: حرفي صناعة الوشم.

الحالة البدنية العامة: جيدة بلا أي مرض مزمن.

الحالة المرضية: يشكو المريض من مشاهدة ظلال وأشخاص ذوي طبيعة خاصة. تتنقل تهيؤاته بطريقة سريعة بين أحداث تمت في فرنسا خلال العصر الملكي، وأخرى معاصرة يدعي فيها تورط شخصيات سياسية كندية. تم تشخيص حالته كانفصام حاد في الشخصية (شيزوفرنيا) من قبل أطباء نفسيين عدة. هذا التشخيص تمت مراجعته أكثر من مرة بسبب تحسن حالته الاستثنائي لأسباب غير مفهومة لفترات تمتد لسنوات.

ملحوظة خاصة: على عكس مرضى الفصام المزمن الميئوس من شفائهم، تعاود المريض نوباته المرضية التقليدية، التي يخرج منها دون تناول أدوية أو تفسير طبي دقيق.

صفات نفسية أخرى: شخص حاد الذكاء. قوي الإرادة. لديه موهبة القيادة.

كان هذا هو التقرير الطبي التقليدي الملقى على مكتبي. دون ذكر أهم ما تجب إضافته عن مريض استثنائي كچون سبيستيان أندريه. فچون سبيستيان هو صاحب أهم خرافة صاحبت سيرة مريض عقلي في كيبك. (أقول خرافة ربما لأنني أريد أن أطمئن نفسي. كما حاول رئيس قسم الأمراض النفسية بالمستشفى طمأنتي). فكل الأطباء الذين تناولوا هذا الملف ذا الغلاف الأزرق المحايد الذي أمامي، ماتوا ميتات وحشية مرتبطة دائمًا بشفاء چون سبيستيان. ميتات لم يكن للشق الجنائي فيها أي أهمية. ببساطة لأنهم ماتوا جميعا منتحرين تاركين اعترافات خطية بنيتهم في الانتحار. الملفت للنظر أن هؤلاء الأطباء الذين أعرف أحدهم بشكل شخصي (وهو الدكتور نواز أحمد، زميلي الباكستاني). لم يقدموا على إنهاء حياتهم بشكل سريع وبطرق فعالة كمعظم المنتحرين، محاولين الهرب من الألم المصاحب لعملية قتل النفس. بل على العكس تمامًا. فقد مر جميعهم بمراحل عذاب بشعة قبل الوفاة، كأنهم لا يريدون أن يتسرب شعاع الحياة من أجسادهم بسرعة، ليكفروا بالألم عن جريمة ما. الأغرب أن چون سبيستيان أندريه نفسه. يخرج من حالته المرضية مباشرة بعد إعلان خبر وفاة طبيبه المعالج. يفتتح محل الوشم الذي يمتلكه ويبدأ حياة عادية تمامًا.

الآن وملف چون سبيستيان أندريه أمامي. تمر ذكرى الأطباء المساكين سريعة كوخز مؤلم في قلبي. أولهم كان الدكتور فيليب نلمن. الذي شاهد بنفسه تجميع دمه في الأكياس المخصصة لتجميع البلازما. واضعا إبرتها في ساعده ومنتظرا تصفية جسده تمامًا من الدماء. ثانيهم كان الدكتور ميخائيل بورفيتش الذي وجدوا جثته مصابة بعشرات الجروح القطعية بموسى للحلاقة، ملفوفا في ملاءة سريره

التي عصروا منها دماءه. المسكين الأخير كان صديقي نواز أحمد. آخر شخص اعتقدت أن بإمكانه الإقدام على تجربة انتحار. ذلك الباكستاني المتدين الدمث الأخلاق الذي كنت أصلي خلفه بالحجرة المعدة للصلاة بالمستشفى. وجدوا جثته مقطعة الأوردة في كل الأماكن التي تسمح بنزول الدم بكفاءة. مصحوبة باعتراف واضح بنيته في الانتحار. مختومة بتوقيعة وشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أصابتني ذكرى الأطباء المتوفين برعشة خفيفة مصاحبة لعرق بارد انسحب على مقدمة رأسي. فأخذت نفسا عميقا مذكرا نفسي بضرورة أن أثبت للجميع مهارتي وأحقيتي بوظيفة الطبيب النفسي التي طالما تمنيتها في كندا.

طلبت من الممرضة أن تستدعي چون سبيستيان أندريه. بينما في ذهني تتقافز خيالات أعرفها من أيام مراهقتي التي كنت أتقن فيها الاختباء والعيش في عوالمي الخاصة.

* * *

انتابتني صحوة نشاط مفاجئة وأنا أنتظر دخول چون سبيستيان أندريه. حالة من التوتر شبيهة بتربص الصياد بالفريسة. دفقة ثقة وترقب. كأن كل عنادي مع الحياة تمثل في قبضة موجهة لقلبي، فحطمت غلالة الخوف السميكة التي كانت تغلفه. اعتدلت في مقعدي آخذا وضعية الاستعداد. كأنني سأنقض على سبيستيان لأهشم أنفه حتى قبل أن يفتح فمه. شعرت بأن عروقي يسبح فيها أدرنالين خالص، بلا أي مكونات أخرى يحملها دمي.

انفتح الباب ليتقدم نحوي چون سبيستيان أندريه. الذي اتجه مباشرة إلى المقعد الذي وضع أمام مكتبي، بحيث يتاح لي تأمل مرضاي بعناية. بهدوء شديد رفع رأسه ونظر مباشرة في عيني. فأتعمد الهرب من نظرته التي حاول أن يهيمن عليّ بها. لتقع عيناي على وشم الأفعى ذات الرأسين المرعبين. فأعاود سريعا النظر في ملفه الطبي. أتفحصه محاولا التنفس ببطء وإعطاء نفسي برهة لاحتواء تأثير الهالة غير المرئية للكائن الذي أمامي. هالة تؤكد بأن چون سبيستيان أندريه لا يمكن أن يكون مجرد مريض فصام اعتيادي.

لم يكن لذلك أي علاقة بحكايات الأطباء المنتحرين. كانت هالته شيئًا فنيًا خالصًا كعرض يفرض عليك الانتباه من اللحظة الأولى. نحيل، يضغط باستمرار على فكيه فتتحرك عضلة بجوار عينه. شعره مصفف بعناية للخلف. يرتدي ملابس يغلب عليها اللون الأسود. بشرته

شديدة البياض، وكأنه شخص خرج لتوه من نزيف حاد، أو أنه لم ير الشمس لشهور. لكن يبقى أن أهم ما يميزه، هو تلك النظرة المتحدية المسيطرة. هالته تعبر بشكل واضح عن عبق ما. تاريخ بشري تنضح به هالات الأشخاص ذوي التجارب الإنسانية المريرة. شيء يرفض كثير من مدارس الطب النفسي الحديث عنه. بينما تتحدث عنه كتب بدايات الطب القديمة باستفاضة. يصاحبها غالبا كثير من تطرف الميتافيزيقا والخلط بين الأساطير وما نعرفه الآن بالطب الحديث.

حاولت أن أكسر الجليد الذي يصنع المسافة بيني وبين المرضى في الزيارة الأولى بابتسامة مهنية. خصوصا لو كانوا من نوعية چون سبيستيان. يتظاهرون بالهدوء بينما نفوسهم تسكن فوق بحور لا تكف عن الهدير. لأضطر في النهاية إلى فعل ما أوقن أنه لم يكن عليّ فعله. النظر مباشرة في عيني چون سبيستيان أندريه. تبدأ بيننا معركة صامتة. في عينيه نظرة استهتار بشخصي لا توصف. رسالة واضحة وصريحة بقلة شأني. كأنني طفل أخرق يرى تفاهته في عيني جده القاسي. نظرة صلبة من رجل قوي. يعرف جيدا كيف يقيم قوته العظيمة والطريقة المثلى لاستغلالها. ورغم كل شيء، هناك بعيدا جدًّا في أعماق ذلك الرجل الموسومة سيرته دائمًا بالشؤم. لمحة خفيفة لبعد إنساني خجول. حزن أستطيع استنشاقه كعطر رقيق تخبئه غمامة ثقيلة من القسوة. ومن بين كل تصوراتي المبدئية عن مريض عمري. كان يجب عليّ أن أتحدث.

ولأول مرة من زمن بعيد، راجعت في رأسي ما سأنطق به في حضرة چون سبيستيان أندريه، بالفرنسية التي أتقنها كلغة زوجة أب. من دون أن أعرف كيف خطر على بالي للحظة أنني لو تكلمت مباشرة بالعربية فسيفهمني سبيستيان. وكأن المشترك بيننا أكبر من حاجز اللغة الأحمق.

هناك شيء مشترك يجمعنا. كأنني أعرفه أكثر مما ينبغي. وكأننا أيضًا ندان أبديان لم تكن هذه مبارزتنا الأولى ولن تكون أبدًا الأخيرة.

بعد كثير من الصمت والترقب وتبادل النظرات. حدث ما لم أكن أتخيله، قام چون سبيستيان أندريه واستدار حول مكتبي ليقف إلى جواري مباشرة. فلم أجد مهربا من الوقوف أمامه محاولا الابتسام لأهدئه وأعيده لمكانه. بعد لحظة أبدية حملت كل الاحتمالات. بداية من محاولة الاعتداء الجسدي، حتى سقوطه أمامي مغشيا عليه. لألمح غمامة دموع تمتلئ بها عيناه اللتان لم تتوقفا عن التحديق في وجهي. أسمعه يهمس في أذني: «ها أنت ذا تعاود ظهورك من جديد لإنقاذي».

ورغم أنني لم أفهم شيئا من هذا العبث الذي اعتدته من المرضى. فإنني شعرت فعلا بأن ما يتفوه به چون أندريه سبيستيان ليس عبثا. فسحبته من يده ليتمدد على سرير المرضى التقليدي. لأجلس إلى جواره على مقعدي أعاود النظر لوجهه. وللحظة تخيلت أن وشم رأس أفعى الكوبرا التي تقابل صدغه المواجه لي قد أغلقت فمها المرعب وارتسمت على عينيها ابتسامة خجلة. فسحبت نفسا عميقا، زفرته ببطء كطريقة للوصول إلى الهدوء النفسي.

يبدأ چون سبيستيان أندريه في التحدث وكأنه منوم تحت تأثير سلطتي، التي لا أعرف كيف اكتسبتها. أنا الخجول المتردد الذي لا أعرف أبدًا كيف أدافع عن نفسي إلّا بالصمت وإدمان إظهار مشاعري الطيبة للجميع. لم أشغل نفسي كثيرًا بمحاولة إيجاد تفسير. المهم هو أنني في موقف قوة ويجب عليّ استغلاله.

* * *

كانت نشرات الأخبار قد حذرت مرارا من العاصفة الثلجية. شاهدت وأنا أتناول وجبتي السريعة بمطعم مكدونالد آثار الشلل التام الذي أصاب مدينة نيويورك على شاشات التلفزيون المعلقة أمامي. (ربما لتشغل الزبائن عن الطعم البلاستيكي للوجبة التي يقذفونها لجوفهم سريعا وبلا سبب واضح سوى التعود). ياالله، ٣٠ سنتميترا فقط من الثلوج استطاعت أن تعلن حالة التأهب القصوى! أخبروا أيضًا أن العاصفة في اتجاهها للشمال حيث مدينتي مونتريال. خرجت المذيعة ذات الأصول الآسيوية تتحدث إلى خبير الأرصاد الجوية الذي أكد أنها عاصفة استثنائية. ولأنهم يخشون انقطاع التيار الكهربائي، أغلقت المدارس بالولاية الأمريكية أبوابها. مؤكدا على وجود كثير من الأماكن المتوافرة لاستقبال الأسر التي تخشى من العاصفة الثلجية. تثبت على الشاشة أرقام هواتف جهاز إدارة دعم الأزمات للتبليغ عن أي حالات طارئة.

ابتسمت وأنا أنظر من النافذة إلى الثلوج المتراكمة في شوارع مونتريال. يصل ارتفاع بعضها إلى أمتار. «تحدثت لنفسي متسائلا: وما الجديد في ذلك؟». لأخرج إلى الشارع وأزيح الثلوج المتراكمة على زجاج سيارتي. كالعادة لم تستطع السيارة الحركة من كثرة الثلوج التي تكومت حول عجلاتها الأربع. فنزلت من السيارة مرتديا قفازي وحاملا الجاروف أزيح الثلج. (طقس اعتيادي بجدارة لكل من يمتلك سيارة في مونتريال). رششت الملح الخشن خلف العجلات متمنيا أن

تكون السيارة كريمة معي، فلا أضطر إلى محاولة أخرى كي أزيح الثلج من حول إطاراتها. حمدت الله وشكرت السيارة بمسحة من أصابعي المتجمدة على موقدها، وكأنها كلب وفي أداعبه. فمقياس حرارة الجو خارج سيارتي يشير إلى -٢٢° مئوية. فأيقنت أن أفضل ما يمكن فعله هو العودة سريعا للبيت. مشعلا تدفئة السيارة على القوة القصوى. كي يستعيد جسدي دفءه استعدادا لمعركة أخرى مع الثلوج التي تجب إزاحتها من أمام منزلي. لأجد مكانا أدفن فيه السيارة حتى الصباح. ذلك ما حدث بالفعل. اضطررت إلى العمل نصف ساعة كاملة لإزاحة الثلوج المتراكمة. لتدخل السيارة بعد معاناة في مغارة ثلجية صغيرة بجوار الرصيف. أرمي الجاروف في جوف العربة وأجري إلى مدخل العمارة محاولا أن أنقذ رئتي من التجمد.

أمام باب العمارة وجدت فتاة عشرينية سمراء تنتظر أحد سكان المبنى ليدخلها. ضربت الأرقام السرية لباب المبنى على اللوحة المعدنية بسرعة وفتحت الباب. لأنظر للفتاة التي كانت تتابعني بنظرها مترددة. سألتها:

- هل تدخلين أم أغلق الباب؟

الغريب أنها بعد فترة ردت:

- ألست حضرتك الدكتور أشرف المدني؟ فهززت رأسي بالموافقة.

- أنتظرك من فترة حتى كدت أن أتجمد.

- معذرة ولكني لا أعرفك.

- ستعرف كل شيء حالا، ولكن هل تسمح باستضافتي وتقديم كوب ساخن من القهوة لي. أشعر بأنني سأموت من التجمد.

في الأغلب أنا لا أسمح للغرباء بالتدخل في حياتي. «شقتي الصغيرة التي أسستها بعناية هي وطني المتخيل في هذه البلاد. أعتبر أن من يدخلها لا بد له من أن يحمل فيزا خاصة مني. بالطبع قد تدخلها بعض الفتيات لتلبية الاحتياجات البيولوجية لرئيس جمهورية الشقة، الذي هو جناب سعادتي. لكن هؤلاء يحصلن على فيزا دخول لمرة واحدة فقط. وغالبا لا يعبرن حدود دنياي مرتين».

انبهرت الفتاة من ديكور شقتي العجائبي، وأثاثها الذي اخترته بذوق فني وبسيط في الوقت ذاته. تختار الكرسي الذي على هيئة يد تحمل الجالس عليه فتجلس مبتسمة.

ـ ذوقك جميل جدًّا يا دكتور.. رغم أن الشقة تبدو صغيرة، فإنك تصنع منها متحفا حقيقيا.

أعجبني إطراء الفتاة ورقتها. ولأول مرة تتاح لي الفرصة للتطلع في ملامحها. سمراء عشرينية بشعر ناعم مسترسل. عيناها الزرقاوان تشعان من وجهها بنور يضيف إلى وجهها جمالا على جمال. ملامح تشي بالطبع بأنها نتاج زيجة مختلطة بين الأصول الكندية والإفريقية. هذا ما يؤكده أيضًا لون بشرتها السمراء الفاتح. ترتدي الجينز الضيق بفتحة فوق الفخذ النحيل، وتي شيرت أبيض عليه صورة فتاة تطلق الفراشات من كفها. فوقهما معطفها الشتوي الأسمر (النورثن فيس) الذي وضعته إلى جوار معطفي فور دخولها. تتحدث الفرنسية بلكنة أهل البلد. لكنها تستخدم صيغة الجمع لمحادثتي كما يفعل الفرنسيون، على عكس معظم أهل كيبيك. نحيفة تمشي برشاقة حاسبة خطواتها كعارضة أزياء محترفة. تجلس منتصبة القامة كأنها ستبدأ العزف على البيانو.

أصابعها نحيلة وطويلة كأصابع الجراحين المهرة. تغطي أظافرها بأظافر اصطناعية عليها رسوم لفراشات صغيرة. لا تكف عن الطرق بها على ركبتها نتيجة توترها رغم هدوئها الظاهر.

في محاولة مني لتهدئتها، وضعت أسطوانة موسيقية لموتسارت قبل أن أتجه لإعداد القهوة. ومن المطبخ الصغير تابعت الفتاة بعيني. فوجدتها ما زالت محافظة على وداعتها، تقلب عينيها بين لوحاتي المعلقة على الحائط من دون أن تقوم وتراها من قرب، كعلامة على التربية الجيدة. فاخترت أن أقدم لها القهوة في فناجين البورسلين الفاخرة. والتي لا أخرجها عادة من دولاب عرضها. (كنت قد اشتريت هذه الفناجين من منزل رجل متوفى عرضت ابنته حاجياته للبيع، فحصلت عليها بسعر أقل أضعافا من قيمتها الحقيقية. لأعرضها لضيوفي المميزين محاولا إظهار نفسي كبرجوازي غني). أخرجت البسكويت بالشكولاته من علبته الفخمة لأقدمه للفتاة التي بدأت تعجبني، كأنثى تستحق الحصول على فيزا دخول لشقتي متعددة مرات الاستخدام. ذهبت إلى حجرة نومي فوضعت عطرا خفيفا يناسب السهرة. لا يشي بأنني قد وضعته للتو. حملت القهوة والبسكويت ووضعتهما أمام الفتاة التي حملت فنجانها مباشرة لتدفئ يديها. بينما تتمتم شفتاها بكلمة شكرا التي نطقتها بلطف لا يوصف.

ـ إذن أيتها الفتاة المهذبة. ما المناسبة السعيدة التي جعلت فتاة جميلة مثلك تزورني؟

ـ يبدو أنك متعجل يا دكتور. لا تريد أن تنتظر حتى أنتهي من شرب قهوتي والشعور بالدفء.

ـ على العكس تمامًا. فنادرا ما يزورني أحد. أعيش في مونتريال من سنوات. أعتاد مقابلة أصدقائي الذين هم في أغلبهم مصريون مثلي بالمقاهي أو البارات. زيارة فتاة جميلة مثلك لشقتي حدث جدير بأن يكتب في سجل تاريخ الشقة.

ـ غريب فعلا. مع أنك تعيش وحيدا بلا امرأة. فإن شقتك في منتهى التنظيم والنظافة.

فاجأتني ملاحظة الفتاة. وتأكدها من أنني أعيش وحيدا فسألتها:

ـ وكيف تعرفين أنني أعيش وحيدا؟

رغم أن سؤالي قد أربك الفتاة، فإنها استطاعت السيطرة على اضطرابها مبتسمة. لتجيب عن سؤالي بصوت أنثوي مشاغب يصاحبه نظرة دلال:

ـ واضح أن شقتك مرتبة بنظام ذكوري صارم. نحن النساء لنا لمساتنا التي تغيب هنا تمامًا.

إجابة ذكية ولَّدت لديّ قلقا ما من الفتاة. لكن حديثها الذي أصبح أكثر ودا، أيقظ شقاوة ذكورية عاهدتها في نفسي مع الجميلات من بنات حواء. فرددت على ابتسامتها بابتسامة متسائلا:

ـ ولكن اسمحي لي، فأنا إلى الآن لم أتعرف على ضيفتي التي حضرت بدون ميعاد أو سابق معرفة.

وبحركة استعراضية مضحكة. وضعت فنجان قهوتها على الطاولة. وانحنت أمامي كما ينحني فنانو المسرح لجمهورهم. ثم استقامت ومدت يدها لي مصافحة:

ـ مود بيير. اسمي مود بيير. طالبة بالسنة الثالثة بكلية الطب بجامعة ميجيل. أحب القراءة وبخاصة تاريخ الحضارات القديمة.. أعمل أيضًا راقصة إستربتيز لأغطي مصاريف دراستي.

أدهشتني الطريقة المباشرة والبسيطة التي قدمت بها الفتاة نفسها. فسألتها من دون أن أفكر:

ـ وماذا تفعل راقصة التعري الشابة في بيتي؟

كان رد مود عليّ يفوق كل ما تخيلته. خلعت أولا التيشيرت بحركة سريعة. فظهرت حمالة الصدر الصغيرة وجسدها النحيل كمراهقة. خلعت أيضًا حذاءها الرياضي وبنطالها بنفس السرعة. حدث ذلك في ثوان دون أي محاولة لإغرائي. فظهر وشم أبيض عجيب على جلدها الأسمر لأفعى تلتف على جسدها كشجرة. وشم شديد الدقة وكأن الأفعى حية تتحرك على جسدها. أذهلني المشهد فصرت أتمتم: هذا غير منطقي أبدًا. لا يمكن صنع وشم أبيض. بينما الفتاة لا تتوقف كثيرًا أمام ذهولي. على العكس، عادت لارتداء ملابسها بسرعة كما خلعتها. ممسكة فنجان قهوتها لتكمله. حتى أيقنت أنني استوعبت الموقف. لتخبرني بصوت تقريري واضح:

ـ لقد حضرت إلى هنا بناء على طلب من چون سبيستيان أندريه. لتتأكد بأن كل ما أخبرك به وما سيخبرك به حقيقي.

عندها هربت الدماء من جسدي وأيقنت بأنني في مشكلة عظيمة.

* * *

عندما تمدد چون سبيستيان أندريه على سرير الكشف أمامي. لم أتيقن هل شعوري بالسيطرة عليه نابع من قوة خفية لديّ، أم أنها محاولة سحرية منه ليحضرني ذهنيا لما سأسمعه؟ وأيا كان ذلك. فسبيستيان قد قام بسحبي كصياد إلى عالم لم أكن أبدًا أتخيل أن قدميَّ ستطآنه يوما ما. قال بصوت واضح وهو يتعمد الضغط على كل حرف من كلامه ليصل واضحا تمامًا لأذني:

«أعلم أنك لا تتذكر شيئا من الحكاية كلها. لكن لا تخش شيئا يا صديقي العزيز. أنا هنا لمساعدتك على التذكر. لا تعتبر ذلك جميلا. بل على العكس تمامًا. أنا الذي عليه شكرك دوما. سواء على ما فعلته لي في حياتنا السابقة أو ما ستفعله لي في هذه الحياة. صدقني السنون الماضية كانت صعبة عليّ جدًّا، لدرجة أنني فكرت في الانتحار. مثل هؤلاء الجهلة الذين يتركون أرواحهم تنتقل من جسد إلى جسد آخر. دون أن يتحملوا عناء تتبعها واكتشاف كم نحن خالدون. أعلم أنك ربما متعجب مما أقوله لك. أتفهم ذلك. كما أتفهم أنك لا تتذكر كم هي روحك خاصة وخالدة. روحك هذه التي تسكن الآن ذلك الجسد الذي أمامي. والذي لا أعلم من أي جهة جاء. دون أن تعرف قيمتها في عالم الأرواح الخالدة. لكني أراهن على أنها تسكن جسدا ينتمي لحضارة قديمة رائعة كعادتها.

آخر مرة تلاقينا فيها، كانت روحك تسكن جسد سيدة ممن تبقى من

قبائل الأنكا. حدث ذلك في حانة صغيرة بالمكسيك. بالتأكيد لن تتذكر ذلك. كانت روحك تسكن في جسد سيدة قصيرة وممتلئة قليلاً. لها نظرة خاصة وابتسامة مميزة. أعتقد أنها كانت تكسب قوتها من التنجيم. لأنها هي من تعرف عليّ ودلتني على نفسها. يومها استمتعنا بكثير من الذكريات. وحكيت لك كيف حملت جسدك مع الرفاق الآخرين إلى البلاد الجديدة. بعد قصتنا المروعة مع الملك بباريس. لنذهب كي نختبئ من عيون متطفلي البار. فتطلب مني أن أرسم على رقبتك وشمك المفضل (الرقم ١٣)، رقمك الأصلي في جماعتنا التي أنارت ليل باريس بالقسوة والنظام. كان ذلك من زمن بعيد جدًّا يا صديقي. للأسف فقدتك بعدها. وعندما ذهبت بعد أسابيع إلى البار وسألت عن السيدة التي كانت تقرأ الطالع وتحمل وشم ١٣ الجميل على رقبتها. أخبرونى أن بعض المتعصبين أحرقوها باسم المسيح. أحرقوا أيضًا بيتها لأنها تمارس رذيلة السحر. فعرفت أن روحك بخير، وأنك ربما قررت المغادرة إلى جسد آخر.

ويا لحسن حظي، فها أنا ذا أجدك مرة أخرى بمحض المصادفة. أليس ذلك جميلا؟

المهم أيضًا أنني ما زلت أحافظ على هيئتي بشكل ما. فأعاود وشم الأجساد التي أسكنها بوشم الكوبرا. ما زلت أحتفظ بالاسم الذي حملته لأروع شخصية سكنت جسدها، چون سبيستيان أندريه. محاولا أن أكون على عهدي مع الرجل العظيم ومعكم.

عرفت مؤخرا أنهم وجدوا جسده في مكان ما في شمال إيطاليا. وأنهم سموه رجل الجليد «أوتزي». عقدوا مؤتمرات واحتفالات لأنهم

وجدوا أقدم مومياء في التاريخ. متعجبين لأنهم وجدوا الجسد موشوما في وقت لم يتخيلوا فيه وصول الإنسان للرسم المقدس.

أعلم أن روحك لم تتغير كما لم تتغير روحي. هناك فقط بعض الرماد الذي تجب إزالته عن جوهرة روحك النفيسة. رماد يشوش رؤيتك ويطمس قدرتك على التذكر. بعدها ستكتشف بنفسك كل شيء. الفرق الوحيد بيننا هو أنني كنت صارما جدًّا مع نفسي. لم أمارس رذيلة النسيان لأستمتع بنشوة التذكر. متتبعا ذكريات الأجساد الفانية التي تتخذها روحي كشرنقة. وفي انتظار تجمعنا، عملت دوما بإصرار على اكتشاف شيء جديد أحاول أن أدهشكم به أنت والرفاق. وربما روح أوتزي العظيم ذاته. من أشهر توصلت لتحفة رائعة، وشم لا يمكن تصديق حدوثه، إبداع يخلب العقل ويعطي لك القوة الكاملة. سأجعلك تشاهده في أقرب فرصة. لتتأكد أن كل ما حكيته لك حقيقي. وعندها ستبدأ رحلتنا التي انتظرناها طويلا».

وعندما انتهى چون سبيستيان أندريه من كلامه التزم الصمت المطبق ورفض الإجابة عن أسئلتي التي وجهتها له. بالطبع كنت قد سجلت كل ما قاله چون سبيستيان في جهاز تسجيل صغير كعادتي مع المرضى. دون أن يعني ذلك لي شيئا أكثر من تخيلات مريض مصاب بالفصام النفسي الحاد. أوصيت له في التذكرة الطبية بكمية جيدة من المهدئات. تجعل عقل هذا الرجل مشلولا تمامًا عن اختراع خرافاته التافهة.

لكن الآن بعد زيارة هذه الفتاه لبيتي تغير كل شيء. ورغم الظروف الجوية الرهيبة لمونتريال التي بدأت عاصفة نيويورك تضربها بقسوة. أكثر عشرات المرات مما فعلت في المدينة الأمريكية. فإنني لم أستطع

الانتظار حتى الصباح وعدت إلى مكتبي بالمستشفى محاولا إعادة الاستماع إلى تسجيل مريضى چون سبيستيان أندريه. لكن المفاجأة كانت أنني لم أجد أي أصوات في شريط التسجيل. وعندما ذهبت إلى حجرة چون سبيستيان أندريه، وجدته نائما كالميت بفعل حبوبي المهدئة. فقررت البحث بنفسي عن الفتاة السمراء الرائعة بوشمها الأبيض الذي أخبرني سبيستيان بأنه تحفته الرائعة التي ابتكرها من شهور.

* * *

أوقن بأني شخص ليس له علاقة بعوالم صالات التعري المشهورة بصالات «الإستربتيز». ليس نتيجة لتكويني كشرقي محافظ، كما أحاول الادعاء في الأوساط العربية بمونتريال لنيل الاحترام. (هناك دائمًا قناع ما يجب أن ترتديه ليتم قبولك وسط جاليتك الأم، قناع ينتمي للتقاليد والأعراف التي هربت منها نفس الجالية بسبب نفس الأعراف). ولكن لأن لي تجربة سيئة جدًّا أبعدتني عن كل ما هو إيروتيكي ويقدم بشكل جماعي. كنت قد ذهبت إلى إحدى السينمات التي تقدم أفلاما جنسية بشارع سان دوني بباريس مع بدايات اكتشافي العالم خارج مصر، لحضور مؤتمر طبي لم أعد أتذكر تفصيلاته. سينما ليست بعيدة عن ملهى المولان روج الشهير. كنت ثملا قليلًا بعد أن أكثرت من شرب البيرة المثلجة في صيف باريس الحار. مما جعلني مستعدا لخوض مغامرة ما. فقطعت تذكرة السينما منتشيا بتلك الشجاعة التي يصنعها الكحول. كان عليّ الاختيار من إحدى الصالات الثلاث. التي تتصاعد منها أصوات صراخ لنساء يتصنعن جنسا ميكانيكيا مزعجا. ومع ذلك لم تكن المشكلة فيما يقدم. مشكلتي الحقيقية كانت مع الظلام وزبائن السينما. كان معظمهم من الشواذ جنسيا الباحثين عن صيد ذكوري. وفي الظلام لا تستطيع توقع ما سيأتيك من الخلف. أصابني ذلك بالرعب خصوصا وأنا أنظر إلى ابتسامات الرجال المتوددين لي. لكنني حاولت التكيف كراشد يكتشف عالما سريا تخيل أنه مدهش. لكن البيرة اللعينة

التي شربتها لم تجعلني أصمد. كان عليّ الذهاب للحمام وفورا. لأكتشف المفاجأة بتحرك حشد من رواد السينما خلفي باتجاه الحمام. مما استدعى أن أخرج من السينما سريعا. لأقضي حاجتي في الشارع بجوار نافذة بيع تذاكر السينما. غير عابئ بنظرات المارة الباريسيين المتقززين من السائحين الذين يمارسون همجيتهم في شوارع مدينتهم الجميلة. ذلك الهروب من محاولة التحرش جنسيا بي. أعاد لي صوابي وجعلني أخشى تكرار المحاولة مرة أخرى في حياتي.

أتذكر هذه الواقعة الآن وأنا أفكر في البحث عن مود بيير السمراء ذات الوشم الأبيض. فكل ما قالته عن نفسها يؤدي إلى طرق مغلقة. ذكرت أنها طالبة للطب في جامعة ميجيل العريقة. بالطبع من المستحيل الوصول لأسماء الطلاب في أي كلية بالجامعة، نظرا لأن معلومة كهذه تندرج تحت بند الحفاظ على الحياة الخاصة للطلبة. معلومة كونها تعمل كراقصة تعري لن تفيد أيضًا. فبغض النظر عن خوفي الذي ذكرته مسبقا، يوجد في مونتريال عشرات الملاهي وصالات التعري التي قد تعمل مود بيير بإحداها. وبالطبع من المستحيل البحث فيها كلها. لذلك حاولت أن ألتمس الهدوء وقررت العودة للمنزل، محاولا استخدام عقلي المهني لتحليل وضعي الغريب في هذه القصة التي بدأت التورط فيها.

دخلت منزلي وأشعلت إضاءة خافتة. كان جهاز التسجيل ما زال يعاود من نفسه موسيقى موتسارت الناعمة فتركته. ملأت البانيو بالماء الساخن وألقيت بجسدي فيه. سامحا للماء والموسيقى بمحاولة إطفاء توتري. وبدأت إعادة تقييم الموقف.

أولا، هذه القصة تحرق أعصابي لأنني خائف من أن ينضم اسمي لقائمة أطباء چون سبيستيان المنتحرين. يجب عليّ إذن التخلي عن الخوف تمامًا. لذلك بدأت في أخذ أنفاس عميقة تاركا لها مهمة إخراج الخوف المسمم من جسدي.

ثانيا، ما حكاه چون سبيستيان أندريه حرك شيئا له ظلال ما في نفسي. ففكرة إعادة تدوير الأرواح فكرة شغلتني كثيرًا. صحيح أنني أغلقت هذا الباب مع نفسي لأسباب دينية لا تتماشى مع ما يجب عليّ الإيمان به كمسلم. لكن لكي أكون صادقا، فإن عدم إيماني الكامل بالفكرة منطلق من استحالة برهنتها علميا. رغم أن أحد أقرب أصدقائي المصريين إلى قلبي في مونتريال، استطاع عن طريقة ممارسة رياضة روحية هندية التوصل إلى اكتشاف تفاصيل حياته السابقة. بالإضافة إلى أن الفكرة نفسها تطرق لها كثير من حضارات العالم القديم والديانات غير السماوية.

ثالثا، والألطف هو أنني معجب بشكل أو آخر بمود بيير السمراء. تلك الحورية الهاربة من إحدى الأساطير المدهشة.

لكن رغم كل شيء. أنا أمام حالة طبية يجب التعامل معها في حدودها العلمية. أؤمن دائمًا بأن هناك علاقة شديدة الخصوصية بين أعراض أي مريض نفسي ومهنته. وإذا أخذنا في الحسبان أن مهنة چون سبيستيان أندريه هي صناعة الوشم. فببساطة يمكن التأكيد على حقيقة أن چون سبيستيان رجل مهيمن. رجل له شخصية تستمتع بترك أثرها على أجساد زبائنها إلى الأبد. محاكاة لخلق جديد على الجسد البشري، مهنة تحتاج إلى يد ثابتة وروح مسيطرة. تضع بصمتها بصبر وشجاعة. إنها مهنة لا تحتمل الخطأ.

الوشم ذاته فكرة محيرة. بدأت كطقس ديني في جزيرة نائية بجوار نيوزيلاندا. لتصبح علامة تحديد لهوية المساجين في اليابان. تتطور فتصبح علامة هوية لعصابات أو لمجموعات عرقية بعينها. قبل أن تتحول إلى فن وموضة في العصر الحديث. ورغم كل هذا، فإن بداياتها ما زالت أحد ألغاز الحضارة الإنسانية. فجسد مومياء الثلج التي اكتشفوها في عام ١٩٩١ في كهف ثلجي بين النمسا وإيطاليا. وتم تقديمها على أنها أقدم مومياء لجسد بشري، كان بها كثير من رسوم الوشم. أعتقد أن هذه المومياء هي الجسد الذي ذكره لي سبيستيان مسميا إياه بجسد الرجل العظيم «أوتزي».

في الحضارة الرومانية تم وشم العبيد حتى يمنع هروبهم بكلمات «أوقفوني.. أنا هارب». في حين أن العبيد الذين يتم تصديرهم يوشمون بكلمات «الضريبة مدفوعة». البحارة أيضًا استخدموا الوشم ليستدل على جثثهم في حالة غرقهم في البحر كي تتعرف عليهم أسرهم.

لكن إحدى ملاحظاتي النفسية التي كانت ولا تزال تشغلني، هي ما يصاحب الشخص الموشوم من تعليلات لنفسه. فأن تضع رسما دائما على جلدك، قرار لا يمكن اتخاذه بسهولة. لا بد أن تكون تحت تأثير ثقافة ما، تسمح لك بأن تسلم روحك لشخص سيعيد تكوين جزء منك. متحملا الألم والجلوس مسلوب الإرادة لساعات بدون حركة. مانحا كل ثقتك لهذا الذي ربما لا تعرفه شخصيا.

وإذا عدنا إلى مود بيير طالبة الطب المتحررة بنت الثقافة الغربية التي لا تنتمي غالبا لأي عقائد ذات صلات بالعالم القديم. فلابد أن هناك علاقة ما بينها وبين چون سبيستيان أندريه. صحيح أيضًا أن فردا

من كل سبعة أشخاص يضع وشما في أمريكا الشمالية. إلا أن ارتباط مود بيير بشخصية كچون سبيستيان أندريه والفروق الثقافية بينهما، بالإضافة إلى نوعية الوشم الأبيض. كل هذا يدل على علاقة خاصة لها نكهة أسطورية. علاقة قادرة على جعله يتحكم فيها ويرسلها إلى بيتي ليؤكد صحة كلامه. علاقة تسمح لهما بالاتصال دون أن يراها أو يتحدث معها. حيث مكان تواجده بالمستشفى حيث يستحيل على المرضى الاتصال بالعالم الخارجي، بدون إذن الطبيب المعالج.

أخرجني صوت رنين الهاتف من تحليلاتي. لكني لم أحرك ساكنا. منتظرا أن يترك المتصل رسالته على جهاز تسجيل الرسائل الصوتية. فلا أحد مهم وسط هذه الفوضى التي تشل عقلي. لتكون المفاجأة هي ذلك الصوت الأنثوي الناعم الذي لم تنمح بصمته من ذاكرتي. كانت المتصلة هي مود بيير نفسها. ورغم أنني قفزت خارجا من الحمام كالمجنون، فإنها قطعت الاتصال قبل وصول يدي له. فجلست معيدا الاستماع إلى رسالتها مرات ومرات. دون الاهتمام بمقعد الصالون الذي بلله جسدي العاري.

«دكتور أشرف.. أعتقد أنك تبحث عني. سيسعدني لو شاركتني فنجان قهوة بالمقهى الصغير المقابل للمستشفى غدا الخامسة مساء. أحلاما سعيدة. صديقتك الصغيرة.. مود بيير»

* * *

تمدد چون سبيستيان أندريه على سرير المرضى مستعدا للكلام. كان لسانه ثقيلا قليلًا من أثر كمية المهدئات التي وصفتها له. لم أكن أتخيل أنه سيستطيع النهوض من تأثيرها قبل أيام. لكنهم أخبروني عند بداية اليوم أنه يقظ تمامًا ويريد مقابلتي. كنت في حالة جسدية مزرية بعد ليلة بيضاء لم استطع النوم فيها من كثرة الأحلام والكوابيس المتناقضة. حلمت بمود بيير تمارس معي الغرام بمتعة لا توصف. لتتحرر أفعى الكوبرا الموشومة على جسدها وتلتهمني. حلمت أيضًا بأنني محبوس في تابوت خشبي يغطي جسدي كله وشم لأفاعي وأرواح شريرة. وأنني أتألم وأصرخ ولا يسمعني أحد. ليأتي چون سبيستيان أندريه فيزيح غطاء التابوت ويحتضنني. حلمت بصديقي المرحوم الدكتور نواز أحمد يربت على كتفي ويشجعني بينما تتساقط قطرات دمه على وجهي وتحجب رؤيتي. حلمت أيضًا بأبي الذي رحل عن عالمنا. ينظر لي بعتاب. لأنني أخاف من أن أواجه قدري كرجل يفتخر به. لكنه رغم ذلك يقبلني على جبهتي ويعلن دعمه لي. أحلام وأحلام وأحلام. جعلتنى أخاف من العودة إلى النوم الذي كنت مضطرا للسقوط فيه من شدة إرهاقي بعد يوم طويل من العمل. لأستيقظ قبل أن يرن جرس المنبه في السادسة صباحا كالعادة.

أمام چون سبيستيان أندريه أمسكت بالورقة والقلم محاولا أن أسجل ما يقول. بعد أن فشل جهاز التسجيل في الاحتفاظ بكلامه

السابق لي. وزيادة في الاحتياط وضعت كاميرا فيديو صغيرة لتسجل حواره معي. رغم أن ذلك يخالف قواعد العمل بالمستشفى. والتي تَعُدّ تسجيل حوارات المرضى مصورة جريمة. خوفا من سوء استغلال هذه الأفلام ضد المرضى أنفسهم. لكني بعد دقيقة من التفكير أعدت الكاميرا إلى درج مكتبي. وبهدوء ورباطة جأش تحدث چون سبيستيان موجها نظره إليّ.

«لماذا فعلت ذلك يا صديقي؟ كان كل شيء يسير كما خططنا له. لم أصدق كذبة أنك أحد رجال الملك. كما لم أصدق أبدًا أنك تعاطفت مع هؤلاء العبيد. كان كل شيء يسير بالدقة المطلوبة. عشرة أطفال ذكور لم يبلغوا شهوتهم الجنسية بعد. كانت دماؤهم هي القربان الذي سيسمح لنا بالاحتفاظ بأجسادنا إلى الأبد. ما أهمية التضحية بعشرة أطفال من أجل خلود ثلاثة عشر رجلا من أعظم الرجال وخلودي معكم؟ إنهم حتى لم يكونوا أطفالا اختطفناهم من أولاد البشر. كان لون أجسادهم أسود كلون آبائهم العبيد. السود كائنات وسيطة بين تطور الحيوان والإنسان. لا يشعرون بالألم عند ذبحهم كالخراف. كان هناك في أوربا حدائق يعرض فيها الزنوج كحدائق الحيوان. عندما كانت أوربا تتمتع بالكرامة والكبرياء. لم أختطف أولاد فرنسيين بلون جلد تفوق جنسنا الأبيض، لأنني خفت منك تحديدا. بقية الرجال لم يكن لديهم مانع من فعل أي شيء من أجل خلودهم. أما أنت فكنت تمتلك تلك الروح القلقة التي ما زلت أراها أمامي، والتي سببت لي ولرجالي كثيرا من المشكلات. ورغم كل شيء فإنه لم يكن من الممكن الاستغناء عنك. كنت آخر من انضم للمجموعة وأكثرنا مهارة في ابتكار الوشم المقدس. روحك قادرة على ابتداع الأفكار والتحكم في رعاياك. تسحر

الرجال والنساء الذين ترسم على جلودهم أشكال حوريات وأطفال مجنحين لها القدرة على الإضاءة في الليل. فيستمعون وينفذون أوامرك ككلابك الوفية. لكن فاتني أن أفهم أن الرجل الذي له قدرة كقدرتك ولم يستغلها أبدًا في إسعاد ذاته، لا بد أن يصنع لنا المشكلات. كنت رفيقا جيدا يا رجل. فلماذا لم تسمح لنا بالخلود؟

كنا قد جمعنا الأولاد في بيت صغير بباريس. وأعطينا لهم لحم الخراف لشهور كي يتكون لحمهم من نفس اللحم الذي يتم التضحية به منذ بداية التاريخ. أعطيناهم أيضًا النبيذ الأحمر المقدس وعودناهم على مضغ الكوكا. كانوا أسعد أطفال في العالم. عاشوا في صحبتنا متعًا لم يكن لهم كعبيد الحصول عليها طوال حياتهم. ويوم تنفيذ التضحية البشرية لروح الرجل العظيم لنكون أول البشر التحاما بالروح المقدسة التي خرج منها كل البشر. أعددنا المذبح وجعلنا الأولاد يلهون حوله منتظرين انتصاف الليل لتبدأ الطقوس المقدسة. كان علينا إخراج القلوب العشرة وقذفها إلى السماء وهي ما زالت تنبض لتتحقق المعجزة وننال خلودنا. ونغلق باب الموت والفناء البشري للأبد. لم تشغلني أبدًا علاقتك المخجلة التي تورطت فيها مع تلك الفتاة السمراء التي كانت ابنة لأحد أمراء وسحرة إفريقيا. كنت أعرف أن السود يمارسون سحرا عظيما لا يمكن هزيمته. لكنني بكل خبرة روحي التي جمعتها على مر آلاف السنين. عابرا في أجساد بشرية لا أستطيع عدها من كثرتها. مختبرا لمئات المرات عذاب الفناء وانتظار العودة للحياة. محروما من الخلود والعودة كنقطة ماء إلى النبع الأول الذي خرجت منه الحياة. كنت مؤمنا بأنك شخص لا يمكن سحره. فروحك أعظم من أن يسحرها أي شيء آدمي. لم أكن أتخيل أن أحد رجال جماعة چون سبيستيان أندريه

العظيم، سيسمح لنفسه بأن يسقط في رذيلة الحب النجسة، كالعامة وأصحاب النفوس التافهة. لكنك كعادتك فاجأتني يا رجل. لتنقض علينا فرقة فرسان ملكية كاملة قبل منتصف الليل بدقائق. ليلتها قاتلت معنا بكامل شجاعتك. كأمير يدافع عن تاجه حتى النقطة الأخيرة من دمه. منفذا عهدك الذي قطعته على نفسك. بأن تذوب فينا وتضحي بجسدك من أجلنا. ورغم أنكم جميعا غادرت أرواحكم الأجساد الفانية ليلتها، لتتركوني وحيدا أواجه النفي وغطرسة الملك الحقيرة. فإنني أصررت على أن آخذ أجسادكم معي إلى الأرض الجديدة. كي انفذ قرار الملك. الذي أصبح يخاف من مجرد نطق اسمي أكثر مما يخشى الموت.

صدقني يومها لم أحمل نحوك أي ضغينة. لأنك دائمًا كنت منقذي ومالك سري الذي لا يعرفه أحد. لكني لم أستطع أن أسامح تلك الفتاة السمراء التي دمرت حلم خلودنا بحبك لها. وها أنا ذا بعد كل هذه السنوات قد وجدت روحا تنتمي لها، ما زالت تعيش في جسد فتاة سمراء فقررت الانتقام منها. رسمت على جسدها وشمي الأبيض ووضعت معها أفعاي الحارسة لتمنع تأثيرك عليها. أستطيع أن أخبرك أنني وجدت تقريبا أرواح رجال مجموعتنا كلها. وأن خلودنا أصبح قريبا جدًّا. وأننى سعيد جدًّا بتورطك من جديد في لعبتي التي يمتعني وجودك فيها».

* * *

في الخامسة تمامًا كانت مود بيير في انتظاري بالمقهى المجاور للمستشفى. سمحت لنفسي بالتلصص عليها من خلف زجاج المقهى وهي منهمكة في اللعب بجهاز هاتفها الجوال. جسدها النحيف وملامح وجهها المتابعة للعبتها بشغف، أكسبتها مظهر مراهقة ذات براءة ودعة مبهرين. لكني شعرت بأنني أمام امرأة ناضجة ذات فتنة طاغية، بمجرد احتضان يدي ليدها مصافحا. ترتدي قميصا أزرق بلون عينيها الفاتنتين. شعرها الأسود يسترسل على كتفيها برقة كالحرير. تكشف فتحة القميص عن ثديين شهيين كحبتي رمان تخفيان نبيذا لا يجف.

اختزلت المسافة التي يخلقها عادة ترددي بابتسامة من فمها. فأشرقت أسنانها ناصعة البياض كالحليب. فشعرت بأنني في صحبة صديقة قديمة. لم أحاول الحديث عن وشمها الأبيض أو حتى ذكر حيرتي من علاقتها بجون سبيستيان أندريه. خوفا من أن تضيع مني متعة التعرف على هذه الفتاة الرائعة. فقررت التحدث في أي شيء آخر.

ـ أشكرك على اتصالك بي بالأمس.

ـ على العكس. أنا من يجب عليه الاعتذار عما سببته لك من ارباك.

ـ حسنا دعينا نتناسى كل ما يمكن أن يسبب إرباكا لكلينا الآن. واسمحي لي بأن أتعرف عليك أكثر.

ـ في العادة أنا من يستمع للرجال أولا. هذه هي قواعد اللعبة التي أحبها.

ـ سامحيني فأنا لا أجيد فن معاملة الفاتنات. خصوصا لو كن أصغر مني سنا ويمتلكن عيونا زرقاء فاتنة.

ـ هل أعتبر هذا غزلا؟

ـ ربما. ولكني أعتقد أنه تقرير لواقع مدهش.

ـ إذًا حدثني عن نفسك أولا.

ـ ليس لدي الكثير لأحكيه عن نفسي. مصري مهاجر لكندا منذ ثماني سنوات وأحمل جنسيتها. أعيش وحيدا وأعمل كما تعلمين طبيبا نفسيا. أهوى اللوحات الزيتية ذات الطابع الذي يدعو للتأمل. أحب الطهي وكتب الأساطير وتاريخ الحضارات القديمة. لي تجارب سابقة في التمثيل المسرحي كعلاج ناجح للخجل.

ـ يقولون أن الأطباء النفسيين يتأثرون دوما بمرضاهم. وإن بعضهم يصاب بالأمراض النفسية.

ـ ربما. لا أعلم. النفس البشرية معقدة جدًّا. أحيانًا تصيبني بعض حالات مرضاي بالحزن لأنني لا أستطيع المساعدة. ولكني مع الوقت تعلمت فن الاحتفاظ بنفسي بعيدا عما يعتقده المرضى. المرض النفسي يسكن دائمًا في قدرتنا على الاعتقاد وإيماننا بما نعتقد به.

ـ كنت أظنك ستتبنى نظرية كتب الطب الحديثة بأن المرض النفسي ليس إلا تغيرا ما في كيمياء المخ. أليس هذا ما يعلمونه لنا؟ لهذا يحاول الطب الحديث معادلة كيمياء المخ التالفة بعقاقير شبيهة بما تفرزه خلايا الجسد السليم من بروتينات مثبطة للنشاط المرضي.

ـ تتحدثين وكأنه يجب علينا محاربة الشر بشر أقوى منه. الطب في النهاية علم يبحث دائمًا عن إجابات للأسئلة. صحيح أنه في الأغلب تبقى ملايين الأسئلة بلا إجابة. إلا أن دورنا كمهتمين بالعلوم هو ألا نكف عن طرح هذه الأسئلة. لعلنا في يوم ما نجد الإجابات.

ـ أو نصاب بالجنون الكامل.

ـ ليس هناك جنون كامل كما أنه لا توجد حقيقة كاملة.

ـ أليس الموت حقيقة كاملة؟

ـ الموت حقيقة ولكن ينقصها بالتأكيد صفة الكمال. لأننا لا نعلم ماذا يحدث بعده.

ـ كلامك منطقي. وكأنني أتحدث لحكيم من سكان التبت. وليس إلى طبيب يتفاخر بوضع القهوة في فناجين غالية الثمن ليلفت نظر زائرته الشابة التي تدخل بيته لأول مرة.

ـ ها أنت بنفسك تبرهنين على جهلي بذكاء النساء المدهش. لذلك، اسمحي لي بالتعرف أكثر على السيدة اللطيفة الجالسة أمامي.

ـ قبل أن أتحدث عن نفسي، دعني فقط أسجل إعجابي بعطرك الخفيف الذي وضعته بالأمس قبل أن تحمل لي القهوة.

ـ إذن، فلقد انكشفت كل أسراري الصغيرة. وكأنك تستطيعين اختراق عوالم أسراري وتعريتي.

ـ التعري ليس شيئا سيئا دائمًا. أنا نفسي تعريت أمامك بالأمس. ومع ذلك لا ألمح في عينيك أي نظرة احتقار.

ـ الاحتقار يجب أن يصاحب فقط ما نؤمن بأنها أشياء مشينة.

ـ وماذا عن نظرة العالم لما يعتقد أنه مشين؟

ـ ما يعتقده الناس شيء خاص بهم فقط. بالنسبة لي ما يعتقده العالم هو ما أعتقده أنا شخصيا.

ـ بدأت أشعر بأنك مصاب بالغرور.

ـ أو ربما الحكمة؟

ـ حسنا أيها الحكيم. غالبا لا أحكي تفاصيل حياتي لأحد. أعتقد أن بها كثيرا من الأشياء المشينة بشكل أو آخر. لكن إذا تبنيت نظرتك للحياة فسأرى حياتي مختلفة قليلًا، ليس بها ما يستدعي الشعور بالخزي.

ـ لو تشائين، فسأغمض عيني حتى تتمكني من أن تحكي لي بشكل أفضل. وأنت أيضًا يجب عليك أن تغمضي عينيك وتتخيلي أنني مجرد مرآة جامدة بلا روح. هذه اللعبة ستسمح لك بالحديث بلا حرج.

ـ مدهشة فكرتك هذه. لكنها لا تناسب فتاة قادرة على التعري أمام عشرات الرجال في ملهى ليلي. يستمتعون بنهش جسدها بأعينهم. لقد أسأت تقدير ما أملك من شجاعة يا دكتور.

ـ إنني فقط أحاول المساعدة. آسف.

ـ ليس هناك ما يجب الاعتذار عنه. حسنا، أنا الابنة الوحيدة لأم سمراء من أوغندا. وأب أبيض من كيبك. ورثت عن أمي كل ملامحها باستثناء لون عيني أبي وشعره المسترسل. أمي ابنة رئيس قبيلة بدائية تعيش في قلب الغابات الاستوائية المطيرة. تم اختطافها وبيعها إلى زوجين فرنسيين لم ينجبا. جريمة كهذه تحدث تقريبا كل يوم، لكن لا

أحد يتحدث عنها. فالمستفيد دائمًا هم أبناء الدول الغنية. استطاعوا إدخال أمي إلى فرنسا بورق تبني رسمي مقابل ورقة بمائة دولار لمسئول حكومي في بلدها الأم. لتهاجر مع أسرتها الجديدة وهي ابنة عشر سنوات لكندا. لتستقر العائلة كلها بمونتريال. ورغم أن أبويها الفرنسيين كانا يعاملانها بكل ود. فإنها لم تستطع الهرب من أصولها الإفريقية. كانت تعيش دائمًا على الحافة بين عالم مونتريال المتمدن، وعالم قبيلتها الذي كانت تصفه بأنه أكثر مدنية. رغم أنه لا يعرف شيئا عن كل وسائل الرفاهية التي نتمتع بها هنا.

تركتني أمي طفلة عندما أكملت عشر سنوات. تمامًا في نفس العمر الذي تم اختطافها فيه. ودعتني بقبلة على خدي، مدعية بأنني وصلت إلى العمر الذي أستطيع أن أكتشف فيه طريقي في الحياة. دون أن يستطيع العالم الانتقاص من كرامتي. وعادت لتعيش في الغابات. لأن روح والدها كانت على وشك الرحيل عن الحياة. ويجب عليها أن تحتل مكانه كرئيسة للقبيلة. أحيانًا تصل منها بطاقات بريدية مدهشة وصور لها بلباس أهل قبيلتي البدائي. تدعوني دائمًا للحاق بها. لأن مكاني ليس هنا، بل في أوغندا التي لم أزرها أبدًا. تعدني بأن تاج حكم شعب صغير مكون من ثلاثمائة وستين رجلا وامرأة في انتظاري. لكني لا أستطيع الرحيل وترك أبي وحده.

والدي شخص مهم جدًّا في حياتي. لا تستطيع أن تتخيل قدر المحبة والتسامح الذي رباني بهما هذا الرجل. أقول رجل رغم أن حقيقته الآن ربما تختلف قليلًا عن المعنى الحرفي للكلمة. فمنذ سنوات قام بتحويل جنسه ليصبح امرأة. أربكني بشدة قراره الغريب هذا حينها. وبخاصة أنني كنت مراهقة صغيرة لا أستطيع تفهم أشياء كهذه. لكنني

مع الوقت استطعت تفهم موقفه. كان يدعي بأن روحه لا تشبه أرواح الرجال بما فيها من قسوة وفهم سطحي للحياة. كان يشعر دائمًا بأن في داخله أنثى محبة لكل البشر. كأنه حواء المسئولة عن كل أبنائها. ربما كونك من أصول شرقية سيجعل من الصعب أن تتقبل قراره. تمامًا كما يفعل كثيرون من سكان مونتريال، رغم تشدقهم الدائم باحترام حرية الاختلاف. كان ذلك من سنوات ولم يعد يشغل بالنا كثيرًا الآن.

طردوه من عمله. أو بمعنى أكثر وضوحا أجبروه على الاستقالة، بعد أن تحاشاه زملاؤه الرجال في العمل. أصبح مجرد دخوله إلى الحمام مشكلة. لم يسمح له مديره باستخدام مرحاض الرجال لأنه لم يعد منهم. النساء كن أكثر تسامحا معه في هذا الشأن. لكنه لم يستطع تحمل نظرات زملائه الوقحة وهم يتندرون عليه. فقرر الرحيل عن الشركة. ليفتتح محلا للأزهار ويبدأ حياة جديدة. الآن هو امرأة رائعة اسمها كارما. ما زال يتمتع هو وأمي بوضعهما القانوني كزوجين. تعليق أمي على عملية تحويل جنسه لم يزد عن جملة واحدة: «كنت أعلم أن له روحا مختلفة، لذلك سأستمر في حبه».

نستمتع أنا وكارما معا دائمًا كصديقتين رائعتين. ربما يجب عليّ أن أقدمها لك.

إلى هنا، لم أستطع كتمان سؤالي الأهم والذي أتيت للقاء من أجله:

ـ وماذا عن چون سبيستيان أندريه والوشم الأبيض الغريب؟

ـ چون سبيستيان مجرد صديق حديث نسبيا. تعرفت عليه بملهى التعري الذي أعمل به من شهور. محله مشهور جدًّا بتقنياته الغريبة في صناعة الوشم. لذلك لم أستطع أن أرفض طلبه بأن يصنع لي وشما

مختلفا. خصوصا أنه عرض ذلك كهدية لن أدفع فيها شيئا. صحيح أن طلبه بتخديري أثناء صناعة وشمه كان غريبا قليلًا. إلا أنه ادعى أن هذا الوشم خاص جدًّا. وأنه لا يريد أن يتعرف على سره أحد، حتى أنا. فتفهمت طلبه لتصدمني هذه الأفعى البيضاء التي صنعها تلتف عبر جسدي. لكن الوشم ضاعف سعر ساعتي في الرقص. وأصبحت الفقرة المميزة لكثيرين من الرجال. يطلبني كثير من الزبائن لأن وشمي أكثر اثارة لخيالهم الأروتيكي. المربك هو أنه منذ رسم الوشم لي أشعر أحيانًا بأنني أتلقى منه أوامر لا أستطيع عدم تنفيذها. لكن ذلك يحدث نادرا. كانت آخر أوامره هي زيارتك في بيتك وإطلاعك على جسدي. لكنها كانت مناسبة لطيفة للتعرف على شخص مثلك.

* * *

كانت لأمي مقولة شهيرة تخبرني بها كلما أزعجتني الدنيا بهمومها. «أنت أبن أبيك يا أشرف». وطوال سنوات طفولتي لم أفهم ماذا عليّ أن أفعل لأنني ابن أبي. لكني الآن في غربتي البعيدة، أستطيع أن أتفهم عبقرية كلماتها القليلة هذه. أذهلني منطق عالم النفس السويسري الشهير كارل جوستاف يونج عن العقل الباطن الجمعي Unconscious Collective.

تتلخص نظرية يونج في أن أرواحنا كبشر تحمل خصائص وراثية جمعية عائدة إلى كل تجارب مجتمعاتنا التي ولدنا منها. تمامًا كما تحمل جيناتنا الجسدية كل خصائص جدودنا. الطول ولون البشرة أو حتى قابليتنا للإصابة بالأمراض. أحببت يونج ونظريته لأنه ربما شديد الشبه بي. (عاش الطبيب النفسي الأشهر صاحب نظرية علم النفس التحليلي سنوات صعبة أسماها المواجهة مع اللاوعي. كان يرى خلالها صورا ويسمع أصواتا. مر خلالها بفترات قلق مربك من احتمال إصابته بانفصام الشخصية. سنوات داوم فيها على أن يكتب ما يراه ويسمعه في كتاب له غلاف أحمر سماه فيما بعد بالكتاب الأحمر)*.

أتذكر ذلك الآن، مستحضرا وجه أبي وهو يودعني قبل سفري لأول مرة مهاجرا إلى كندا. استدعاني لحجرة مكتبه وبعد كثير من الأحاديث الفرعية. والتي لم تكن تعني لي وقتها سوى رغبة حنونة من أب أراد أن يتحدث إلى أبنه المسافر إلى المجهول. أخرج من درج مكتبه دفترا له غلاف يبدو عليه القدم. وقدمه لي بينما عيناه مليئتان بدموع حاول أن

يمنعها من التساقط. ليتنهد ويقول لي بأن في هذا الدفتر رسالة مطولة لي. كتبها عن أيام طفولته في واحته سيوة. قبل أن يهجرها ويسافر إلى القاهرة ولا يعود أبدًا. يخبرني بحسرة عن ندمه على كل الأوقات التي لم نقضها سويا. يقول لي مغالبا دموعه، إنني أستطيع أن أجالسه بقراءة رسالته هذه، إذا استبد بي الشوق له. دون أن أعلم بأنه سيصافح الموت بعد ساعات من سفري. وبأنني سأخشى لسنوات طويلة فتح الرسالة. خوفا على نفسي الهشة من حقيقة الغياب. أو لأن عقلي لم يؤمن بعد بفكرة موته.

أتذكر الآن أيضًا أنه ذات ليلة اشتد بي الشوق كثيرًا لرؤيته. فبحثت عن الرسالة. لكني كعادتي لم أجد الشجاعة في نفسي لأن أستمع إليه عبر الورق. فكتبت له قصة قصيرة سميتها «تشابه». وبعثتها باسمه إلى واحة سيوة حيث قبره. موقنا بأني أرسل رسالة إلى العدم. قصة عني وعنه كان هذا هو نصها:

«الشبه بيننا لا تخطئه العين أبدًا. ربما فقط فرق السن الذي يفصل بيننا كابن ووالده. هذا التقارب سبب لعلاقتنا دائمًا كثيرا من التوتر. كانت لنا نفس الملامح والصفات. وكانت أمي تُعزي دائمًا تنافرنا بأننا قطبان شديدا التشابه تحتم علينا قوانين الحياة التنافر. ورغم ذلك، كان كلّ منا يحمل للآخر حبًّا أكبر من أن تفسّره قواعد لعبة البنوة. شيء لا يستشعره إلا التوائم الملتصقة. وبما أنَّ الحياة قاسية كعادتها. فقد كتبت علينا فراق الغربة أولًا، وفراق الحياة الأبدية بوفاة توءمي الأب. لتبدأ رحلة عذابات البحث عن النسيان. نسيان لا يمكن تحققه طالما تطالع وجهك في المرآة. وفي غربتي البعيدة جدًّا عن بلادي. استسلمت للعبة التشابه. كانت صور والدي في مقتبل أربعينياته طبق الأصل مني. وكان

مدهشا أن يحتار أصدقائي من حرصي على أخذ صور لي بالأبيض والأسود. الأغرب أن تطابق نبرة صوتينا واستخدام نفس الجمل حير أمّي المسكينة. فكانت تستيقظ مفزوعة عندما أعود إلى البيت متأخرا فأحدثها، معتقدة أنها في حضرة روح أبي. فتبكيه آخذة وجهي بين يديها داعية لي بطولة العمر. وبمرور أيام البعاد مللت اللعبة، لم أعد أهتم كثيرًا بالشبه. حاولت أن أكون نفسي، حابسا حنيني لتوأمي الأب في قلبي. لكن الغريب فعلا أنَّ أبي لا يريد أن يملّ مثلي من اللعبة. فما زال يجالسني كل ليلة في أحلامي مرتديًا جسدي أو ربما جسده. فأستيقظ مرتبكا أقرأ الفاتحة لنا، متجنبًا أن أحدثه عندما أشاهدني في المرآة».

* * *

اتصلت بصديقي المصري الذي استطاع أن يتوصل إلى تاريخ حيواته السابقة. طالبا مقابلته بأحد مقاهي مونتريال. ربما أجد لديه إجابة عن ادعاءات چون سبيستيان أندريه. إذ بدأ الشك يسكن قلبي بصدد صحتها، خصوصا بعد لقائي بمود بيير التي دعتني لزيارتها في بيتها في عطلة نهاية الأسبوع.

الدكتور فوزي مختار، هو واحد من أقرب الناس إلى قلبي في مونتريال. عمل معيدا بكلية الهندسة جامعة القاهرة قبل أن يهاجر إلى كندا عام ١٩٧٤. ليحصل على درجة الدكتوراه في هندسة الجزيئات من واحدة من أعرق جامعاتها. يكمل حياة مهنية رائعة يفتخر بها كل عربي في المهجر. رجل شديد الذكاء والانضباط النفسي. قادر على حب الحياة وابتداع البهجة فيها رغم سنوات عمره الخمسة والستين. بالإضافة إلى تجاربه الحياتية الكثيرة، فهو ممارس قديم لرياضة روحية هندية قديمة. يعتبر أحد أساتذتها في مونتريال. لذلك شعرت بكثير من الاطمئنان عندما طلبت نصيحته.

الرجل استمع بإصغاء تام لحكايتي مع چون سبيستيان أندريه كعادته. ليبتسم عند انتهائي من سرد كل التفصيلات. فأضيف معلقا على ما سمع مني:

ـ بالطبع كل ما قلته لحضرتك لا يخرج عن نطاق تخيلات مجنونة

لمريض نفسي لا أعلم أي الشياطين تسكن روحه. تخيلات يرفضها جملة كل ما تعلمته من طب حديث.

قلت ذلك وأنا أتوقع موافقة الدكتور فوزي الأكيدة على تعليقي الأخير. لكن المفاجأة المخيفة هي أنه لم يجبني بما تمنيت. على العكس، تحدث شارحا لي ما سماه بأحد النماذج لفكرة تناسخ الأرواح، والتي هي تنويعة ما لعشرات النماذج التي تؤمن بنفس الموضوع.

ـ حسنا يا صديقي الطبيب الشاب. ربما لا يكون هذا النموذج صحيحا بشكل مطلق. فالبعض من جوانبه ما زال غير واضح المعالم ويتعذر إثباته علميا. ولكن ذلك لا يهدم صحته بالمرة. تعتمد نظرية هذا النموذج على أن هناك ٢٤ بليون روح خلقت مع بداية الحياة. ولو قدَّرنا أن عدد البشر على الأرض حوالي سبعة بلايين. فذلك يعني أن كل روح تزور الأرض بعد ثلاث دورات تقريبا من حياة البشر. ومع حساب أن الإنسان يعيش بمعدل ٦٠ سنة. فمعنى ذلك أن نفس الروح يمكن أن توجد مرة على الأرض كل ١٨٠ سنة. طبعا هناك أمور تحدد عودة روح معينة إلى الأرض. وهي ظاهرة معادلة تقريبا لقدرة حيوان منوي بعينه على تخصيب بويضة بعينها لتكوين الجنين. وكما تتنافس الحيوانات المنوية للبقاء وصنع الجنين، تتصارع الأرواح للعودة للأرض. يساعد في عملية عودة الأرواح هذه وجود أرواح ذات صلة بنفس الروح المعنية على الأرض. خصوصا روح الأم أو الأصدقاء.

ـ ذلك يعني أن نفس مجموعة الأرواح الموجودة على الأرض في فترة زمنية ما. دائمًا تربطها ببعضها ببعض صلة ما بشكل أو آخر. هذا يفسر أنه أحياننا نقابل أشخاصا لم نتعرف عليهم أبدًا. ومع ذلك نشعر بمعرفتنا المسبقة لهم.

ـ وهل تستطيع الأرواح تذكر حيواتها السابقة؟

ـ في الأغلب يحصل للأرواح عملية انغلاق على خبرات الحيوات السابقة. انغلاق يعني النسيان الكامل لخبرات، كالآلام المصاحبة للمرض أو التعذيب أو الموت. لأنه ببساطة كمية التجارب الحياتية المريرة التي راكمتها الأرواح في ذاكرتها قد تتسبب في جنونها الكامل. ربما قرأت هذا أثناء أيام دراستك الأولى في الطب النفسي ونسيته. أو ربما لا تهتم كليات الطب في الغرب بهذه النظريات. كبقايا من أيام الحرب الباردة. لكن بعض مدارس الطب النفسي في أوربا الشرقية والتي تعتقد في فرضية إعادة تدوير الأرواح. تؤمن بأن بعض المصابين بالجنون هم أشخاص تصاب عملية انغلاق الذاكرة لأرواحهم بنوع من أنواع التسريب المعرفي. مما يعني تذكرهم لخبرات من حيواتهم السابقة. تؤدي بهؤلاء المرضى للتعامل بشكل لا يتقبله المجتمع. لأن لديهم معرفة لم يختبرها المجتمع فيتم اتهامهم بالجنون.

ـ حسنا. هل ينطبق ذلك على كل الأرواح. بمعنى أن هناك أرواحا تستطيع تذكر ماضيها؟

ـ ليس تمامًا. فبحسب النموذج الذي نتحدث عنه. هناك ٢١٦ روحا قابلة لتذكر كل شيء، دون أن يؤثر ذلك على صحتها العقلية. وهي أرواح شديدة الخصوصية كأرواح الأنبياء والأشخاص المميزين جدًّا.

ـ أفهم من ذلك أن كل هذه الأرواح أرواح صالحة وفائقة النقاء.

ـ ليس تمامًا. لقد قلت لك إنها أرواح شديدة الخصوصية. ذلك يعني أنها ربما تكون صالحة جدًّا أو شريرة للغاية.

ـ تريد أن تخبرني أن روح چون سبيستيان أندريه هي إحدى هذه الأرواح الخاصة؟

ـ لا أستطيع أن أجزم بذلك.

ـ لكن ألا يقلب هذا نظرية الأديان السماوية والحساب بعد الموت رأسا على عقب؟

ـ يا دكتور تعلم أنني شخص متدين. قمت بالحج إلى بيت الله الحرام. صدقني لقد قرأت القرآن والإنجيل والتوراة ولم أجد ما يخالف بوضوح هذا الاعتقاد.

ـ لقد زدت على حيرتي حيرة يا دكتور فوزي.

ـ ما أحدثك عنه ليس جديدا في علوم الطب النفسي يا صديقي. تستطيع أن تجد كثيرا مما يتعلق بالموضوع في مواقع الأفلام المصورة ـ اليوتيوب تحت عنوان: Regression therapy.

* * *

عدت من جلستي مع الدكتور فوزي مختار لا أستطيع حمل رأسي من الصداع. كان يوما مرهقا. قابلت خلاله عشرات المرضى. بالإضافة إلى جلسة چون سبيستيان أندريه. التي تبعتها مقابلة مود بيير ثم مقابلة أخرى مع الدكتور فوزي. مضافا إلى كل ذلك عدم قدرتي على النوم في الليلة السابقة. مما توجب شرب ما يقارب عشرة فناجين من القهوة الأكسبرسو للحفاظ على عيني مفتوحتين. رميت جسدي على السرير من شدة الإرهاق بمجرد دخول شقتي. كان قلبي يدق بعنف من أثر الكافيين المركز الذي جمعته في عروقي طوال اليوم. معدتي خاوية تمامًا من الصباح. لكني لا أجد أي رغبة في تناول الطعام. حاولت أن أغلق عيني وأريح جسدي محاولا النوم. ربما لم يكن عليّ أن أفعل. فبمجرد استسلامي للنوم دخلت في حلم طويل. كنت أراه بكامل وعيي كأنني أشاهد فيلما سينمائيا لا أستطيع الاستيقاظ منه. مدركا أنني أحلم وأني على سريري في مونتريال. وأنه عليّ أن استيقظ في السادسة صباحا للذهاب إلى عملي. لكني رغم كل شيء لا أستطيع إيقافه.

«كنا في ربيع عام ١٧٣٧، وكنت قد انتهيت من صناعة وشم صليب كبير على كتف فتاة مراهقة. عمدها أهلها للمرة الثانية بكتدرائية نتردام دي باريس. بعد أن شفيت بمعجزة من مرض عضال. أتوا بها بعد التعميد مباشرة ليدقوا وشم الصليب على كتفها. كنوع من الوفاء بالنذر. أشاهدني في ورشتي وبجواري والدا الطفلة بملابسهما الرثة.

يعتذران لأنهما لا يمتلكان ثمن وشمي الذي صنعته للصغيرة. فأتركهما يرحلان مكتفيا بقبلة لطيفة طبعتها الفتاة على خدي. كنت شابا في حوالي الثلاثين من عمري. قصيرا قليلًا بملامح فرنسية. جسدي قوي وعضلات ساعدي المفتولة مكشوفة ومغطاة كجسدي كله بوشم أزرق لصلبان وحوريات وأطفال مجنحين. أذهب كي أغلق باب ورشتي خلفهم بعد انتهاء عملي اليوم. فأقابل سيدة سمراء من العبيد على الباب. يخفق قلبي بمجرد رؤيتها وأسمح لها بالدخول فور رؤيتها. تزيح عن جسدها عباءتها الحريرية بلا كلام. فينكشف لي جسد أنثوي لا يمكن وصف روعة كماله. فأجثو عند قدميها وأبدا بلعق مفاتنها كلها. نشوان بقطرات العسل التي غطت بها ما فوق ركبتيها إلى رقبتها. نذوب في عناق حميم لا نعلم لأي عالم يحملنا. أشاهد دموعها تتساقط كلآلئ تبلل وجهي المدفون بين ثدييها. فأبتسم وأنطق هامسا: «لا تخافي أبدًا فأنا أعيش في هذا العالم من أجل حمايتك فقط». ننتهي فتعاود ارتداء عباءتها السوداء وتختفي في الظلام كشبح. يلتهمها ظلام الليل الذي تنتمي لعالمه.

أخرج بعدها لأمشي في ليل باريس الذي تنير شوارعه المصابيح الزيتية. الطرق شبه خالية. لا يتحرك فيها سوى عشرات الرجال المتجهين إلى الحانات. أسير طويلا حتى أكاد الخروج إلى حدود المدينة. المارة القليلون الذين يقابلونني، يتجنبونني بسرعة محاولين الاختفاء من أمامي. كأنني شبح مرعب. يزعجني أن أكون مرهوبا ومخيفا لهذه الدرجة. فأعترض طريق أحدهم ملقيا تحية المساء. فيجثو الرجل على ركبتيه طالبا مني المسامحة على جرم لم يرتكبه في حقي. أحاول رفعه لأرى وجهه. لكن الرجل منجذب إلى الأرض

بقوة أكبر منه ومن قوتي على رفعه. قدماه فاقدتان القدرة كليا على حمل جسده. فأتركه يهوي إلى الأرض. وأتابع السير غضبان من عدم فهمي لما يحدث. حتى إذا شارفت المدينة على نهايتها. أنحرف إلى بيت قديم لكنه كبير كقلعة مهجورة. أدفع الباب فأجد چون سبيستيان وأثني عشر رجلا. جميعهم يغطي الوشم الأزرق الغريب أجسادهم مثلي. تتعالى صيحات الترحيب عند دخولي. ألمح بطرف عيني من خلفهم أطفالا سود البشرة. مقيدة أرجلهم بسلاسل تتجمع كلها في حلقة حديدية عظيمة متصلة بالحائط. ساعتها يضع چون سبيستيان أندريه يده على كتفي. يهزني بقوة كنوع من الترحاب الخشن. فأستيقظ من حلمي مفزوعا».

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحا عندما أفقت. سماء مونتريال مضيئة كعادتها، بفعل الثلوج البيضاء التي تعكس إضاءة مصابيح إنارة الشوارع إلى السماء. فتمنحها هذه الخاصية العجيبة من الليل الأبيض. جسدي يغطيه عرق بارد. وجوع شديد يقبض على معدتي. تناولت ما وجدته باردا وحاضرا للأكل. ترددت قليلًا قبل أن أصب لنفسي بعضا من القهوة. لكني تغاضيت عن تسارع نبضات قلبي. مرسلا دفعات القهوة المرة إلى جوفي، كماء حياة قادر على إعادة اليقظة إلى وعيي. تذكرت كل تفاصيل حلمي الغريب. مفكرا في النظرية التي تتبنى فكرة إعادة تدوير الأرواح والتسريب الذي قد يحدث لانغلاق الأرواح عن ماضيها. فيسمح لها بتذكر شيء مما انقضى في حيواتها السابقة. كأن الحلم تأكيد لرواية چون سبيستيان عن حياتي السابقة. ومع ذلك، نفضت الفكرة برمتها من رأسي، مؤمنا بأن الأحلام عادة ما تكون انعكاسا لأمور حياتية نفكر فيها بشدة.

جلست أشاهد التلفزيون محاولا الاسترخاء منتظرا موعد ذهابي إلى المستشفى. مررت بالقنوات لكني لم أجد ما يسترعي الانتباه. فقررت مشاهدة الأخبار على غير عادتي. الأخبار الكندية في الأغلب مكررة وتنم عن عالم لا يعرف المعنى الحقيقي للمعاناة. على عكس المتوقع حملت النشرة الإخبارية هذه المرة أحداث العثور على بقايا طفلة اختفت من سنوات بمدينة شيربروك التي لا تبعد كثيرًا عن مونتريال. كانت سيدة عجوز هي آخر من رآها. مؤكدة أنها ذهبت بصحبة رجل غريب الأطوار وكلبه إلى داخل الغابة. لتستمر الجهود المحمومة للبحث عنها بلا نتيجة. يخبر التقرير الجنائي الأولي بأن البقايا البشرية التي تم العثور عليها تعود إلى المسكينة المختفية. دون كثير من التفاصيل عن كيفية الوفاة والساعات الأخيرة التعسة التي عاشتها قبل وفاتها مباشرة.

لا أعلم لماذا أثارني هذا الخبر. لكني قبل أن أكمل متابعة التقرير الإخباري. دق جرس الهاتف في هذه الساعة المبكرة التي لا يهاتفني فيها أحد أبدًا. فرفعت سماعة الهاتف منزعجا لأجد صوت مود بيير على الطرف الآخر تتحدث لاهثة.

ـ دكتور أشرف سامحني على الإزعاج. أنا مود.

ـ ماذا حدث يا مود؟

ـ چون سبيستيان أندريه خارج المستشفى.

ـ هذا شيء لا يمكن تصديقه يا مود. قسم الأمراض النفسية مؤمن كسجن حربي. لا يمكن الهروب منه أبدًا.

ـ هذا ما أؤكده لك يا دكتور. چون سبيستيان كان مع أصدقائه في

ملهى التعري الذي أعمل به. استدعاني لأرقص لهم على طاولتهم. وبمجرد قربي منهم شعرت بوشم الأفعى الأبيض يلتهب على جسدي. كأنه وشم من نار. فهربت إلى حجرتي أصرخ من الألم. (لتكمل بعد أن توقفت قليلًا لتلتقط أنفاسها)، صاحب الملهى اتصل بسيارة الإسعاف التي حملتني إلى مستشفى رويال فيكتوريا التي تعمل بها. حقنوني بالمورفين لتخفيف الألم. قررت الاتصال بك قبل أن يذهب بي المخدر إلى النوم. اتصلت أيضًا بكرما ولكنها لم ترد. أنا خائفة جدًّا يا دكتور.

انقطع الخط بعد أن بدأ صوت مود يضعف تدريجيا. فعلمت أنها ذهبت في النوم نتيجة المورفين. وعلى الفور أخذت مفاتيح شقتي دون اهتمام بتغيير ملابسي أو حلاقة ذقني. وسريعا أزحت الثلوج المتراكمة على سيارتي متجها إلى المستشفى.

* * *

ما هي علاقتي بالمريضة مود بيير؟ كان ذلك هو أول ما سألني عنه عامل استقبال الحالات الطارئة بالمستشفى. فأخرجت له كارت المستشفى الذي يثبت بأنني أعمل طبيبا بالمكان. سهل ذلك حصولي منه على معلومات ومعرفة اسم الطبيب المعالج. كانت نائبة مقيمة صغيرة السن (بالتأكيد قليلة الخبرة). عندما قابلتها سبب لها اهتمامي بحالة مود بيير الارتباك. أخبرتني بأنها مصابة بحرق شديد مكان وشمها الذي على شكل أفعى تلتف حول جيدها بطول الجسد. وأنها لم تستطع اتخاذ قرار بشأنها فحولتها مباشرة إلى طبيب الجراحة المختص. اتجهت إلى مكتبي محاولا عدم إثارة الشكوك. منتظرا دخول ساعات النهار الأولى وانتظام العمل بالمستشفى. ثم الاتصال بطبيب الجراحة أو حتى زيارته. في طريقي إلى المكتب مررت على الجناح الداخلي لقسم الأمراض النفسية. سألت العامل المناوب على مراقبة القسم، هل فعلا تسير الأمور على ما يرام؟ فكان تأكيد الرجل الذي أدهشه وجودي في هذه الساعة المبكرة، فاركا عينيه ومكملا ما تبقى من قهوة في فنجانه دفعة واحدة:

ـ كل شيء على ما يرام.

لم تطمئني إجابة الرجل. فطلبت منه أن يصحبني بنفسه إلى حجرة چون سبيستيان أندريه. كان چون سبيستيان نائما كطفل في سريره. اعتذرت لعامل القسم على إزعاجي له. وجلست في مكتبي أرد على

الإيميلات التي يجب الرد عليها، منتظرا نور الصباح الذي بدأ يسطع من خلف زجاج النافذة. قرب الساعة السابعة والنصف تلقيت مكالمة هاتفية من قسم الجراحة. كانت زميلتنا هناء محمود طبيبة جراحات التجميل. هناء زميلة مصرية سكندرية تربطني بها صداقة جيدة.

ـ صباح الفل يا أشرف.

ـ صباح الخير يا هناء.

ـ خير يا أشرف. نائبة الاستقبال أخبرتني أنك سألت عن حالة مود بيير.

ـ صديقة قديمة يا دكتورة. طمنيني إيه أخبارها.

ـ طيب هات قهوتك وتعالى.

ـ قولي لي بس الأخبار.

ـ ملهوف عليها قوي. متقلقش، البنت زي العفريت. شوية حروق بسيطة. بس في حاجة تانية غريبة في حالتها. هتيجي ولا أمر عليك أنا؟

ـ لأ الطيب أحسن. دقائق وهتلاقيني عندك.

هناء محمود شخصية نادرة الوجود في مودتها ونقائها. لها قصة نجاح مذهلة جعلتها أحد أشهر أطباء التجميل في مونتريال. تتمتع بدأب وقدرة غير اعتيادية على العمل. موهوبة جدًّا في الجراحات الدقيقة، على عكس ما يشاع عن الإناث في بلادي. حبها للجراحة كان دافعها الأساسي للهجرة. فاستطاعت أن تنهي اختبارات معادلة شهادتها في وقت قياسي وبدرجات مرتفعة جدًّا، أهلتها لهذا التخصص الدقيق. الذي نادرا ما يستطيع المهاجرون العمل به. ربما لتثأر لنفسها من

قصة فشل مريرة في مصر. بعد أن تكرر رسوبها لمرات في الحصول على ماجستير الجراحة، لا لسبب سوى أنها أنثى. لكن للأسف نشوة نجاحها أنستها كثيرا من تفاصيل الحياة. مشكلتها الوحيدة معي أنها بعد عشر سنوات من الحياة في كندا، تذكرت فجأة أنه يجب أن تبحث عن زوج. وأن كل نجاحها المهني لا يعوضها عن دفء الأسرة وغريزة الأمومة. ورغم أنها تكبرني في العمر قليلًا. فإنها لم تيأس أبدًا مني. كنت بالنسبة لها مشروع زوج أكثر من مناسب. أعزب ودخلي المادي جيد. الأهم أني مصري ومسلم. وبنفس دأبها والتزامها في العمل، حافظت على جسدها بشكل مبالغ فيه. فاحتفظت بجمالها ورشاقتها التي تتفوق فيهما على كثير من الكنديات. لكنها رغم كل هذه المزايا الرائعة لا تستطيع أن تفهم أنني لا أستطيع الحياة كرجل متزوج. لأن حياتي الخاصة شديدة التعقيد. وأنني أريد أن أصل إلى سن التقاعد وحيدا كنسر لا يكف عن التحليق بحرية.

* * *

في مكتب الدكتورة هناء. كان الهواء مشبعا برائحة برفان نسائي مشهور بغلاء سعره. لكني لا أتذكر تحديدا اسمه. وبحركة لا إرادية رفعت هناء شعرها المنسدل على عينيها. جسدها النحيل مشدود كلاعبة جمباز محترفة. ما زالت تحافظ على عادة التسليم بأطراف أصابعها المصرية السخيفة. وعلى عكس ما توقعت دخلت هناء مباشرة في الموضوع.

ـ أنت تعرف البنت دي منين يا أشرف؟

لم يكن السؤال مباغتا بالنسبة لي. فأجبت بشكل ميكانيكي بالإجابة

التي أعددتها سابقا. ابنة أحد جيراني في البيت. تركت أهلها من أشهر لتعيش وحيدة. لكني أعرف والديها بشكل جيد.

ـ حد حكالك على الوشم اللي في جسمها.

ـ تقريبا سمعت أنها عاملة وشم غريب شويه.

ـ في حاجة غلط في وشم البنت دي. لأن ببساطة ده مش وشم يا دكتور. الوشم بيعتمد على حقن أحبار ملونة تحت الجلد. اللي عند البنت دي إزالة كاملة لصبغة الميلانين الملونة للجلد. علميا من المستحيل فعل ده إلا إذا كانت هناك جراحة تجميل جديدة أنا معرفهاش، ودي حاجة مستحيلة نظريا. الأهم أن لو في حاجة كده، فدي مصيبة ومستحيل تتم في كندا. لأن ببساطة البنت دي ممكن يجيلها سرطان في الجلد خلال شهور. الجراحة دي لازم تكون محرمة دوليا.

ـ طيب والحروق اللي في جسمها من إيه؟

ـ البنت دي بتشتغل راقصة إستربتيز. صاحب الصالة غير الإضاءة واستخدم نوع لمبات ينبعث عنها أشعة فوق بنفسجية. يمكن عن طريق الغلط. ليعطي الناس الزبالة اللي بتتفرج على النوع ده من الرقص متعة وإثارة لخيالهم المريض. طبعا يا دكتور الأشعة دي غير ضارة بشكل كبير في حالة الجلد الطبيعي لوقت قصير. المسكينة الجزء الأبيض اللي في جسمها محتملش الأشعة واتحرق تمامًا.

وما أن انتهت الدكتورة هناء محمود من الكلام. حتى غادرت مقعدها خلف المكتب. وانتقلت لتجلس في المقعد المواجه لي أمام مكتبها. تنظر مباشرة في عيني قبل أن تكمل.

ـ مش عيب يا دكتور أشرف تبقى رجل محترم وتروح أماكن زي دي!

شلني اتهام هناء المباشر في أمر شديد الخصوصية. ومع ذلك لم أتمالك نفسي من الضحك حتى كدت أقع أرضا. وقمت من مجلسها متجها إلى مكتبي دون الرد عليها.

في الطريق إلى المكتب. فكرت كثيرًا في وشم مود بيير الخالي من الملادينين. كيف استطاع چون سبيستيان اللعين الإتيان بفعل كهذا؟ بالطبع أعرف أن كل شيء متطور للغاية في هذه البلاد. أعلم أيضًا أن الإنترنت سمح للجميع بتحصيل علوم غريبة ومتطورة. بداية من صناعة القنابل إلى صناعة الصواريخ الفضائية. لذلك تملكني هاجس واحد سيطر على تفكيري. يجب سؤال چون سبيستيان مباشرة عما فعله بالبنت المسكينة.

لكن چون سبيستيان لم يترك لي حتى القدرة على مباغتته. فقبل أن أدير أكرة باب مكتبي لأدخل. وأنتهى من حالات العيادة اليومية مقررا أن أفرد ساعتين كاملتين للحديث مع سبيستيان آخر اليوم. قابلتني الممرضة المسئولة عن مرضاي لتخبرني بأن چون سبيستيان أندريه يريد مقابلتي وحالا. فرددت بأنني سأكون في انتظاره.

على سرير المرضى الذي اتجه إليه سبيستيان مبتسما ومسترخيا دار بيننا هذا الحوار:

ـ كيف أخبارك يا چون سبيستيان؟

ـ بخير يا صديقي. أخبروني أن روحك تسكن رجلا اسمه أشرف

وأنه من مصر. ذلك يؤكد تمامًا خبرتي عن روحك الخالدة. روحك لا تسكن أبدًا إلا أجساد من ينتمون إلى الحضارات القديمة.

ـ دعني أكون مباشرا في حديثي معك. كيف استطعت أن تصنع وشم مود بيير. أو بمعنى أدق كيف استطعت التخلص من الخلايا التي تحمل لون جلدها الأسمر؟

ـ يعجبني أنك بدأت تكتشف بنفسك قدرات صديقك القديم.

ـ چون سبيستيان. أتمنى أن ترد على سؤالي فقط. إذا كنت من فعل وشم مود بيير كما أخبرتني، وكما أكدت هي بنفسها ذلك. فكيف فعلت ذلك؟

ـ حسنا. ولكن قبل ذلك، ألا ترغب في أن تعرف بقية حلمك؟

ـ عن أي حلم تتحدث؟

ـ حلمك الذي شاهدته هذه الليلة. عندما صنعت وشم الصليب على كتف الفتاة المعمدة بكاتدرائية نوتردام دي باريس. وخرجت تمشي في شوارع باريس لتصل إلى بيتنا. فأقابلك أنا والأصدقاء بالترحاب. لقد تعمدت أن أهزك بشدة في حلمك كي تستيقظ. لأكمل لك أنا بنفسي ما حدث بيننا في تلك الليلة التي لا تنسى.

* * *

أكمل چون سبيستيان أندريه الحديث بهدوئه المعتاد:

عندما أتيت لاجتماعنا كانت رائحتك مشبعة بعطر هذه العبدة السمراء التي ضاجعتها. كنت أؤمن بأنه يجب عليّ أن أدع رجالي يستمتعون ببعض اللهو، خصوصا مع النساء. كان ذوقك الشاذ يقلقني

قليلًا. ولكن رغم كل شيء لم يكن التدخل في أمورك الشخصية من حقي. كنت أعلم مدى ولائك لنا. موقنا بأنك عضو صالح لتحقيق حلم مملكة الرجال على الأرض بعد خلود أرواحنا للأبد. البعض وصف مجموعتنا بالجنون والشذوذ. كنا نحلم فقط بعودة السيطرة التامة لجنسنا. نحن الرجال ذوى البشرة البيضاء وحدنا، دون النساء أو العبيد سمر البشرة. لأنني كنت أعلم بأن الأمور ستسوء في هذا العالم، وأنه سيأتي اليوم على هذا الكوكب التعس لتطالب النساء بالمساواة، تمامًا كالزنوج وكل من لا يحمل نقاء دمنا. رغم أن الفكرة عصية على التصديق لبعض الرجال. ففي عام ١٧٣٧ كان الرجل هو كل شيء. وكان العالم ما زال يحتفظ بكرامته. يؤمن بأن كل من هم ليسوا أوربيين ليسوا سوى حيوانات شديدة الشبه بنا نحن الآدميين. لكن ذلك لم يكن موقفك أبدًا. كنت مثلي شديد الانفتاح على المستقبل، ترى ما كنت أراه بوضوح. كنت تتمتع مثلي بصنع الوشم على أجساد النساء المقيدات مسببا لهن أكبر قدر من الألم. لتجلس تراقب الدماء وهي تنزف منهن حتى الموت. كنا في ذلك الزمن نستطيع أن نفعل ما نشاء بلا مراقبة حقيقية. وقتها كانت باريس تخضع لحكم عصابتي أكثر مما تخضع لتاج الملك النائم في قصره.

ولأن المرأة أصل كل الشرور وسبب طرد الرجل العظيم من الجنة. كان دورنا في الثأر واضحا جدًّا في عقلك. لذلك لم أتخيل أبدًا أنك ستسقط في حب هذه العبدة. ولكي أتخلص من شكوكي، طلبت منك أن تبهر الرجال بصنع الوشم الأبيض. أتعجب الآن عندما لا تستطيع روحك التذكر رغم كل ما حكيته لك. ليلتها قدمت لنا أعظم ما رأيت في حيواتي كلها. انقضضت على الكائن الأنثى التي اختطفتها خصيصا

من أجلك. امرأة سوداء من العبيد قيدناها في غرفة الوشم، لتبدأ في إزالة السواد المشين من على جسدها، كمن يقشر لحاء شجرة قذر، بإزميل وكثير من الصبر والمتعة. المرأة تصرخ من شدة الألم. بينما أنا والرجال نصرخ من الإثارة والنشوة. أكثر من ثلاثين ساعة لم تتوقف فيها للطعام أو شرب الماء. حتى وأنت تعلم أن المرأة ماتت؛ لأن الوشم الأبيض يقتل إذا انسحب على أكثر من نصف الجسد. لم تتوقف يا رجل. كأن في قلبك شيئا ما أكبر من صيحات تشجيعنا التي خفتت مع الوقت. كانت روحك شديدة التوهج، تنبعث منها رائحة مخيفة. حتى تخيلت للحظة أن روحك هي روح أوتزي العظيم نفسه. ولأول مرة أعترف بعد كل هذه السنين التي عاشتها روحي الخالدة، بأنني لم أختبر الشيء الذي يسميه البشر الخوف إلا أمامك. وفي تلك اللحظة، كانت لديك القدرة على أن تخطف أرواحنا جميعا، أنا وكل الرجال وتفنيها تمامًا. نظراتك لنا تخبر بمقدار كرهك لما أجبرناك على فعله. لكنك فعلتها أمامنا وأريتنا سر الوشم الأبيض الذي تتساءل روحك الآن كيف ابتدعناه. وأمام عظمتك يا رجل، سجدنا جميعا احتراما وتبجيلا لموهبتك.

يومها عرضت عليك أن تكون أنت قائدنا لكنك رفضت. فوعدتك بأننا في زمن ما سنحقق خلودنا الجسدي. وستساعدني في نشر ديانة الوشم الأبيض. الذي سيكون علامة على أجساد كل من لا ينتمون لجنسنا فائق الجودة.

وها أنا ذا أجدك بعد كل هذه السنين. مستعدا لتنفيذ وعدي الذي قطعته على نفسي.

* * *

اختفت مود بيير من المستشفى. كان ذلك خبرا سخيفا. يضاف لقائمة الأخبار السخيفة التي بدأت تتوالى عليّ أخيرًا. هربت مود من المستشفى رغم الحروق التي تعاني منها، بمجرد أن استيقظت من تأثير المخدر. أخبرتني بذلك الدكتورة هناء محمود عندما ذهبت لزيارة مود. كانت لهجتها فيها كثير من الشماتة والتشفي وهي تلاحظ مدى توتري من الخبر. لكنها عند شعورها بانزعاجي الحقيقي اعتذرت بكرمها المعهود معي ودعتني إلى فنجان من القهوة في مكتبها. لكني تذكرت أنني أحتفظ بعنوان مود الذي أعطته لي كي أزورها في عطلة نهاية الأسبوع. فاعتذرت لهناء واتجهت إلى بيت مود. منزل جميل يقع بحي ريزمو الذي تقطنه غالبية من الكنديين فرنسيي الأصل. لكني لم أجد أحدا بالمنزل. فقررت أن أغامر وأذهب للسؤال عنها في محل الأزهار الذي يمتلكه والدها. المحل يقع في «القرية» بوسط مدينة مونتريال. في الأغلب أتحفظ على المرور في هذا الحي، لأن القرية هي الحي الرسمي للمثليين جنسيا. ورغم إيماني التام بحرية الأشخاص في اختيار هويتهم أيًّا كانت، وبخاصة هويتهم الجنسية. فإن ثقافتي الشرقية ما زالت تدفعني لذلك الموقف المتحفظ من المثليين. مع أنني أجد معظم من تصادف تعاملي معهم في كندا، أشخاصا متفانين في العمل وغير مثيرين للمشكلات. قررت أن أستخدم المترو كوسيلة مناسبة للوصول لوسط المدينة. بعيدا عن الزحام والمحاولات الصعبة لإيجاد

مكان لسيارتي. نزلت عند محطة بودريه. لأجد نفسي في قلب «القرية» التي تُعدّ ثاني أكبر تجمع لمثليي الجنس في أمريكا الشمالية. باحثا عن محل الأزهار الذي يمتلكه والد مود بيير.

خلال عبوري في القرية تمنيت ألا أقابل أيًّا من أبناء الجالية العربية. فأنا لا أرغب في أن تصاحبني سبة الشذوذ. التي من السهل إلصاقها لكل من نختلف عنهم. خصوصا من أبناء جاليتنا التي للأسف يصيب كثيرين منهم الهوس بالجنس. بالطبع كان أغلب المارة من الذكور. الحي نظيف ومنسق كمعظم منطقة وسط المدينة. غالبية أبنيته من المطاعم والبارات، تُعلق رايات قوس قزح. الرمز الرسمي للمثليين في العالم. هناك أيضًا المحال المتخصصة في بيع المستلزمات الجنسية وأفلام البورنو. توجد أيضًا أكثر من صالة لعرض الإستربتيز الرجالي. تمنيت أن أجد سريعا والد مود بيير فأطمئن عليها. وأختفي سريعا من هذا المكان الذي لا أشعر فيه بالراحة.

في طريق بحثي عن محل يبيع الأزهار. مارست لعبة قديمة في مخيلتي. لعبة تبقت معي من أيام طفولتي الغريبة. تخيل كيفية ما سيكون عليه شخص ما سأقابله لأول مرة. في العادة الرجال المتحولون لإناث. تكوينهم الجسدي كذكور يعطيهم مظهرا خاصا، رغم اعتنائهم بإخفائه. ولأن مود بيير طويلة نسبيّا كأنثى، فوالدها المتحول يجب أن يكون طويلا أيضًا. بالتأكيد سيكون بتسريحة شعر مصففة جيدا. واضعا كثيرا من مساحيق التجميل. يرتدي حذاء بكعب عالٍ. لكنه حذاء نسائي كبير في حجم قدم رجل.

بعد أقل من خمسة دقائق من المشي وجدت المكان الذي أبحث

عنه «زهور الحب الإفريقي». اسم مناسب تمامًا للقرية التي يتكرر اسم الحب فيها في معظم أسماء المطاعم والبارات. خلف النافذة الزجاجية للمحل. هناك عشرات الأزهار التي تحمل كل ألوان البهجة مرتبة بعناية وجمال. من خلف الزجاج أيضًا لمحت سيدة خمسينية صغيرة الجسد. تعطي ظهرها للشارع منهمكة في الحديث للأزهار. تحمل مقصا صغيرا تزيل به الأغصان الذابلة. تاركة علامة الصحة على الباقات اليانعة فقط.

فكرت في أن هذه السيدة لا يمكن أن تكون والد مود بيير الذي سمى نفسه كارما. فهذه أنثى حقيقية. تحمل كل بهاء الأنوثة وجمالها رغم سنها المتقدم نسبيا. لكن يبدو أنني فقدت قدرتي على تصور الأشخاص وتقدير هيئتهم الصحيحة بمجرد التخيل. فبعد إلقاء تحية المساء على السيدة. سألت عن كارما، التي كانت هي نفسها السيدة التي تُحدث الأزهار. أدهشني فعلا أن هذه الأنثى الكاملة كانت يوما من الأيام رجلا مثلي. بسيطة جدًّا في لباسها وحركتها. بلا مساحيق تجميل مبالغ فيها. وجهها شديد البراءة بنفس عيون مود الزرقاء الساحرة. تبتسم بتلقائية عند مطالعة أي وجه غريب. لها نفس عادة مود في النظر مباشرة إلى عيني من يحدثها. لم تتعجب السيدة من سؤالي عنها بالاسم. فتوقعت أنها معتادة على إرسال زبائنها لأصدقائهم بعد توصيتهم بمحل أزهارها. لكنها انزعجت فعلا بمجرد ذكري لاسم مود. فسحبت كرسيا لي من خلف مكتبها. وجلست أمامي في المقعد الموضوع في ركن المحل تتحدث بصوت هامس. لدرجة أنني طلبت منها أن ترفع صوتها لأسمعها. وبمجرد علمها بأنني طبيب وصديق لمود، قامت وأغلقت باب محل الأزهار. دون أن تنسى أن تضع لافتة مغلق على

الباب. وبدون أن أعي، نظرت إلى قدميها اللتين تتحرك بهما برشاقة فوجدتهما صغيرتين. أثبت ذلك أنني فقدت تمامًا قدرتي على تخيل الأشخاص. وبصوتها الضعيف علقت:

ـ الآن ستقل ضوضاء الشارع. وستستطيع سماعي بشكل أوضح. هل من خدمة أستطيع أن أسديها لك؟

ـ لا أعرف كيف أبدأ لحضرتك الحكاية. لكني قلق قليلًا على مود.

ـ أعتذر لو كان سؤالي شخصيا. لكن هل أنت صديق مود، بمعنى أنك معها في علاقة؟

ـ لا يا سيدتي. الأمر يتعلق بأحد مرضاي. أنا طبيب نفسي أعمل بمستشفى رويال فيكتوريا. هناك شيء ما لا أستطيع فهمه بين مود وهذا المريض، الذي أعتقد أنه يستطيع ممارسة نوع ما من السيطرة الفكرية على مود.

ـ هل تقصد چون سبيستيان أندريه. الرجل الذي صنع وشم مود، ويؤمن بديانة الوشم الأبيض؟

* * *

وجدت هذا الإيميل الغريب في صندوق إيميلاتي تحت عنوان «من ميريام ملكة شعب المونجا بأوغندا إلى الدكتور أشرف المدني».

اعتدت أخيرًا على هذه النوعية من الإيميلات التي تأتي من دول أفريقية تعاني ظروفا اقتصادية صعبة. حدثت نفسي بأنها على الأغلب رسالة كاذبة. سيكون مكتوبا فيها أن هذه الميريام ابنة أحد الملوك الأفارقة التي قام العسكر بالانقلاب على والدها. لتخبرني بأنها تمتلك

كمية كبيرة من الماس أو الذهب. وأنها تحتاج فقط ثمن التذكرة لكندا. واعدة بأن تضع نصف ما تملك في حسابي البنكي. طبعا هذه طريقة محترفة لسرقة رقم الحساب ومن ثم السطو على ما فيه من أموال. أو في أضعف الاحتمالات إرسال ما يعادل ألفي دولار، قيمة التذكرة إلى كندا من معظم الدول الإفريقية. في العادة أرسل هذه الإيميلات مباشرة إلى مزبلة الإيميل من دون فتحها. لكني هذه المرة قررت أن أفتح هذا الإيميل من باب الفضول. ربما أكتشف أن هؤلاء النصابين قد طوروا قليلًا من خدعتهم في اجتذاب البلهاء من الحالمين بفرصة الثراء السريع. لكن المفاجأة كانت مختلفة تمامًا هذه المرة.

«العزيز الدكتور أشرف المدني،

أعتذر لأني أكتب اليك من دون سابق معرفة. أنا ميريام والدة مود بيير. أعرف أن ابنتي في مشكلة كبيرة. أعلم أيضًا أنك قد قابلت كارما ـ الذي هو بالمناسبة شخص تستطيع الوثوق فيه بشدة، دعك من اختياراته في الحياة، فهذا شيء شخصي لا مجال للحديث عنه الآن ـ نحتاج إلى مساعدتك لإنقاذ مود والمئات أو ربما الملايين من البشر. أنت لا تعرف كم هو خطير هذا الچون سبيستيان. ربما روحك تعلم ذلك لكنها لا تستطيع التذكر إلى الآن. لذلك لن أحاول إجبارك على العودة لمعرفة الماضي كما يفعل سبيستيان معك. سأترك الوقت يخبرك بكل شيء. لكني أطلب منك المساعدة. يجب أن تجد مود من فضلك. أحضرها إلى أوغندا بأقصى سرعة. أعلم أن ذلك لن يكون سهلا بالمرة. لكني متأكدة أن هذا شيء تستطيع فعله. ثق بكارما ودعه يساعدك. واعلم بأنك

ستنقذ كثيرين بفعلتك هذه، لكن الأهم هو أنك ستنقذ نفسك قبل الجميع.

المخلصة

ميريام ـ ملكة شعب المونجا»

قرأت الرسالة عشرات المرات قبل أن أتساءل: هل أنا أمام رسالة مفخخة من نوع جديد؟ وإذا كانت الإجابة بلا. فكيف تمكنت أم مود بيير من الوصول إلى إيميلي الشخصي. إذا كانت هي فعلا أم مود بيير؟ أليست تعيش كما أعتقد مع شعبها البدائي في غابات إفريقيا التي تفتقد بالتأكيد للإنترنت؟ ولماذا عليَّ أنا تحديدا البحث عن مود بيير وترك عملي والسفر إلى أوغندا التي لم أفكر أبدًا في زيارتها؟ وإذا كانت هذه الرسالة من شخص مزيف. فكيف استطاع الإلمام بكل هذه التفصيلات التي لا تعرفها سوى كارما، التي تركتها بعد أن اعتقدت أن أحدنا بالتأكيد مجنون. كارما اللطيفة التي أدهشني أنها على دراية تامة بحكاية چون سبيستيان الغريبة. مؤكدة لي تاريخه المريض. مؤكدة ضمنيا على أنه بالتأكيد السبب في مقتل الأطباء الثلاثة الذين تناوبوا على دراسة حالته، دون أن تعطيني كثيرا من التفصيلات. لتطمئني بنبرة صوتها الخفيضة الواثقة، بأنني سأنجو من نفس قدرهم. الموت المرعب بتصفية الدماء تاركا اعترافا خطيا بانتحاري. وعندما واجهتها بأنها إذا كانت تمتلك قدرة شيطانية مكنتها من معرفة كل هذا، فلماذا لا تستطع النجاة بابنتها مود من فعلة وشم چون سبيستيان الأبيض. فردت عليَّ ببرود مدعية أنه ليس هناك شخص واحد قادر على إيقاف چون سبيستيان أندريه سواي، تمامًا كما أخبرتني رسالة مريام.

لذلك احتضنني چون سبيستيان وبكى عندما شاهدني لأول مرة. دموعه يومها لم تكن نتيجة فرحه بمقابلتي كما تخيلت، أو بالأحرى كما حاول هو إقناعي. مدعيا أنني صديقه الذي ينقذه دائمًا، بل على العكس تمامًا. دموع حسرة ليقينه بأنني عدت لأقف في طريقه مرة أخرى. لتكمل بأن كل شيء مرهون باسترجاعي لذاكرتي، والذي لا بد وأن يحدث في لحظة ما. متمنية أن يحدث ذلك سريعا قبل أن يصبح إيقاف چون سبيستيان مستحيلا. لتعاود التأكيد بأن چون سبيستيان ورجاله قد تجمعوا من جديد. وأنهم بمساعدة إحدى الشخصيات المهمة في الحكومة الكندية يستطيعون التستر على أفعالهم، سيقدمون قرابين بشرية في يوم ما للوصول إلى خلودهم. والتنكيل بكل من لا ينتمي لعقيدتهم الذكورية التي ستحمل الفناء للحياة كلها.

وأمام كل ما تحدثت به كارما لي. لم أملك إلا أن أصرخ في وجهها. بأن كل ما تدعيه لا يعني بالنسبة لي أكثر من سيناريو فيلم أمريكي رديء من أفلام الاثارة الرخيصة. ليهتز جسدها كله قبل أن أكتشف أنها تبكي. فتمسك يدي جاثية على ركبتيها وتصيح بصوتها المبحوح الهامس: من فضلك حاول الوصول إلى مود. إنها في أمس الحاجة لك.

* * *

اهتممت منذ أيام مراهقتي البعيدة بفكرة القرابين البشرية. كوصمة عار لا نحب كثيرًا الحديث عنها في تاريخنا البشري. أن يضحى بالفرد من أجل إرضاء الآلهة لضمان بقاء المجتمع. ومن بين جميع الحضارات، كانت النسخة الفرعونية هي الأكثر رومانسية. الفتاة الشابة التي تقدم مزينة في أجمل صورة لتزف إلى نهر النيل المتعطش دوما للفتيات الجميلات. ليكف النهر عن فيضانه المدمر القادر على إغراق الحياة، أو يعاود فيضانه بعد أن اقتربت الحياة من الجفاف على ضفتيه. يقيم أهل الفتاة عرسا حقيقيا يستمر لأيام «لأنها ستزف إلى شاب جميل يعيش في أعماق النهر». ينتهي الاحتفال بتقديم الفتاة لتغرق فرحة بموتها الأسطوري.

كل الحضارات تقريبا تناوبت على التضحية بمواطنيها بشكل أو آخر خوفا من غضب آلهة حمقاء ومتعطشة دوما للدماء. الحضارة الحديثة نفسها مبتكرة فكرة حقوق الإنسان، قدمت الهنود الحمر والمواطنين الأصليين كقرابين بشرية. فأصابتهم بالأمراض التي أبادتهم. لأن جهاز مناعتهم لم يحتمل الجراثيم التي حملها معهم المهاجرون الأوربيون المغرورون بحضارتهم. وإلى عام ١٩٨٠ كان أبناء المواطنين الأصليين في كندا يختطفون من قبل حكومة الرجل الأبيض، ليتم وضعهم في مراكز لا تسمح لهم بتعلم لغتهم الأم أو الاتصال بأهلهم من السكان الأصليين. دون الاهتمام كثيرًا بمحاولات استغلالهم الجنسية أو

الأمراض النفسية التي سيعاني منها من تبقى على قيد الحياة. بعد أن وصلت نسب الوفيات بين هؤلاء الأطفال المساكين إلى نسب تتراوح بين ٣٠ و ٦٠ في المائة من إجمالي الأطفال المختطفين من ذويهم.

التاريخ البشري مليء بدماء القرابين التي كانت دائمًا وقود رضاء للالهة. كضمان لبقاء البشر بلا كوارث بيئية أو جوع أو أمراض. حضارة المايا العظيمة في أمريكا الوسطى وجنوبي المكسيك على كل ما تركت من فنون مبهرة. كان القاسم المشترك بين كل معابدها هو تماثيل جماجم القرابين البشرية. كان القتل يتخذ أشكالا احتفالية مجنونة، أشهرها لعبة كرة الموت. التي يتصارع فيها رجلان يتبادلان إرسال كرة جلدية بعضهما إلى بعض وردها في الاتجاه المعاكس. إلى أن يفشل أحدهما في صد الكرة ويكون هو الأضحية المنتظرة. فيجلس على ركبتيه ويطيح الكاهن برأسه. فتنطلق الدماء من الرقبة شلالا. لتظهر الصورة التي كررتها حضارة المايا على جدران معابدها، صورة الجسد الذي تخرج من رقبته المقطوعة الرأس ثعابين الدماء المقدسة. ولأن المايا اعتقدوا أن الدماء البشرية هي سر الخلود الدائم. نحرت على مدار مئات السنوات لهذه الحضارة آلاف القرابين البشرية. يشرب القادة دماءها ساخنة أمام جسد الضحية التي لم تفارقها روحها بعد. بالطبع كانت دائمًا الضحايا من الغرباء أو المواطنين الأكثر فقرا في القبيلة. ومع كل بشاعة المايا لم تصل أبدًا لجبروت وجنون الفانكين. الحضارة الأوربية التي عاشت في البلاد الإسكندنافية واكتشفت كندا وأمريكا قبل كريستوفر كولومبس.

لا يكتمل رضا آلهة الفانكين إلا بكثرة الألم الذي يتصاعد إلى السماء من الأرض. فتلقى الضحية على وجهها مقيدة ومكشوفة الظهر

إلى الكاهن الذي يشق العمود الفقري. مستمتعا بصرخات القربان البشري. ليبدأ في تكسير الضلوع وإخراجها في وضع عكسي. كأنها أجنحة من ألم تصعد على ظهر الضحية. وقتها يتم انتزاع الرئتين بسكين ويتم الفتك بالضحية.

القرابين البشرية علامة واضحة جدًّا في تاريخنا الآدمي الدامي على هذه الأرض. لكننا نتناساها، لندعي بأننا من اخترع الموسيقى والفن والجمال. ونحن كبشر ألصقنا دائمًا فعلتنا المشينة هذه بقوى خارجة عن إرادتنا. لأننا نصر على التنصل من أفعالنا النجسة. حتى المسيح نفسه صلبناه، كما تخبر الأناجيل وشُربت دماؤه نبيذا مقدسا في الكنائس، مدعين أنه اختيار الرب للتضحية بابنه من أجل بقاء جنسنا البشري بلا خطيئة نستحق من أجلها العقاب.

قفزت كل هذه الأفكار سريعا إلى رأسي وأنا جالس أشاهد فيلما وثائقيا تبثه قناة الناشونال جيوجرفي عن مومياءات الثلج الصغيرة. هزني كثيرًا وداعة الفتاة المراهقة التي اكتشفوا جسدها محنطا بطريقة رائعة فوق جبال الأنديز بشمالي الأرجنتين. كانت أحد ثلاث مومياءات لأطفال وجدوا بنفس المنطقة. البرودة الشديدة والصقيع استطاعا أن يحافظا على جسد الفتاة ذات الخمسة عشر ربيعا، خمسمائة سنة بشكل مذهل. لتبدو وكأنها في إغفاءة رقيقة ستستيقظ منها خلال الفيلم الوثائقي المحزن. كانت وديعة جدًّا تصاحب ملامحها غلالة حزن نبيلة تشبه قدرها.

وبصوت محايد وعلمي تحدثت أستاذة تاريخ حضارة الأنكا عن التحضيرات التي تعرضت لها المسكينة لإرضاء إله حضارة الذهب

والجمال. فعلى مدار سنة كاملة بعد اختيارها قربانا بشريا. شربت المسكينة كحول الذرة وأُطعمت النباتات المخدرة. لتترك وحيدة فوق قمة الجبل تواجه قدرها بالموت من شدة البرودة. وجدوا معها تمثالا من الذهب الخالص لحيوان اللاما المقدس في عقيدتهم. ليرشد روحها الرقيقة إلى الجنة.

لا أعلم لماذا أشعرتني مومياء فتاة الأنكا بغصة شديدة في حلقي. وقفزت في مخيلتي صورة مرعبة. كانت صورة مود بيير جالسة في نفس وضعية المومياء الصغيرة. مستكينة ومنكفئة على نفسها حاضنة ركبتيها. لم تكن ميتة. لكنها مشلولة تمامًا في نفس وضع المومياء الشابة. تنظر لي نظرة رجاء. تتساقط الدموع من عينيها. فأغلقت التلفاز من دون القدرة على متابعة الفيلم الوثائقي الفظيع. وشعرت كم أن حياتي ستصبح بلا معنى لو تركت مكروها يصيب هذه الفتاة التي حولت حياتي هي والحيوان المدعو چون سبيستيان أندريه إلى جحيم.

* * *

لم يكن الوصول إلى بيت مود بيير صعبا هذه المرة. استرجعت العنوان من على جهاز الجي بي إس. تاركا نفسي أتتبع إرشادات الجهاز. كانت ساعة سيارتي تشير إلى ما قبل التاسعة ليلا بقليل. يلازمني إرهاقي الشديد وتسارع نبضات قلبي بسبب إكثاري من شرب القهوة. تتقافز إلى رأسي عشرات الأسئلة التي لا أجد لها إجابات. فقررت أن أستمع إلى الموسيقى محاولا التركيز في شيء وحيد. أن أجد مود بيير وأن أتأكد أنها بخير. رفعت صوت الموسيقى الكلاسيكية إلى أعلى ما يسمح به ليل مونتريال الهادئ. محاولا إرسال طاقتي الإيجابية للعالم ليساعدني.

سريعا وجدتني أمام بيت مود بيير. أقف مترددا قليلًا قبل أن آخذ قراري بدق جرس الباب. كنت أعلم أنني أتورط شيئا فشيئا في هذه المغامرة المجنونة. أعي تمامًا بوضع قدمي في صحراء من الرمال المتحركة. تاركا نفسي أنسحب إلى الأعماق المميتة بكامل إرادتي. وعندما فتحت لي كارما، لمعت عيناها بمجرد مشاهدتي. تبتسم ابتسامة نصر، وكأنها كسبت الرهان مع نفسها على حضوري.

البيت من الداخل منظم بشكل ملفت. يغطي جدرانه اللون الوردي الفاتح. على الجدران كثير من نسخ شديدة الإتقان للوحات سلفادور دالي. في الصدارة بغرفة الاستقبال، يحتل بيانو ضخم قلب المكان. بادرتني كارما بتوضيح أنه بيانو ماريام والدة مود، بمجرد أن وقعت عيني عليه. أخبرتني أيضًا بأنها لا تريد تغيير مكانه أملا في عودة ماريام يوما

للعيش في مونتريال. كارما ما زالت بملابسها التي قابلتها بها في محل الأزهار. لكنها بلا مساحيق تجميل. يظهر وجهها كوجه رجل عجوز مكدور لم يزره النوم لليالي. خصوصا بعد أن لمت شعرها إلى الخلف. وبدون أن تنتظر ردي، عرضت عليَّ فنجانا من القهوة. ذهبت مباشرة لإحضاره. البيت مريح كمكان ممتاز للعيش. ألقيت بجسدي على المقعد الجلدي الوثير. أغمض عيني محاولا إراحتهما. وبخاصة أن كارما كانت تشغل نفس محطة الموسيقى الكلاسيكية التي كنت أستمع إليها في سيارتي. جلست لكني لم أستطع إغماض عيني. خصوصا مع موسيقى طقوس النار الراقصة للإسباني مانويل دي فايا التي بدأ الراديو في إذاعتها. موسيقى تفور وكأنها تنبئ بنهاية العالم.

وقعت عيناي على صورة حديثة لمود موضوعة في إطار خشبي رقيق بجوار يدي مباشرة. فسحبتها وطالعت ملامح وجهها الجميلة. أعدت الإطار الخشبي إلى مكانه بعد لحظات وأمسكت بصورة أخرى خلف صورة مود. أطلقت صيحة دهشة لم أستطع السيطرة عليها. كانت صورة كارما الرجل قبل أن يغير جنسه، بنفس التقاطيع الأنثوية التي ما زال يحملها. لكن المدهش فعلا في الصورة كانت صورة المرأة التي إلى جواره، امرأة سمراء بملامح إفريقية كاملة. شفتين غليظتين وأنف أفطس كبير. الذي جمد الدم في عروقي هو معرفتي بهذه السيدة. التي لم أقابلها في حياتي. إنها المرأة نفسها التي شاطرتها الغرام في حلمي الباريسي، الذي أكمل لي چون سبيستيان أندريه تفصيلاته. شلتني المفاجأة تمامًا. أعتقد أن كارما التي كانت تحمل القهوة شاهدت ذلك بوضوح. فوضعت القهوة على طاولة صغيرة. قبل أن تجلس أمامي.

ـ نحتاج أحيانًا إلى أن نتخذ قرارات قاسية في هذه الحياة.

(لقد فهمت كارما دهشتي بطريقة خاطئة، معتقدة أن انزعاجي من إجراء مقارنة بين جسدها الذكوري وجسدها الحالي. كان ذلك محرجا لي. أن أبدو في صورة الشرقي الذي لا يقبل الاختلاف).. فرددت:

ـ ما أدهشني هو صورة المرأة التي معك. هل هي أم مود؟

ـ إنها مريام. أروع امرأة يمكن مقابلتها في الدنيا.

ـ لقد كتبت لي. أربكني قليلًا أنها استطاعت فعل ذلك وهي تعيش في أدغال إفريقيا؟

ـ لقد تحدثنا فعلا بالهاتف بعد زيارتك لي. عادة ما نتحدث يوميا.

ـ أليس ذلك غريبا قليلًا؟

ـ لقد تطورت وسائل الاتصالات كثيرًا كما تعلم. صحيح أنها ملكة شعب خاص جدًّا من شعوب القارة السمراء. إلا أنها تعيش على حدود قرية صغيرة أقيمت لاستقبال السائحين بجوار محمية طبيعية.

ـ ماذا تعني بشعب خاص جدًّا؟

ـ شعب المونجا الذي تتزعمه زوجتي. شعب يعيش وفق قوانين شديدة الصرامة. لا يسمح لأولاده بالتزاوج خارج حدود القبيلة. ورغم أن كل أفراده متعلمون، فإنهم يعيشون وفق قوانينهم الخاصة. والتي لا يجب أن يعرف أحد عنها شيئا سوى هم أنفسهم.

ـ يبدو ذلك غامضا لي قليلًا.

ـ سر تميز هذا الشعب عن غيره من آلاف الشعوب والقبائل الإفريقية، هو أنهم شعب من المعمرين. لم يُذكر أبدًا أن أحدا من أولاد المونجا مات قبل أن يتم مائة عام. الأغرب أنهم شعب لا يمرض. هناك

رياضة روحية يمارسها هذا الشعب تُعدّ سرهم الأكثر خصوصية. إنهم أناس عاديون، يعيشون كل طقوس الحياة مثلنا. يختلطون بالآخرين ويمارسون مهامهم كمواطنين صالحين في مجتمعهم. لكنهم معمرون وأصحاء على الدوام.

ـ ربما ذلك يطمئنك قليلًا على مود.

ـ مود مختلفة لأنها تحمل دمي الذي اختلط بدماء هذه الفصيلة النادرة من البشر. إلى أن تزوجنا، كانت ميريام لا تعرف كثيرا عن ماضيها. بالطبع كانت تعلم أنها اختطفت. وأنها ابنة ملك هذا الشعب الخاص. تعلم أيضًا أنها محرمة على أي رجل لا ينتمي إلى شعبها. لكنها لم تكن تعلم لماذا. كانت تتحدث بلغتها الإفريقية إلى ما بدا لي أشباحا ما. لكن لم يكن ذلك يزعجني كثيرًا. فمن يعرف ماريام يجب عليه أن يتقبل كل شيء في مقابل النعيم الذي سيعيش فيه. إلى أن أتى يوم طرقت فيه بابنا امرأة إفريقية عجوز. تحدثت مع ماريام بلغتها عشر دقائق. كانت كافية بأن تخرج معها زوجتي ولا تعود ثانية. فقررت أن أحول جنسي، لأنني كرجل لم أستطع أن أوفر لمريام الحماية الكافية، حتى ولو كانت تلك الحماية ضد ماضيها وقدرها.

ـ أوووف. أليس هذا عقابا قاسيا جدًّا؟

ـ لا تنظر للأمر من جهته السلبية الوحيدة. علمتني مريام أن النساء أقوى كثيرًا من الرجال. إنهن أكثر انفتاحا وقدرة على احتمال الحياة. قررت أن أكون أنثى لأعيد رؤية العالم بعينين شديدتي الشبه بعيني حبيبتي. صدقني كان ذلك مستحيلا بجسد ذكوري كالذي تمتلكه.

ـ تعني أنك لست مثليا؟ سامحني على وقاحتي. ولكني لا أستطيع

منع نفسي من السؤال. ما نعرفه كأطباء نفسيين أن الشخص متحول الجنس يعيش طويلا غير مقتنع بجنسه. يرى جسده سجنا لا يتماشى مع روحه التي لا تنتمي لعالم جسده المذكر أو المؤنث أيًّا كان.

ضحكت كارما ببساطتها المعهودة. ومدت لي فنجان القهوة كي أشربها قبل أن تبرد:

ـ لقد أصبحت زاهدا في الجنس منذ سنوات. لم أكن يوما مهتما بالجسد الذكوري الذي أجده جذعا خشبيا جافا وغير ملهم، مقارنة بالجسد الأنثوي القادر على صنع الحياة. يسبب ذلك لي المشكلات أحيانًا بمحل الأزهار. لكني أؤكد لك أنني لم ألمس يوما الرجال بأي شكل من الشهوة. السبب في اختياري للقرية كمكان للعمل، هو أنها المكان الوحيد في مونتريال الذي يستطيع أن يقبلني على وضعي الجديد.

رن جرس الهاتف الذي قطع المحادثة بيني وبين كارما لأسمعها ترد على المتصل: «أين كنت أيتها المُتعبة؟ كيف تسمحين لنفسك بفعل ذلك بي؟ أبقي في مكانك وسأتي حالا لك».

فهمت أن المتصل هي مود بيير بعينها. فوقفت متأهبا للخروج مع كارما. مرتشفا ما تبقى من قهوة في فنجاني. معدا نفسي لنهاية السهرة بمفاجأة سعيدة.

* * *

تتبعت إشارات كارما وأنا أقود سيارتي عبر شوارع مونتريال. كنت أعلم أننا نتجه إلى خارج المدينة. تحديدا إلى منطقة كنواكي، أحد تجمعات ما تبقى من سكان أصليين. كنت قد زرت هذه المنطقة أكثر من مرة. فالسكان الأصليون يتمتعون بإعفاء تام من الضرائب. المنطقة بها كثير من المطاعم ومحال بيع الكحوليات والسجائر التي يقصدها المونترياليون للاستفادة من الخصم الضريبي، الذي كان وبالا على السكان الأصليين أو ما يتم التعارف عليه بالهنود الحمر. فأصبح معظمهم مدمنا للكحوليات. يعيش بلا عمل على المنح الحكومية. كانت كارما تخرج بي من المنطقة التجارية الفسيحة إلى مناطق سكنية لم أزرها من قبل. وأمام أحد البيوت الصغيرة طلبت مني أن أتوقف بسيارتي. نزلت وتركتني وحيدا بعد أن استأذنت مني في الغياب لدقائق. لتعود وتطلب مني النزول. وعندما تساءلت عن مود. أجابت بأننا هنا لزيارة صديقة قديمة قادرة على المساعدة. وبأنها ستذهب منفردة لإحضار مود. أصابني ذلك بحنق شديد. فبدلا من أن نجد مود. وأذهب بعدها إلى بيتي لأنام. تتم إضاعة وقتي في زيارة سخيفة لا معنى لها. فكرت للحظة في أن أدير محرك سيارتي وأعود إلى بيتي. فإذا لم يكن والد مود نفسه مهتما بإيجادها. فلماذا عليَّ أنا المعاناة وتضييع وقتي؟ وكأن كارما قد شعرت بما أفكر به. فبادرتني قائلة:

ـ دكتور أشرف. أعلم أنك لا تفهم ضرورة هذه الزيارة. ولكن كلنا

في حاجة شديدة لها. افعل ذلك من أجلي وأجل مود.. (لتضيف بنظرة رجاء) من فضلك.

نزلت من السيارة متجها إلى باب البيت المفتوح. محاولا ألَّا أتعرض لبرودة الجو القاتلة. استقبلتني عند الباب امرأة أول ما انطبع في ذهني عنها أنها بلا عمر. تبدو عجوزا جدًّا هذه السيدة. لا يمكن تخيل كمّ التجاعيد في وجهها من كثرتها. عندما قبضت على يدي مصافحة، شعرت بأنني أصافح آلة حديدية. كانت نحيفة حتى إنك تستطيع مشاهدة تفصيلات عظامها. طويلة بشكل ملفت كنخلة. تحمل ملامح وجهها تطابقا كاملا لكل ملامح السكان الأصليين. مزيج من الملامح الآسيوية وملامح سكان أمريكا اللاتينية. بالطبع لم يخطئ أنفي رائحة المريجوانا التي يصنع دخانها سحابة كثيفة، ينقصها فقط القليل من البرودة كي تمطر. وبحركة لا تصدر إلا عن أصدقاء مدت وجهها لي وقبلتني بالطريقة الكندية المعهودة. لتسحبني إلى داخل بيتها وهي ما زالت قابضة على يدي.

بيتها متحف صغير لتراث شعبها.. انتابتني هذه الفكرة لأنني لم أزر أبدًا أحد بيوت السكان الأصليين: صور لخيام الهنود الحمر، أقنعة خشبية ملونة، رأس عملاق لحيوان الوعل الشهير في كندا معلق على الحائط. لم يكن بالبيت مقاعد، مجرد مجلس من فراء الدببة موضوع على الأرض. بمنتصف الغرفة طاولة خشبية صغيرة موضوع عليها غليون طويل للتدخين، يتكئ على حامل خشبي خاص. غرفة الاستقبال لا تحتوي إلا على مكتبة ضخمة وجهاز جريمفون قديم جدًّا في أحد الأركان. تطالعك الكتب أينما ذهبت ببصرك. حوائط الغرفة كلها مغطاة برفوف الكتب من كل الاتجاهات. باستثناء ذلك، لا شيء. احترت قليلًا

فيما عليَّ فعله. لكنني تبعت السيدة العجوز وكارما التي ما زلت غضبان من تصرفها. وبدون أن تنظر المرأة العجوز لارتباكي عادت لتدخين غليونها بهدوء. وكأني اعتدت زيارتها من سنوات.

كارما التي ابتسمت خجلة وجهت كلامها لي:

ـ دكتور أشرف. لست في حاجة إلى أن أقدمك إلى تيكانا. هي تعرفك جيدا من حديثي عنك. ولكنى يشرفني أن أكون الشخص الذي أتى بك إلى بيتها. تيكانا هي مرشدتي الروحية من سنوات، وهي الشخص الذي بمعونته استطعت تفهم كثير من مصاعب الحياة. كانت تعمل أستاذة الحضارات القديمة بجامعة كونكورديا قبل أن تُحال إلى المعاش. بالإضافة إلى أنها واحدة من أهم الباحثين في علم الاجتماع بكندا.

هززت رأسي محييا المرأة التي بادلت تحيتي بابتسامة خفيفة. ومدت لي غليونها المحشو بالمريجوانا.

وقبل أن أدري ما عليَّ فعله في عرض تيكانا لي بالتدخين. انتفضت كارما واقفة لتخبرني أنها ستذهب لإحضار مود. حاولت الاعتراض. لكن بنظرة حازمة من السيدة الهندية، شعرت بأنني مسلوب الإرادة. فبدأت في تدخين المريجوانا والنظر إلى تيكانا العجوز.

* * *

كان قبولي تدخين المريجوانا مع تيكانا بادرة صداقة لأحد مكونات مجتمعي الكندي الجديد. وطن أراوده عن حبه كأم بديلة. السكان الأصليون في كندا حالة شبيهة بحياة النوبيين ومن تبقى من أهلي بواحة سيوة في مصر. مكون أصيل في حضارة شعب، تحاول الأغلبية طمس وجوده. لأنها لا تستطيع فهم معنى قبول أصالة مجموعة مختلفة.

أسعدني فعلا أن أقابل تيكانا. ربما لأنها صورة غير نمطية لما يقدمه المجتمع الكندي عن الهنود الحمر للكنديين الجدد مثلي. لم تكن مدمنة كحول تعيش مشردة في تجمعات بوسط مدينة مونتريال، على العكس تمامًا، أستاذة جامعية ناجحة ومن السكان الأصليين.

تيكانا التي ربما كانت في عمر جدتي، لم تتوقف عن النظر لي والابتسام. لم أكن معتادا على تدخين المخدرات. ربما بحكم مهنتي كطبيب يجب أن يحافظ على ذهنه حاضرا دوما. أو ربما لأنني شديد الصرامة مع نفسي. لا أسمح لها بهذا الترف الممتع. لكني بعد عدة أنفاس من المخدر، شعرت بأن روحي أكثر انفتاحا وبهجة. وسريعا بدأت عقدة لساني تنحل. فتحدثت بالإنجليزية لتيكانا التي تنطقها بلكنة مميزة. تعطي للغة نكهة موسيقية رائعة.

ـ سعيد جدًّا بالتعرف عليك يا دكتورة تيكانا.

ـ ستدعوني تيكانا وسأناديك أشرف. لا معنى للألقاب في بيتي

يا صديقي الشاب. دعني قبل كل شيء أسألك السؤال الذي أسأله لكل من يدخل بيتي لأول مرة. ماذا تعرف عن الحياة يا أشرف؟

فاجأني السؤال غير المتوقع. تخيلت للحظة أن الإجابة شديدة الصعوبة. خصوصا في حضور عجوز لا تنتمي لثقافتي، لها خبرتها الخاصة بهذا العالم. مع ذلك وجدت الإجابة تخرج من فمي واضحة بلا تفكير. ربما لشعوري الدائم بالوحدة، أو لشعوري بالتعب من كل ما يمر بي.

ـ الحياة قاسية جدًّا يا تيكانا. محاولة سخيفة لتحقيق أحلام لا يعني تحقيقها أي شيء سوى قرب نهاية الحياة نفسها والموت. رحلة قطار سريعة لن يستطيع العقل أن يستوعب فيها سوى وهم التعلق وحقيقة الفقد. سلسلة من الأخطاء المتكررة التي تهب الأمل في التعلم. لكن هل فعلا نتعلم؟

ـ ألست قاسيا قليلًا في وصف الشيء الحقيقي الوحيد الذي نمتلكه كبشر؟

ـ ربما. لكنك تخاطبين شخصا لا يعيبه أن يصف نفسه بأنه أحمق في الكثير من الأوقات.

ـ إذن هل أستطيع أن أدعي بأنك شخص حكيم؟

ـ وهل تعتقدين أنه من الحكمة محاربة طواحين الهواء والخيالات؟

ـ من الحكمة ألا نسلم بأن للحقيقة وجها واحدا فقط. العالم ليس مسطحا كما يؤمن كثيرون.

ـ أعتقد أنه للتمتع بالحياة يجب علينا لعب اللعبة بالقواعد

التي تفرضها الحياة نفسها. أعني أن يجتهد الإنسان ليصبح مجرد شخص عادي. يبحث عن مهنة شريفة، يقيم عائلة، ويدفع الضرائب منتظرا الإحالة إلى المعاش، متمنيا السفر ومشاهدة العالم، لتنتهي الرحلة بالموت.

ـ غريب أن أسمع هذا الكلام من مصري ينتمي إلى حضارة مبهرة كحضارتكم. لقد أصبحت كنديا أكثر من الكنديين يا أشرف.

ـ سامحيني، تتحدثين عن مصر وحضارتها كأنك تعرفينها. هذا يخالف قليلًا شعاع الحكمة الذي ينبعث من عينيك. ما تجدينه في كتبك عن مصر شيء يختلف كثيرًا عن واقع الملايين المحزن. لكن في النهاية يبقى الإنسان هو الإنسان. دون التفكير كثيرًا في أصوله التي لا تعني شيئا. صدقيني يا تيكانا كلنا متشابهون جدًّا كبشر. نفس المخاوف من المرض والاحتياج والموت. نفس الطموح الغبي بالثراء والسعادة. نفس المعاناة من سراب فهم الحياة وإرضائها.

ـ لماذا تتحدث عن الحياة وكأنها فقط هذه الفترة القصيرة التي نمر بها من الميلاد إلى الممات؟

ـ وهل هي شيء آخر يا دكتورة؟

ـ أولا لقد اتفقنا على أن تناديني بتيكانا. ثانيا أنت تعرف أن حياة أرواحنا أعمق وأطول كثيرًا من عشرات السنوات التي لا نستطيع تعلم شيء فيها.

ـ إن كنت فهمت ما تحاولين قوله. فأنت تحاولين التطرق لقصة حياة أرواحنا الخالدة التي يحاول الجميع إقحامي فيها من لحظة معالجتي لجون سبيستيان أندريه المشئومة؟

ـ أنا لا أحاول سوى أن أوضح لك أن الكون اختارك هذه اللحظة ليخبرك بشيء تقاوم بشدة لرفضه.

ـ ولماذا أنا؟ لماذا على الكون الذي يترك الملايين يموتون بالجوع والأمراض والجهل. ويبحث عني أنا تحديدا لأنقذ فتاة كندية مرفهة من مجنون يدعي أن روحه خالدة؟ ألا تعتقدين أن كلامك مليء بالخيال يا صديقتي اللطيفة؟

ـ أمور كهذه لا أستطيع الإجابة عنها. أنت فقط من يستطيع اكتشاف قدره. لكني أستطيع أن أخبرك بأن الأذكياء هم من يحسنون الإنصات إلى الإشارات الكونية. متتبعين خطواتهم على الدرج الذي ترسمه لهم الحياة. لذلك أنت هنا. جالس أمام تيكانا تدخن معها المريجوانا. ربما أنا لست سوى علامة كونية صغيرة. أحاول أن أساعد روحك على تذكر ماضيها. متمنية أن ينير لك ذلك المستقبل وتستطيع اتخاذ القرار الصائب.

ـ ولهذا أحضرتني كارما إليك؟

ـ كان هذا هو قرارك أنت بالبداية. فلو لم تذهب باختيارك إلى بيتها. لما كنت الآن تجلس أمامي.

ـ تيكانا سامحيني، أشعر بأني متعب جدًّا وأريد أن أستريح. هذه هي تجربتي الأولى مع المريجوانا.

ـ ليس عليك يا ولدي سوى أن تتمدد على فراء الدب الذي تجلس عليه وتستريح. أغمض عينيك واستمتع بالدفء الذي يحمله ما تبقى من جسد هذا الحيوان الرائع. حاول النوم إن استطعت. أشعر بأن قلبك متعب وروحك تحتاج إلى كثير من الحنان.

ما إن تمددت فاردا جسدي على فراء الدب السميك. حتى بدأت تيكانا بالغناء بصوت خفيض أخذ في الارتفاع بالتدريج. صوت كقطرات المطر الأولى التي يتبعها هبوب إعصار. كانت تغني أغنية بلغتها القديمة. تحتوي مقاطع كاملة منها على تأوهات وأصوات لا معنى لها. تقطعها بتكرار كلمة بعينها تعيدها بأداء مختلف. بين سعادة ونحيب ونشوة. أشعرتني موسيقى تيكانا بأني أسكن في قلب الكون. وبأن مركز الكرة الأرضية لا يكف عن الدوران حول نفسه وحولي. كأني درويش دوَّار فاقد للوعي والقدرة على التوقف.

مع دوراني بمساعدة المريجوانا وموسيقى تيكانا البشرية، بدأت أشاهد حياتي كشريط سينمائي يجري بجنون. فقدت القدرة على الشعور بجسدي الذي بدأت أشعر بأنه يرتفع عن الأرض. ببساطة تحولت لروح خفيفة وشفافة. حر من الارتباط بالوقت. ذلك الارتباط الذي يعني كل ما هو منطقي أو يمكن فهمه.

شاهدت حياتي كلها تمر أمام عيني معتمة. كأن شريط ذاكرتها أصابه تلف ما. ظلام سريع لا تضيئه إلا اللحظات التي كان ينتابني فيها مشاعر فارقة في حياتي. رأيت بوضوح وقوفي مؤديا القسم بالولاء للملكة إليزابث الثانية ملكة إنجلترا وكندا وأستراليا ونيوزلندا، كي أصبح كنديا. لحظة بكاء أبي وهو يودعني عند سفري لأول مرة. تقبيلي ليد أمي طالبا دعاءها لي والتوقف عن البكاء. خروجي سريعا كي ألحق بالطائرة إلى كندا. سعادتي بأول لمسة ليد فتاتي التي أحببتها أيام الجامعة. سهري ليلة كاملة أقبل يدي لأنها حملت يدها الصغيرة. فرحتي بالالتحاق بكلية الطب. الإثارة عندما قررت امتلاك أول أفعى صغيرة غير سامة. جنوني وأنا طفل أجمع الأدوية القديمة لكي أستخدمها في محاولة انتحار، لم

أقدم عليها أبدًا. لحظات فطامي المرة. بكائي واضعا رأسي في صدر أمي التي كانت تبكي بدورها. الألم المصاحب لقطع الحبل السري. الشعور بحرقة الهواء كسكين يمزق رئتي وأنا أتنفس الهواء لأول مرة كوليد. حركتي ببطء ورقة وأنا جنين في رحم أمي. لمسة أمي على بطنها المنتفخ بجسدي الذي لم يكتمل تكوينه. ابتسامتي متجاوبا للمستها وأنا علقة تتحرك في عالم من السوائل اللزجة.

عند لحظة تكويني الأولى هذه توقف العالم عن الدوران فجأة. اختفى أيضًا صوت غناء تيكانا الذي ساعدني على التذكر، كموسيقى مضيئة تنير عالمي. غرقت تمامًا في الظلام الدامس. فقدت روحي خفتها التي كانت تنساب بها كنسمة عابرة بحرية في ماضيها. فشعرت بأن روحي تسقط بقوة وعنف في بئر لا قرار له. حاولت الصراخ لكني كنت شيئا بلا صوت. مجرد هواء من عدم. اعتقدت أن هذا هو الموت الذي لم أختبره يوما. نفق مظلم طويل يؤدي إلى التلاشي والضياع. لكن الظلام لم يدم طويلا. هناك ضوء ما بدأ ينبعث حولي. يصبح أقوى بفعل سرعة روحي المنسحبة سريعا نحو الضوء الذي أصبح أكثر وضوحا. ومع ذلك كانت رؤيتي مشوشة جدًّا. أشاهد أشخاصا وأسمع كلاما، ولكن بلا قدرة على تحديد الملامح أو فهم للحديث. ساعتها بدأت أشعر بثقل جسدي الأرضي، وبدأ الكون في الكف عن دورانه المحموم. تشويش الرؤية يرهقني بقوة. فأتخبط في كل الجهات كمجنون يحاول الهرب من شبح لا يراه.

فجأة شعرت بيد تهزني بقوة. وبماء بارد ينسكب على وجهي يغرقني. فأستيقظ، وجهي مبلل بالدموع. جسدي يؤلمني، كما لم أعرف الألم في حياتي أبدًا. أكتشف أن رأسي في حضن تيكانا. تخبرني بأنه

يكفيني ما وصل لي في هذه المحاولة. تطلب مني قضاء الليلة في بيتها لأنني لن أستطيع الحركة حتى الصباح. تخبرني أيضًا بأنها ستوقظني السادسة صباحا كي أذهب إلى عملي. فأعاود إغماض عيني. بينما هي تضع غطاء من فرو الدببة فوقي وتطفئ الأنوار متمنية لي نوما هادئا. فأسقط في نوم لم أعرف في حياتي كلها أهدأ منه.

* * *

ـ لماذا تحاول التنصل من كونك آدميًّا؟

ـ چون سبيستيان، لا أفهم ما تحاول إخباري به؟

ـ أحاول فقط أن أتحدث معك كما يجب أن يتحدث مريض مع طبيبه. شعرت بقدر ما سببته لك من إرباك في الفترة الماضية. فقررت التراجع عن كل ما أخبرتك به عن حياتنا السابقة.

ـ هذا جيد جدًّا. هذه خطوة مهمة للعلاج. أن تدرك أن ما حكيت لي سابقا لا يمكن أن يكون حقيقيا. وأنه مجرد خيالات يصنعها عقلك. لأنك مريض وتحتاج لمساعدتي. أليس كذلك؟

ـ ربما، غير متأكد تمامًا. ولكني في حاجة إلى التحدث إليك كطبيبي المعالج. وليس كصديق قديم كما حاولت من قبل. هذا ما يكفله لي القانون كمواطن يدفع الضرائب ويريد أن يستخدم حقه في العلاج. لذلك يتحتم عليك الاستماع لي والتفاعل معي.

ـ هذا ما أحاول فعله دائمًا.

ـ إذن، كيف تقيم البشر الذين اخترعوا العبودية كتجارة رائجة ومهنة؟

ـ بالتأكيد أنت تعلم أن شيئا كهذا أصبح محرما الآن.

ـ أعلم، ولكني أتحدث عن الفكرة نفسها. كثير من أفكار الحضارات

العظيمة اختفى من حياتنا الآن. لكن لا يعني ذلك أنها كانت أفكارا سيئة بالضرورة.

ـ العبودية شيء محرم لأنه يقضي على فرضية المساواة بين البشر.

ـ وهل تعتقد أننا كبشر متساوون فعلا كما تدعي الحضارة الحديثة؟

ـ هذا ما تحاول البشرية تحقيقه بعد عصور طويلة من التخبط والألم. وأعتقد أنها نجحت كثيرًا في ذلك.

ـ لو أن هذا صحيح. هل تستطيع أن تخبرني مثلا باسم رئيس وزراء كندي من أصول تنتمي إلى السكان الأصليين؟

ـ عدم حدوث ذلك لا يعني غياب فرص المساواة بين جميع المواطنين في دولة تهتم بالتعددية الثقافية.

ـ حسنا، استقبلت كندا مئات الآلاف من المهاجرين في السنوات الأخيرة. يحتل كثيرون منهم الأغلبية العظمى في معدلات البطالة. أو ينتمون إلى أصحاب الدخول الأكثر تدنيا. أليس كذلك؟ دعني أسألك في حدود عالمك الذي تعيش فيه بشكل يومي. هذا المستشفى مثلا. يضع صورة لكل المديرين السابقين. هل تجد فيها صورة واحدة لرجل أسمر أو حتى من أصول غير أوربية؟

ـ ربما لا. ولكن هذا لا يعني أننا نؤمن بالعبودية أو بعنصرية الحضارة الغربية؟

ـ هذه الحضارة بنيت على أنقاض شعوب كاملة. الأنكا والمايا وحضارات السكان الأصليين. حضارات أعظم كثيرًا من حضارتك التي أورثت الإنسان أمراضا كالاكتئاب والسرطان وضغط الدم. أخبروني أنك مصري ومسلم. أليس ذلك صحيحا؟

ـ أنا كندي فقط. هذه جذوري الأصلية وثقافتي. والتي لن تتعارض مع كوني كنديا مثلك.

ـ إذًا لماذا تحاول أن تنكر أن الحضارة الفرعونية قدست الزعيم؟ جعلت من الفرعون إلها له كل مميزات الآلهة. المسلمون أنفسهم وضعوا نظاما فذا لتجارة الجواري والعبيد. أتذكر مما قرأت عن حضارة الإسلام. أن قائدا ترونه من العظماء في دينكم يُدعى هارون الرشيد، كان يمتلك وحده ألفين من الجواري.

ـ ماذا تحاول الوصول إليه يا چون سبيستيان؟

ـ الحقيقة فقط في حوار بين طبيب نفسي ومريض مثلي يفترض به الجنون.

ـ وما الحقيقة يا چون سبيستيان أندريه؟

ـ حضارات العالم القديم كلها بنيت على ثقافة السادة والعبيد بلا استثناء. لذلك كان الإنسان فيها أكثر سعادة. تاريخ البشر لا يعرف المساواة الساذجة بين البشر. هذه المساواة ستنتهي بالبشرية إلى مأساة كاملة ستؤدي إلى فناء الأرض. ولولا الأذكياء فقط لكان العالم قد انتهى إلى الدمار الكامل منذ عقود.

ـ من تدعو بالأذكياء يا رجل؟

ـ كل من يساعدنا للحفاظ على الهوية الحقيقية لهذا الكوكب. من يصنعون الأسلحة ليقتل الأفارقة بها بعضهم البعض. الذين يلقون بالحليب والبيض إلى المحيط، كي يحافظوا على سعر بضاعتهم مرتفعا، دون التفكير في موت العبيد الجوعى، كما يجب أن يموتوا من الفقر.

من يشجعون تجارة الجنس ويعودون بالمرأة إلى دورها في تلبية رغبات سيدها الذكر. من يستغلون أطفال آسيا، لترتدي أنت قميصك الذي دفعت فيه عشرات الدولارات مقابل وجبة غذاء باردة ثمنها عشرة سنتات. من يختطفون أطفال إفريقيا وآسيا ليبيعوا أعضاءهم للمستفيدين من نظامنا الصحي العظيم، الذي يتكفل بزرع الأعضاء بالمجان للجميع، ليصبح متوسط عمر المواطن الكندي فوق الثمانين عاما. الأذكياء يا طبيبي المعالج هم من سيقفون لك بالمرصاد فلا تستطيع الترقي في سلم الوظيفة. لتكون القيادة دائمًا في أيدينا نحن، الرجال الذين يمتلكون لون جلدي الأبيض، وعقلا يفهم أن العبودية أساس حياة البشر وحضارتهم.

احتجت إلى مجهود نفسي رهيب لكي لا أنقض على چون سبيستيان أندريه وأهشم وجهه بقبضتي.

للأسف كان ما قاله صحيحا في مجمله. فختمت جلستي معه. طالبا منه الانصراف إلى حجرته. لأخبر ممرضة عيادتي بأنني في حاجة شديدة لراحة، غيرت فيها ملابسي وخرجت أجري في شوارع مونتريال لمدة ساعة كاملة. شعرت بعدها بأنني ـ تقريبا ـ على ما يرام.

* * *

ذهبت هذه المرة بكامل إرادتي لتيكانا. كانت لعبة إعادة تذكر حياتي السابقة قد أعجبتني. كنت مدفوعا بكثير من التعليلات لنفسي. أهمها على سذاجته، أنني نمت لأول مرة بعمق لا يمكن تخيل متعته، بعد عدة أيام من الأرق المضني. أحببت تيكانا التي على غرابتها ذكرتني بجدتي عزيزة أم والدتي. أحببت صوتها وشعوري بالأمان واضعا رأسي على صدرها كما لم يعد أحد يفعل معي. الخدر اللذيذ للمريجوانا الذي يحل عقدة لساني. ويسمح لي بأن أتحدث براحة وكأنني أتحدث لنفسي. بيتها الذي يمتلئ بأرواح غير مرئية. لكنها تحدث ضجيجا شبيها بضجيج رفرفة الفراشات. وياللعجب، لم أجد في بالي الشغف للسؤال عما حدث لمود بيير. كنت مهموما لأول مرة من سنوات طويلة بنفسي التي كدت أن أنساها في رحلة بحثي المحمومة عن نجاح وتحقق. كأنها مجرد وسيلة للوصول لشيء لا أعرف ما هو. نجاح، ثراء، نظرات احترام وتبجيل. عبث ما يجب تقديمه للمجتمع كي يتقبلني. فعاملتها بقسوة أب شرير يحرم على طفله الصغير متعة اللعب والبكاء. ليبحث عن سعادته الشخصية بأنانية لا توصف. دون أن أدرك أنها هي الشيء الوحيد الحقيقي في حياتي.

كانت تيكانا ما زالت تدخن المريجوانا. التي اكتشفت أنها تزرع منها كثيرا في حديقة بيتها. كنبتة مبهجة تزين بها بستان حياتها. تذكرت وصف الكاتب الإسباني خوان خوسيه مياس لتدخين المريجوانا في سيرته الذاتية البديعة التي سماها العالم: «كنت أمشي مرتفعا عن الأرض

بضعة سنتيمترات. محاولا ألا يتغلب عليَّ تأثير المريجوانا فأطير في الهواء وأسبب الرعب لمن حولي». كانت تيكانا تسير هكذا كأنها ترتفع عن الأرض سنتيمترات متحكمة بوزنها في الهواء الحر. ولأنها على ما يبدو كانت تعلم بعودتي. قدمت لي المريجوانا وشرابا من أعشاب لم يهمني كثيرًا أن أسأل عن ماهيتها. شرابا له نكهة عطرية لطيفة يعطيك الإحساس بالأمان والطمأنينة من أول رشفة.

في حضرة تيكانا لم أستطع أن تكون المبادرة لي في أي شيء. كنت أتمنى أن تبدأ في غناء لحنها الذي يعود بي إلى العوالم التي أشتاق إلى العودة إليها. لكنها بصبر وحكمة استطاعت أن تسيطر على تعجلي. الذي عادة ما يفسد كثيرا من الأمور الرائعة في حياتي. سمح ذلك للخدر أن يغزو جسدي. كظل رقيق يعاود الالتحام بجسدي المكدود بهلاوس النشاط والحيوية. مشاركا في ذلك آلاف الكنديين الذين يتريضون بالجري في الشوارع لساعات. ببساطة لأنهم مسكونون بشبح الخوف من السرطان وعته الشيخوخة، أو ربما الموت بالذبحات الصدرية. كردة فعل على ترهل وسمنة آلاف آخرين من الكنديين أيضًا. يعبون من متع الحياة حتى الموت من التخمة والسعادة. محاولا التحرر من عبودية الدعة والميل الفطري للكسل. كي أثبت لنفسي أنني الأفضل والأحق بالبقاء مدة أطول في هذا العالم. الذي البقاء فيه دائمًا للأقوى.

فجأة بدأ غناء تيكانا في إيقاظي من تأملاتي السخيفة. لتسمح لروحي بالتحرر التدريجي. وكأنها تفك عروات معطف حديدي يغلفها. بدأ صوتها بطيئا حتى يسمح لروحي بالتعري بإثارة. كأن غناءها فنجان قهوة يحتاج إلى النار والوقت لتنضج حبوب البن. فتتحرر منها خلاصتها العطرية الممتعة المذاق والرائحة. قبل أن يتحول غناؤها إلى أوركسترا

كاملة من عازفين يؤدون بجنون العزف على كونشيرتو روحي. فتنطلق في نفق الحرية كحيوان يجري هاربا من أسر الجسد. وكما بدأ الغناء فجأة انقطع فجأة. لكنني لم أكن في أي مكان إلا في دائرة مليئة بعشرات الأبواب المغلقة. كان عليّ فقط أن أفتح أحدها. لأقابل واحدة من حيواتي التي تركتها هناك خلف ذلك الباب الموصد. في هذه اللحظة التي كان عليّ فيها الاختيار، شعرت بخوف لا يوصف. حاولت الارتداد إلى الخلف والعودة ثانية إلى النفق الذي دخلت منه إلى عالم حيواتي لكنه اختفى. فتأكدت بأن هذا النفق لا يوجد إلا خلف الأبواب المغلقة التي يجب أن أعبر أحدها. لأعود إلى نفسي وجسدي كأشرف المدني. كنت أعلم أيضًا (ولا أعرف تحديدا من أين أتتني هذه المعرفة) أن أول ما سأقابله من حياتي هو لحظة الممات، التي ستأتي بعدها كل التفصيلات بشكل عكسي حتى أصل إلى لحظة ميلادي وانعتاقي من ممر تاريخ روحي في حياتها السابقة. كنت أوقن بأنني أصبحت حبيسا لا أستطيع العودة إلا بالتقدم إلى الأمام.

وللتخلص من ألم خوفي فتحت أقرب الأبواب إلى يدي. فوجدتني إحدى بنات «الخطأ ـ البغايا» أمشي منتشية في شوارع القاهرة المملوكية «عام ٨٥٧ هجرية ـ ١٤٥٣ ميلادية». أشارك الناس فرحتهم بالمشهد المرعب الذي شاهدناه. قبل أن يأتي سهم غادر من أحد المماليك يخترق قلبي من الخلف فيقتلني. لأني وشيت لكبير الشرطة بأصدقائه المماليك. أتذكر سريعا منظرهم وقد وسطوهم للتو*. أرى يلبان الزيني المملوك هو وأعوانه يُقتلون بشطرهم من أسفل السرة بالسيف. فتتساقط أمعاؤهم وهم يصرخون محاولين الإمساك بها بأيديهم. صورة المملوك يلبان الزيني تتطابق بشكل مذهل مع صورة چون سبيستيان أندريه.

أشاهدهم قبلها بأيام وقد سمروهم على جذوع نخل. وأركبوهم الجمال ليجرسوهم عرايا في القاهرة. صوت المنادي يخبر المارة بأنهم سيتم توسيطهم كما أمر الوالي. لأنهم اعتادوا قتل بنات «الخطأ» وسرقتهن. أراهم أيضًا وهم يقتلون شفيعة زميلتي المسكينة التي تصغرني بأعوام. بعد أن تناوبوا عليها كالذئاب. لم يتركوها إلا بعد أن بدأت في النزيف. ويهربون بمصاغها الفضة.

تعود بي الذاكرة أكثر فأراني ابنة عشرة أعوام. يبيعني زوج أمي إلى الغجر. وعندما أحاول الهرب، تلطمني الغجرية على وجهي وتقيدني في عمود بوسط الدار. قبل أن تفض بكارتي بأصبعها. تتسابق الصور أسرع فأرى زوج أمي يضربها فيشق رأسها. أصبح في السابعة من عمري فأراني أسير مع الناس ممسكة بيد أمي في زفة المحمل أشاهد كسوة الكعبة الجديدة. منبهرة من كثرة العامة وعجائب البهلوانات. يعجبني جمال أصوات المغنين والمغنيات. تسرع روحي للعودة أكثر. أراني طفلة أبنة عام يفجعني منظر زوج أمي وهو يقتل أبي الذي يحملني. فأسقط منه على الأرض تسيل على عيني دماؤه، فتستحيل الرؤية إلى الأحمر. أصرخ وأصرخ وأصرخ. عندها تنسحب كل الرؤى. وأعرف أن روحي عادت إلى جسدي. أشعر بيد تيكانا تهزني بينما جسدي كله يتشنج، دموعي تغرق وجهي من شدة الخوف والألم. وعندما أستطيع التحكم في لساني. أنطق بصوت مبحوح من كثرة الصراخ:

ـ كان ذلك مؤلما جدًّا يا تيكانا. من فضلك لا أريد أن أعود لهذه التجربة المريرة أبدًا.

* * *

ستقول لي تيكانا بعد أن أستطيع التحكم في عضلات جسدي التي دخلت في حالة من الانقباض والتشنج اللاإرادي:

ـ يحدث هذا عندما ندخل إلى عالم الأرواح غير متحصنين بكلمة المرور التي ستأخذنا مباشرة إلى حياتنا التي نريد أن نعرف تفصيلاتها.

ـ ما شاهدته كان مريرا جدًّا. كيف استطاعت روحي التعافي من تجربتها المريرة تلك والعودة ببساطة لتسكن أجسادا أخرى؟

تبتسم تيكانا وتعتدل في جلستها محاولة أن تكون في وضع أكثر راحة قبل أن تصب لنفسها ولي كوبين آخرين من المشروب المعطر.

ـ ما زال أمامنا الكثير لنتعلمه عن عالم أرواحنا يا صديقي الصغير. لكن ما أعلمه هو أن هناك دائمًا كلمة مرور واحدة فاعلة لعدم الضياع في عالم الأرواح المتشابهة. بدونها قد تذهب روحك إلى ذاكرة خاطئة لم تكن تجربتها الخاصة أبدًا.

ـ أتعنين أنني لم أكن أبدًا تلك الفتاة البائسة التي شاهدت حياتها للتو؟

ـ ربما.

ـ إجابتك لا تؤكد أو تنفي؟

ـ ولكنها إجابتي التي لا أملك غيرها كإجابة صادقة.

أراحتني احتمالية ألا أكون قد مررت بتجربة قاسية كتجربة الفتاة البائسة المغدورة. لكن صورة چون سبيستيان جعلتني أعاود السؤال إلى تيكانا التي تمتلك دائمًا إجابة على كل الأسئلة.

ـ وماذا يعني أن أرى صور أشخاص ينتمون إلى عالمي الذي أعيشه الآن؟

ـ تعني أنك تفكر كثيرًا في هؤلاء الأشخاص. بمساعدتهم ستستطيع التوصل إلى كلمة المرور الصحيحة التي ستذهب بها مباشرة إلى حياتك السابقة التي تريد معرفة تفصيلها.

ـ تيكانا لقد تعبت من كل هذا الهوس الذي أعيشه. أريد فقط العودة كما كنت. مجرد طبيب أمراض نفسية مهاجر يحاول كسب حياته في بلاد يحاول أن يجعلها بلاده.

صمتت تيكانا قليلًا قبل أن تخبرني بأنها ستغير ملابسها. وبأنها ستصحبني في جولة ستضفي عليّ القليل من البهجة التي أحتاج إليها بعد تجربتي القاسية. وكالعادة لم أستطع أن أرفض طلبها. برغم المودة الذي بدأت أشعر به تجاه هذه المرأة الغريبة، فإنني كثيرًا ما أتمنى أن أهرب من الغلالة الحريرية التي تقيد بها روحي.

عادت تيكانا وهي ترتدي ملابس بسيطة للغاية. مجرد رداء مخملي واسع تضع فوقه معطفها الأسود الشتوي. لكنها قبل خروجنا من بيتها اشترطت عليَّ شرطا. وجدت به كثيرا من الغرابة. كان عليَّ أن أصوم عن الكلام طوال الفترة التي سنقضيها خارج البيت إلى أن نعود. وبدون التردد هززت رأسي موافقا.

* * *

ركبت السيارة مع تيكانا محاولا ألّا أفكر في شيء. مستمتعا بالأبيض الثلجي الذي يغطي العالم. وصوت الصمت الذي يغلف صباحنا المشمس. قادتني تيكانا عبر شوارع وممرات لم تطأها قدماي أبدًا. بالطبع كانت تعرف تمامًا الطريق الذي أخذ في التلوي كأفعى عملاقة مرتفعا بنا بين الجبال. وأمام كوخ خشبي صغير توقفت سيارتنا. نزلت تيكانا من دون أن تبدي لي أي إشارة على ما يجب عليَّ أن أفعله، فتبعتها.

الكوخ على ما يبدو لي معبد لديانة وثنية قديمة تؤمن بها تيكانا. المكان مضاء بالشموع تنبعث منه رائحة البخور. توجد به ثلاثة تماثيل لرجل وسيدة وشاب. جميعهم يحملون ملامح تشبه ملامح هندية كملامح تيكانا، وكأنهم من أفراد أسرتها. تحت قاعدة التماثيل الثلاثة يوجد بقايا عظام بشرية. استطاعت عيني كطبيب أن تميز أنها لأطفال من حجم الجماجم الصغيرة. خلف التماثيل الثلاثة توجد عين ماء يتصاعد البخار منها. توجد أيضًا مائدة صغيرة عليها قطع متساوية من الخبز. بخلاف ذلك يشغل الفراغ الجزء الأكبر من الكوخ الصغير. وأمام التماثيل الثلاثة انحنت تيكانا. واضعة رأسها في اتجاه أرضية الكوخ المغطاة بنبتة صغيرة مزهرة بنوع لا أعرفه من الأزهار. أمام التماثيل الثلاثة غنت تيكانا أغنيتها الحزينة عن الوطن والوحدة والطفلة الصغيرة الضائعة. أغنية إنجليزية لم أسمع أبدًا بكلماتها. أشعرتني بحنين جارف إلى أمي. فبدأت في البكاء وكأنني طفل صغير. متتبعا تيكانا في حركاتها أمام تماثيلها المقدسة. وعندما انتهت تيكانا من الأغنية ارتمت أرضا محتضنة أديمها. فتتبعتها ممسكا بيدي ما استطاعت أن تحمله من تراب الأرض. تاركا دموعي تنهمر فتروي جذوع الأزهار الصغيرة. أشعر

بدفء ينبعث من أرضية الكوخ لا يوصف. أشعر بأن الأرض تحتضنني. أحس بنفس الأمان الذي كنت أشعر به في حضن والدي. الذي لا بد وأن عظامه تحولت إلى رماد مثل هذا الرماد في مقابر أهلي بسيوة.

أعطاني هذا الشعور راحة استطعت معها التخلص من كل ألمي. كأنني أعود بسلام إلى جوهري الأرضي. متحدا مع كل أرواح من سبقوني منذ بدء الخليقة. لألامس لأول مرة معنى السلام الأبدي. أتصل بروح الخالق الذي أراد أن نكون من التراب، لأنه ربما أكثر قيمة من كل المعادن التي تخيلنا أنها نفيسة. مجرد ارتمائي على الأرض كان كأنه عودة حقيقية لسلام حياتي السعيدة في رحم أمي. وفي غمرة هذا الأمان. أصبح جسدي يزيد من التحامه بالأرض. كأنه باستطاعتي الذوبان كلية فيها. متمنيا التحول إلى مجرد نبتة صغيرة تحمل زهرة لا أعرفها. كان من الممكن أن أمكث هكذا لسنوات. لا يهمني أن أعرف عددها. لولا يد تيكانا التي أيقظتني من حلم سلامي الذي بلا حدود. لتذكرني بوجودها وبكينونتي البشرية المريعة. فقمت من على الأرض تاركا فيها كل أحزاني التي أحملها كجلدي الأشبه بغلالة تحرمني دائمًا من تحقق سعادتي الكاملة. تيكانا التي أصبحت أكثر شبابا وحيوية بعد أن قامت من احتضانها للأرض. خلعت ملابسها كلية وأومأت لي بأن أتتبعها. هالني أن أرى تيكانا عارية. كان جسدها شفافا كأنها قنديل بحر. ملامح وجهها ما زالت تحتوي أخاديد وجهها العجوز. لكنها فاتنة بشكل لا يوصف رغم كل شيء. وبهدوء تتبعت انزلاق جسدها الخفيف في عين الماء الساخنة. خلعت ملابسي من دون أن أنظر إلى جسدي، خوفا من أن أكون قد أصبحت شفافا مثلها. الماء ساخن جدًّا تفوح منه رائحة النرجس البري. وبسبب ضيق مساحة عين الماء كان

لا بد أن ألامس جسد تيكانا. بعد أن أفسحت لي مكانا صغيرا مبتسمة لأول مرة منذ خروجنا من منزلها. لتيكانا ثديان صغيران ما زالا يحتفظان بحلمتين ورديتين طازجتين رغم عمرها المديد. شعرها الطويل الأبيض ينسدل برقة فوق كتفها النحيل ليطفو فوق ماء النبع. شعر عانتها أبيض يتصاعد كدخان بركان، يحمل سحر المكان الأكثر سرية في جسد كل النساء. ومع ذلك لم أشعر بأنني في حضرة أنثى جميلة رغم عمرها المديد. كان الشعور الذي يتملكني هو أنني في حضرة معجزة الجسد البشري الخام. جسدي أيضًا لم يكن جسد ذكر رغم كل التفاصيل التي لا طائل من وصفها. كنت أنا وتيكانا متساويين للأبد. مجرد صورة مختلفة للتراب الذي كنا نائمين عليه. تراب متحول إلى عضلات وعظام يحاول الارتواء بماء النبع الساخن. ربما ينبت فوق جلدنا نفس النبتة الصغيرة التي تغطي أرضية الكوخ. نبتة الأمان وبداية الخلق. عندئذ ابتسمت لتيكانا شاكرا لها كل شيء.

* * *

عدت سعيدا من زيارتي لتيكانا. لأجد طردا صغيرا ينتظرني على مدخل شقتي. كان ذلك غريبا قليلًا. فعادة ما يضع ساعي البريد الخطابات والطرود في صندوقي الخاص في مدخل العمارة. فسرت الموقف على أن المظروف الضخم ربما أستلمه عن طريق الخطأ أحد جيراني. فوضعه أمام باب شقتي عندما سنحت له الفرصة. نزعت معطفي الشتوي وألقيت بمفاتيح المنزل على الطاولة قبل أن أهم بفتح المغلف. داخل الطرد وجدت نسخة شديدة الإتقان للوحة «إصرار الذاكرة» لسلفادور دالي ومفتاحا وحيدا بلا أي تفاصيل أخرى. كنت من أشد المعجبين بفن دالي، وهذه اللوحة تحديدا. بحثت عن أي إشارة لمرسل هذه الهدية القيمة. فلم أجد سوى كارت محل الأزهار الذي تعمل به كارما. بحثت عن تفسير لأي باب هذا المفتاح دون أن أصل إلى نتيجة.

لكن لماذا أرسلت لي كارما هذه اللوحة وهذا المفتاح؟ كنت قد شاهدت هذه اللوحة عدة مرات في رحلاتي المتكررة لمتحف الفن الحديث بنيويورك. رفعت إحدى اللوحات من على حائط شقتي ووضعت مكانها لوحة إصرار الذاكرة. سحبت مقعدا خشبيا وجلست أتأمل اللوحة الرائعة. رسم سلفادور دالي هذه اللوحة عام ١٩٣١، كان عمره وقتها سبعة وعشرين عاما. اللوحة تحتوي على ثلاث ساعات منصهرة لا يمكن تقريبا تحديد الوقت فيها. كأن الوقت نفسه يذيبها

بمروره عبر أجسادها المعدنية. أما ساعة الجيب الوحيدة التي تحافظ على هيكلها متكاملا. فمنغلقة على نفسها. كأنها بتخبئتها لعقاربها تحافظ على نفسها من مرور الزمن بها وتفسخها. بخلاف ذلك، خلفية اللوحة ترمز لخليج كروز ببرشلونة مسقط رأس دالي. ولا تظهر سوى موت تام. عاودت التأمل في اللوحة. محاولا أن أستوضح مقصد كارما بإرسال هذه اللوحة لي. هناك رسالة ما تحاول أن تخبرني بها كارما أهم من أن الوقت يجري وأنه يجب علينا أن نجد ابنتها مود على وجه السرعة. ربما السر لا يكمن في اللوحة نفسها بقدر اسمها «إصرار الذاكرة». ترى لماذا اختار دالي هذا الاسم الغريب للوحة لا تعبر إلا عن الفناء؟ كان دالي مهموما دوما بفكرة خلوده الشخصي. لكننا لو أخذنا في الحسبان أن دالي رسم هذه اللوحة وهو في ريعان شبابه. بعيدا عن هاجس الموت الذي يصيب عادة الأشخاص الأكبر سنا، ربما أدركنا أن انصهار الوقت لا يؤدي إلا لإعادة تكوينه. فالانصهار لا يؤدي أبدًا إلى فناء المادة الخام. لكنه يعيد تشكيلها. تمامًا كالوشم الذي لا يفني الجلد ولكن يعيد تشكيله برسم مختلف. تبقى إذًا ذاكرتنا التي تصهر الوقت. محتفظة لنفسها دائمًا بمادته الخام. ذكرياتنا عن الوقت نفسه الذي ينتهي بفنائه الذاتي. الآن فهمت لماذا أرسلت لي كارما هديتها الجميلة. لكن ماذا عن المفتاح؟

كارما الرجل الأنثى الذي اختبر الحياة بكل جنونها، تراهن على أنني أستطيع التذكر والوصول بقصة چون سبيستيان أندريه إلى نهايتها. فقط بمجرد تذكر تفصيلاتها التي لا بد أن ذاكرتي تحتفظ بمادتها الخام.

رغم أن هذا التحليل الصعب فلسفي أكثر من اللازم. فإنه استطاع انتزاع ابتسامة مني. متذكرا نظرة الذكاء الحادة التي تشع من عيني كارما

المختلفة دوما. كنت فرحا باللوحة التي أهديت لي. سعيدا بأنني أخيرا استطعت التعرف على أشخاص بذكاء وود كارما وتيكانا بعد هذه الأيام الصعبة. متحضرا لأيام عمل لن تكون أكثر سهولة، خصوصا في وجود مريض مثل چون سبيستيان أندريه في عيادتي.

كان انقطاع أخبار كارما ومود بيير عني لا يعني سوى أنه لا أخبار سيئة في الأفق. وأن كارما عندما تركتني في بيت تيكانا لأول مرة، قد استطاعت فعلا الوصول إلى ابنتها، التي أصبحت في أمان.

كل ذلك ضاعف لديّ الشعور بالسعادة الذي اكتسبته من تجربتي الروحانية مع تيكانا. فحضرت وجبة فخمة تناسب مزاجي المبتهج. وبدأت مشاهدة أحد الأفلام المصرية القديمة التي أحبها. ممنيا نفسي بنوم هادئ. إلى أن استقبلت مكالمة تليفونية على هاتفي الجوال من كارما تخبرني بأن الشرطة وجدت جثة لشابة تنطبق عليها أوصاف مود بيير ابنتها. وأنها ذاهبة لمعاينتها وتريد أن أكون معها. ساعتها شعرت أن العالم كله ينهار فوق رأسي. ولم يكن بالطبع من الممكن السؤال عن هديتها والمفتاح العجيب الذي لا أعلم لأي باب هو.

* * *

لم أذهب لمقابلة كارما. وانتهى بأسرع مما تخيلت كابوس أن أكتشف معها جثة مود الغائبة. ببساطة لأنني وجدت مود بيير متكومة على نفسها جالسة تنتظر عودتي أمام باب شقتي. توقعت أيضًا أنها قدمت للتو. لأنني لم أرها أثناء دخولي. كان من الممكن أن أتخطاها دون أن أميزها أثناء خروجي السريع متجها للمصعد. لولا ذلك الأنين المكتوم الذي صدر عنها في محاولة للفت انتباهي إليها. حملتها بصعوبة محاولا تجنب ملامسة وشم الأفعى البيضاء الذي ما زال ملتهبا. كانت مود ضعيفة جدًّا. بمجرد حملي لها وضعت رأسها على صدري كطفلة صغيرة وكفت عن الأنين.

جسد مود ليِّن كقطعة ممتعة من الصلصال الحي. لها رائحة حليب الأطفال المميزة للأجنة حديثي الولادة. ممتزجة برائحة أنثى ناضجة تعرف جيدا كيف تخترع عطور أنوثتها. وأنا الذي لم أعرف عن نفسي أبدًا رغبة جنسية خاصة نحو النساء في حالة ضعفهن. شعرت بالحرارة تغزو جسدي. وشعرت بتوتر ذكورتي المفاجئ. لكن كل شيء انتهى بسرعة كما بدأ. فما أن أجلست مود على الأريكة الجلدية المريحة. حتى تحول لونها إلى اللون الأزرق. فركت عيني بسرعة وعاودت النظر إلى مود وأريكتها. كانت فعلا الأريكة هي الوحيدة بهذا اللون الأزرق الفيروزي في وسط الصالون. الذي يتكون من ثلاثة مقاعد جلدية سوداء. بخلاف الأريكة التي كانت سوداء أيضًا. أفزعني ذلك

بشدة. كان اللون الأزرق ينساب من قدمي مود بيير ويغرق شقتي. كأن قدميها أصبحتا صنبور ماء مفتوح ينهمر منه الأزرق. الذي يبلل السجاد ويزحف على بقية الأثاث ليلتهمه. انتابني الرعب من الأزرق الذي يفيض على كل شيء حتى كاد أن يلامس قدمي. فالتصقت بالحائط لأحافظ على نفسي من البلل الأزرق. لتصطدم عيناي بلوحة إصرار الذاكرة التي أهدتها لي كارما. فأرى الساعات المنصهرة تعوم طافية على وجه صفحة من مياه المحيط الزرقاء أيضًا. أشعر بالدنيا تدور بي. وبأني أرى خيالات وهلاوس. فأسقط أرضا في إغماءة طويلة.

في هلاوس إغماءتي، كنت أنا ومود بيير نجلس سويا في عين الماء التي جمعتني سابقا بتيكانا. كنا عرايا كما كنت أنا وتيكانا. دون أن يشغلني شغفي بجسدها الذي أعتقد أنني أصبحت أعشقه. كنت منهمكا في تتبع سريان الدماء في دورتها الدموية. جسد مود مليء بالتفاصيل الدقيقة. قلبها المخروطي ينبض بتحد ويدعوني لملامسته. أمد يدي مترددا. أخترق بأصابعي الغلاف الشفاف من عضلات وعظام وأمسكه في يدي. يستمر انقباضه الذي يدغدغني فأبتسم. تركت قلبها مكانه مستجيبا لفكرة مجنونة لم أستطع مقاومتها. فكرة أنني أستطيع ارتداء ذلك الجسد الفاتن كعباءة. وكأن مود الجميلة كانت تقرأ أفكاري. اقتربت مني وألقت بجسدها عليّ. فأختفي داخل جسدها الذي أصبح جسدي. أنظر لصورتي في صفحة الماء أطالع وجه مود مبتسما. أحرك يدي فتتحرك يد مود الشهية بخاتمها الذهبي الذي على شكل وردة أقحوان كبيرة. عندها أخرج من النبع وأذهب إلى تماثيل الآلهة الثلاثة فأطيح بهم أرضا. بعد أن تغيرت أشكالهم تماما. لتصبح صورهم في هيئة ملكة إنجلترا وكندا إيزابيل الثانية، وصورة رئيس وزراء كندا

المحافظ ـ الحاكم الفعلي للبلاد، أما التمثال الثالث فكان لرئيسة وزراء كيبك عن الحزب الكيبكي المحافظ أيضًا.

أجمع عظام الأطفال الملقاة عند أقدامهم. وأعيد تشكيل العظام بخبرتي كطبيب منتظرا عودتهم للحياة. الأطفال الطيبون لا يتأخرون كثيرًا عن تلبية أملي. طفلان شقيان ومراهقة من حضارة الأنكا. ربما هي نفسها المراهقة التي شاهدتها في فيلم الناشونال جيوجرفي المسكينة. تجلس بجواري تمشط شعرها. بينما الطفلان يتصايحان ويلهوان في نبع الماء فرحين بعودتهما إلى الحياة. تشكو لي الفتاة شقاوتهما التي أتعبتها. تحكي لي أيضًا بصوت هامس عن أنها تتعاطف أحيانًا معهما، لأنهما لا يعلمان القدر القاسي الذي ينتظرهم جميعا. تشكرني على أنني أعدتها للحياة لهذه اللحظات الثمينة. وقبل أن تنتهي من كلامها تطلب مني أن أحتضنها كي تشعر بالدفء والأمان. لأنهم تركوها وحيدة تموت متجمدة هناك فوق الجبل البعيد من أجل آلهة لم تجدها أبدًا. وعندما أحتضنها بشدة تهمس في أذني بالكلمة التي انتظرت أن أسمعها طويلا: «حياتك التي تبحثين عنها ستجدينها في رسالة مطولة كتبها أب محب لابنه المهاجر. النجاة في العودة إلى الجذور يا من تسكن هذا الجسد الفاتن».

* * *

صوت المنبه كان يرن من فترة. أغلقت صوته المزعج بخبطة على زر التنبيه. كانت كافية لأن تسقط المنبه أرضا. فتناولته من على الأرض بينما رأسي يسحقها صداع فظيع. لأكتشف المفاجأة المرعبة. إنها الحادية عشرة صباحا، وإننا يوم الأربعاء. ليس لهذا سوى معنى واحد فقط. هو أنني تأخرت عن موعد الجلسة العلمية للقسم بالمستشفى. كنت أرتدي ملابسي التي نمت بها. نظرت سريعا إلى وجهي في المرآة. لأكتشف المفاجأة الأهم. مود بيير تنام في سريري. تذكرت إذًا أحداث الليلة الماضية وهلوساتي العجيبة. فاستدرت إلى مود التي لم تشعر بي ولم يزعجها ضجيج المنبه في نومها العجيب. فأحكمت وضع الغطاء عليها من دون أن أمنع نفسي من طبع قبلة سريعة على خدها الشهي. قبل أن أخرج كالمجنون أقود سيارتي إلى قاعة الاجتماعات بالمستشفى.

دخلت إلى القاعة كلص يحاول تجنب لفت الانتباه إليه. لكن حظي العاثر لم يسمح لي إلا بالجلوس بجوار رئيس القسم في المقعد الوحيد الشاغر بالقاعة. فهمس في أذني بتهكم بتحية الصباح بعد أن نظر في ساعته. كانوا يعرضون محاضرة علمية للدكتور بريس جريسون. وهو طبيب نفسي شهير وأستاذ الطب النفسي والدراسات المختصة بعلم النفس العصبي السلوكي بجامعة فرجينيا. بالتأكيد أعرف الرجل صاحب مئات الأبحاث العلمية المرموقة. خصوصا في مجال تسجيل خبرات الأشخاص العائدين من الموت. بعد توقف الوظائف الحيوية للمخ

والقلب للحظات. لكن المفاجأة (في هذا اليوم المليء بالمفاجأت) كان هو عنوان المحاضرة:

«Does Consciousness need a Brain? Evidence for Reincarnation»

وهو ما معناه بالترجمة العربية «هل يحتاج الوعي إلى المخ؟ الدليل على تناسخ الأرواح».

تتناول المحاضرة العلمية(*)، وتحديدا من الدقيقة الخمسين من المحاضرة المسجلة، حالات أطفال يستحضرون بشكل كامل حيوات أشخاص قد قضوا من سنوات طويلة ماضية. ليؤكد الدكتور جريسون بأن لهؤلاء الأطفال القدرة على استدعاء كل الأحداث المهمة في حياة شخص متوفى بداية من اسمه، أصدقائه، ممتلكاته، عاداته. والأهم وصف بدقة متناهية تفاصيل لحظة الوفاة التي وصلت في ٦٠٪ من الحالات إلى الموت بشكل عنيف كالقتل. موضحا أن هؤلاء الأطفال يخافون من إعادة تجارب موتهم المريرة. فعلى سبيل المثال، الطفل الذي يتذكر حياة شخص مات حرقا بالزيت يخاف من الماء. بعضهم يمتلك مهارات خاصة من حياتهم السابقة كالعزف على آلات موسيقية لم يتعلمها أبدًا. أو كالقيام بالترجمة إلى لغات لم يتعلمها. الأغرب أن بعضهم يولد بتشوهات جسدية حدثت أثناء موت الشخص المتوفى كحد السكين أو ضربة البلطة. مؤكدا على دراسة عدد من الحالات وصل إلى ٢٤١٦ حالة مشابهة.

(*) توجد المحاضرة بالكامل مسجلة على موقع اليوتيوب بالرابط التالي:

https / /:www.youtube.com /watch?v=yosn_GHYiR4.

ورغم أن معظم هذه الحالات سجلت في بلاد تسود فيها العقائد الدينية التي قد يؤمن معتنقوها بفكرة تناسخ الأرواح، فإن كثيرا من الحالات سجلت أيضًا في أوربا وأمريكا. ليسرد بالكثير من التفاصيل قصة الطفل الأمريكي جيمس ليننجر من لويزيانا.

فعندما كان عمر جيمس ليننجر عامين، أصابته كوابيس شعر خلالها بإسقاط طائرته فوق هيروشيما. يتحدث بمواصفات طائرته الحربية التي تسقط في الحرب بدقة يستحيل لطفل في عمره معرفتها. في سن الثالثة أخبر أمه باسم صديقه الطيار جاك لارسون الذي كان أقرب أصدقائه. وبتفاصيل تقنية أكثر تعقيدا عن الطائرات المستخدمة في الحرب العالمية الثانية. بالطبع والد ليننجر ـ الشرطي المسيحي والذي لا يؤمن أبدًا بفكرة تناسخ الأرواح أو إعادة الميلاد ـ رفض الفكرة برمتها. فبحث عبر الإنترنت عن وقائع مشابهة لرواية ابنه، ليجد قصة شبيهة لطيار اسمه توني باي قتل عام ١٩٤٥ في هيروشيما. وهو الطيار الأمريكي الوحيد الذي تم إسقاط طائرته بهذه الطريقة. وبعد كثير من البحث استطاع والد الطفل التوصل إلى أخت الطيار القتيل في كالفورنيا. لتكون المفاجأة بتأكيد الطفل على أن السيدة السبعينية التي قابلتهم كانت أخته في حياته السابقة. وقدرته على التعرف بدقة على كل متعلقات الطيار القتيل والتي احتفظت بها الأخت. هي بدورها، آمنت بأن روح هذا الطفل لا بد أنها روح أخيها.

انتهت المحاضرة الشائقة والمرعبة أيضًا لي، لتضاء أنوار القاعة. فيسألني رئيس القسم (ربما ليعاقبني أو ليعتذر عن حركته السخيفة في استقبالي):

ـ دكتور المدني ما تقييمك العلمي لطرح البروفسير بريس جريسون؟

لأرد عليه بعد فترة صمت:

ـ لا أعلم. شيء محير للغاية. يبدو أنه في هذا العالم المجنون من الممكن أن يحدث كل شيء. معذرة أشعر بأنني مرهق للغاية وأحتاج إلى الانصراف.

* * *

في طريق عودتي إلى البيت، كنت ما زلت أفكر فيما حدث لي مع مود بيير الليلة السابقة. محاولا نسيان الحقائق العلمية التي ذكرها الدكتور بريس جريسون. كان هناك كثير من التساؤلات تشغل بالي بلا تفسير واضح. وبدلا من أن أسلك الطريق إلى بيتي. اكتشفت أن السيارة تقودني إلى بيت تيكانا العجوز. نتف الثلج تتساقط على زجاج سيارتي هشة ورقيقة. كروح مهاجر يحاول أن يثبت أقدامه في بلد مهجره الجديد. ومع ذلك تسحقها بنعومة واحترافية ممسحة الزجاج لتجعل رؤيتي أكثر وضوحا. وتحميني من حادثة طريق محتملة. لا أعلم هل يجب عليّ أن أشكر نتف الثلج المبهجة التي تشبهني، أم يجب عليّ أكثر شكر الممسحة الكاوتشية التي تعيد رؤيتي إلى حقيقة الواقع الآمنة؟

كالعادة كان بيت تيكانا يربض في سلامه الأبدي. كأنه بقعة حالمة خارجة من حدود عالمنا الذي نعيشه. سيارة تيكانا في مكانها خارج المنزل. يحيطها الثلج الكثيف الذي تساقط طوال ليلتنا الماضية. باب البيت غير موصد كالعادة أيضًا. كل شيء حاضر لاستقبالي. سجائر المريجوانا، مشروب تيكانا العطري مصبوب في كوبه ساخنا. وموسيقى الشعب الأصلي لكندا تدور في الجاريمفون العتيق. لكن كل ذلك بلا

وجود فعلي لتيكانا. قررت الجلوس وانتظارها متوقعا عودتها سريعا. ربما تكون في زيارة قريبة لأحد الجيران. بدأت في التدخين واحتساء شرابي. مستحضرا في ذاكرتي كل ما حدث لي خلال زيارة مود بيير الغريبة الليلة الماضية. وبدون أن أدري كيف حدث لي ذلك. شعرت بأن روحي تنسحب إلى عوالم حياتها السابقة. فلم أبد مقاومة حقيقية. متشبثا بالحفاظ على كلمة السر التي أهدتها لي المراهقة المتجمدة فوق جبال الأنديز. متذكرا أن روحي تحتفظ بخلاصة ذكرياتها. رغم أن وقتي قد انصهر إلى الفناء. كما أرادت كارما أن تخبرني عندما أهدتني لوحة إصرار الذاكرة لدالي. فبقيت أردد أمام دائرة الأبواب التي تنتهي كل منها بحياة ربما عشت إحداها سابقا.. النجاة في العودة إلى الجذور.

فجأة انفتح لروحي ما كنت أبحث عنه. لأكتشف أنني لم أمت بعد، كنت ببساطة أرى نفسي الآن. جالسا في بيت تيكانا أدخن وأستمع للموسيقى. كأنني شخص آخر يشاهدني. يمر أمامي شريط روحي سريعا. تتعاقب فيه صور لم أرغب أبدًا أن ألتقطها لنفسي. صور خزيي الشخصي لعدم رضاي الدائم عن الشخص الذي أكونه. حمقي البشري الذي أحاول التخلص منه. كذبي وادعائي الدائم بأني الأفضل. فجأة يتوقف تعاقب الصور المجنون. أشاهدني طفلا صغيرا يختبئ تحت فراغ مكتب حجرتي في بيت والدي كما اعتدت. جالسا في هدوء الظلام الليلي. ساقطا في عالم تخيلاتي. يظهر لي چون سبيستيان أندريه كطفل شرير، بنفس ملامح رجولته ووشم أفعاه المخيف. يدعوني للعبة كرة الموت التي داوم عليها شعب الأنكا، كي يحصلوا على قربان بشري يتم التضحية به من أجل آلهة استحالت في صور لمدن براقة شبيهة بمدينتي الحالية مونتريال. وأناس يتحدثون اللغتين الفرنسية والإنجليزية. وسط

ميدان واسع تجمع الكهنة والجمهور الذي استطعت أن أميز من بينه تيكانا ومود بيير وكارما قبل أن يغير جنسه. شاهدت أيضًا زوجته مريام التي تحكم شعبا معمرا لا يعرف المرض. يزاحم الجمهور أبي وأمي ومدير المستشفى التي أعمل بها، والعشرات من أصدقائي في المنصورة وكندا. الجميع يتصايح منتظرا نتيجة مبارزتي مع چون سبيستيان، متوقعا الإطاحة برأس أحدنا. دارت الكرة القاسية بين أقدامنا. نتبادل إرسالها بعنف وتحد. كأننا نركل خوفنا الذي يمزقنا. لا بد لواحد منا أن يموت كي يعيش العالم. فتبتهج بموته آلهة المدن الخضراء التي تصنع النظام والصرامة في عالمي الجديد الذي أسعى لرضاه. كنا متضادين في كل شيء. حاضر وماض، كندي ومهاجر. رجل أسطورة، وطبيب مهووس بالعلم. في كل ركلة صائبة أوجهها لچون سبيستيان، يكبر جسدي ويكبر معه خوفي من أن أخسر اللعبة. لم يعد هاجسي هو الهرب من الموت بسحق رأسي. أصبح همي الفوز فقط ولا شيء سواه. منتظرا صيحات الإعجاب وأصوات التصفيق لمهارتي. بينما آلهة المدن الخضراء تتابع الأمر. وكأنه لا يعنيها. فدائما هناك خاسر ستستقبل دماء قربانه بتعفف. مؤكدة أن رضاها لن يكون إلا بدماء الضحية القادمة. ومع استمرار الركلات تعبت وتعب چون سبيستيان أندريه الذي بدأت الدموع تتساقط من عيون أفعتي الكوبرا. ليركل الكرة بعيدا في وجه الآلهة، التي غضبت غضبا شديدا فقررت معاقبتنا معا. ساعتها جلست على ركبتي منتظرا دوري في أن يطيح الكاهن برأسي. بجواري جلس چون سبيستيان مبتسما ليشكرني على تحريري لروحه هذه المرة أيضًا. أشاهد على جسدي وجسده وشم أفعى بيضاء كوشم مود بيير. أطالع الجمهور فأراهم جميعا يحملون نفس الوشم. بينما

آلهة المدن الخضراء تواصل تذمرها صائحة: أي شعب من العبيد هذا الذي لا يحمد جمال صنعتنا. عندها تطيح عصا الكاهن برأس چون سبيستيان أندريه فأصرخ. الدماء تغطي وجهي. أستمر في الصراخ. الدماء تحجب رؤيتي. الدماء تدخل في حلقي. الدماء تغطيني. تسد حلقي. لكني لا أملك إلا الصراخ.

أفقت وحيدا هذه المرة. بلا مساعدة من تيكانا التي لم تحضر. لكن عوضا عنها اكتشفت رسالتها التي تركتها أمامي مباشرة مكتوبا عليها اسمي في مظروف صغير. رسالة تيكانا كانت مركزة كعادة حديثها:

«أشرف.. غريب أمرك. تحاول العودة إلى البحث عما كنته من دون أن تستمع إلى نصيحة فتاة الأنكا، التي عادت خصيصا إلى هذه الحياة كي تخبرك بما عليك فعله. لم تقرأ رسالة والدك الذي حاول أن يخبرك بقدرك. عد إلى بيتك واصحب مود بيير إلى بيت الغابة، ستجد المفتاح مع لوحة إصرار الذاكرة. في ملابس مود ستجد خارطة الطريق إلى وجهتكم أيضًا. إنها مريضة جدًّا. حاول علاجها بكثير من الحب والسعادة. حضرها للرحلة التي يجب أن ترتحل اليها. استمع كثيرًا لصمت الغابة ولقلبك. فهناك قد تجد بداية الطريق الذي تبحث عنه.. إلى أن نلتقي»..

تيكانـا

* * *

في الطريق من بيت تيكانا إلى بيتي. تبلورت الرؤية في ذهني الذي أصبح نشطا بصورة لم أعتدها. استخدمت خبراتي كطبيب لتحليل

رؤياي. بالتأكيد هذه ليست رحلة في الماضي كخبراتي السابقة. هذه أيضًا ليست هلاوس كالتي رأيتها مع مود بيير في شقتي. رؤياي كانت واضحة جدًّا. أنا أسير النظام الصارم الذي أعيش به وأسير خوفي. لي قوة لا تقل أبدًا عن قوة چون سبيستيان أندريه. كلانا خائف وضحية وهم ما. كلانا عبد لأفكاره ومحاولة إرضاء رغبة ذاتية شديدة الأنانية. هو يبحث عن الخلود. وأنا أبحث عن الثناء من مجتمعي الجديد. كخلود من نوع مختلف. ولو حتى خلود لقصة نجاحي بين أهلي في مصر ورؤسائي في كندا. بعدت عن جذوري وتناسيت متعمدا قراءة رسالة أبي التي كتبها خصيصا لي. محاولا الحصول على هوية كندية خالصة. تعاملت بشهوانية مع مود فانطلقت هلاوسي كرد فعل منقذ لما تبقى لي من عقل. لأخلص لنتيجة وحيدة ومهمة.

سأنفذ كل ما طلبته مني تيكانا لأنها الشخص الوحيد القادر على إرشاد روحي لنهاية هذه المتاهة.

* * *

عند عودتي إلى المنزل كانت مود ما زالت نائمة. وباعتياد طبي اختبرت نبضها. كان ضعيفا لكنه منتظم. وضعت بعض الحساء على النار كوجبة سهلة يمكن أن أقدمها لها. وذهبت إلى جهاز الكمبيوتر كي أرسل رسالة لمديري المباشر. سأخبره بضرورة ذهابي في إجازة لمدة أسبوع. لكني قبل طباعة أول حروف الرسالة تذكرت كلام تيكانا عن عنوان بيت الغابة الموجود في ملابس مود. بالفعل كانت هناك خريطة توضح التفاصيل في معطفها الذي تركته على أريكة الصالون. البيت مكانه ليس بعيدا عن قرية صغيرة نائية تبعد مقدار ساعتين شمالي مونتريال بجوار مدينة مونترامبلان. في منطقة يرتادها غالبا هواة رياضة التزلج على الجليد. تقع على الحد الآخر من الغابة التي يتوسطها وحيدا البيت المنشود.

عدت إلى جهاز الكمبيوتر والإيميل الذي حاولت أن أجعله مكتوبا باحترافية يفهمها الكنديون. لذلك، لم أذكر الإرباك الذي انتاب حياتي من ساعة إسناد حالة چون سبيستيان أندريه لي. حتى لا أتهم بالتهرب وعدم المهنية. لكني ذكرت أحقيتي في الإجازات التي لم استخدمها لسنوات. موضحا تمسكي بكل الحالات المرضية التي أباشرها. راجيا من زملائي إعلامي بأي تطورات تستدعي قطع الإجازة وعودتي. واستعدادي لذلك.

ضرب جرس الباب، بعد لحظات من إرسال إيميلي. كانت مفاجأة

أخرى غير سارة. وجدت أمامي الدكتورة هناء محمود زميلتي المصرية بالمستشفى. في البداية اندهشت لكني فجأة انتابتني موجة ضحك غير مفهومة. كان وجهها غاضبا جدًّا بشكل مضحك. ربما هذا هو التفسير الوحيد لردة فعلي التي تخلو من الذوق. هناء زادها ضحكي غضبا فجعلها أكثر إضحاكا. وبعد مجهود تحكمت في نفسي.

ـ أهلا يا هناء اتفضلي.

بكلمات تخرج من بين أسنانها:

ـ آسفة أني طبيت عليك فجأة. لو تحب ممكن أنزل استناك في العربية. ونروح نشرب حاجة في حته. محتاجة أتكلم معاك.

ـ طب بس ادخلي وهنشرب حاجة هنا.

ـ الحقيقة مش متعودة أدخل شقق عزاب، خصوصا لو بأخلاقك. طبعا فاهم قصدي.

أضحكني مجددا كلامها. أعادتني كلمة شقق عزاب هذه إلى سنوات طويلة أيام الجامعة.

ـ شقق عزاب إيه يا هناء، إحنا في كندا. وأنا وأنت عدينا الأربعين.

هناء بعصبيتها المضحكة دخلت قائلة:

ـ لو سمحت اتكلم على نفسك بس. أنت مابتردش على التليفونات ليه؟ حتى المستشفى جيتها متأخر. ولأول مرة في حياتك تمشي من غير ما تشوف حالة واحدة.

ـ مفيش، تعبان شويه ومحتاج أخد إجازة. خير يا هناء في حاجة.

ـ شوف يا أشرف، أنا وأنت ملناش حد هنا. يعني تقريبا احنا عيلة بعض. بالمصادفة قابلت زميلة ليكم في القسم. عرفت منها أنك بتابع حالة المريض بتاع الدكتور نواز أحمد الله يرحمه. فقلت لازم أقعد معاك وأكلمك تسيب حالة المريض المشئوم ده، علشان العيش والملح. كلمتك كام مرة مردتش لا على الموبايل ولا على تليفون البيت. قلقت. قلت أجي أشوفك لتكون أنت كمان انتحرت.

وما أن انتهت هناء من كلامها حتى صرخ جهاز إنذار الحريق من المطبخ. فتذكرت الحساء الذي وضعته على النار لمود. بسرعة عدت إلى المطبخ ورفعت الإناء المتفحم. فتحت النوافذ حتى يخرج الدخان. لأجد هناء تخلع جاكتها ملوحة به في الهواء. كي يتوقف جهاز الإنذار عن ضجيجه. لتقترب بدلال. كتفاها عاريان. تلتصق بي فأشتم رائحة عطرها الأنثوي الفخم رغم الدخان الكثيف.

ـ يعني مش لو كان ربنا هداك مش كنا اتجوزنا بدل بهدلتك دي.

ليحدث الموقف الهزلي المعتاد في الأفلام المصرية.. تدخل مود بيير القادمة من حجرة نومي إلى المطبخ شبه نائمة. مفزوعة من صوت جرس الإنذار. لتنظر لي هناء نظرة احتقار درامية. قبل أن تخرج ساحبة جاكتها بعصبية، فأسمع صوتها وهي تغادر شقتي.

ـ أنت مفيش منك فايدة. أنا آسفه فعلا للحال اللي وصلت له... يا دكتور.

* * *

أشعرني ما حدث لي مع هناء بالحرج. رغم كل شيء، هي صديقة عزيزة أكن لها كثيرا من الاحترام. أسعدني أنها تهتم لأمري بقدر ما أزعجني تدخلها في حياتي. هناء ربما تكون مثالية جدًّا لأي شخص يبحث عن الوصول لشيخوخة هادئة. ستكون بالتأكيد زوجة وأمًّا رائعة. فتاة مصرية أصيلة من هؤلاء اللاتي تربين على الاجتهاد كطريق وحيد ومختصر في الحياة. لا تعرف من متع الحياة سوى متعة النجاح والتفوق. لكن في النهاية كان عليّ أن أمضي في الطريق الذي اخترته بنفسي. أنزلت مود إلى سيارتي متكئة على كتفي. عدت إلى الشقة لآخذ الحقيبتين اللتين أعددتهما للسفر. وضعت في إحداهما ملابس تكفي لي لمدة أسبوع. في الحقيبة الأخرى جمعت كل ما في الشقة من أغذية يمكن أن نقضي بها ليلتنا الأولى، إلى أن أذهب للتبضع من القرية الصغيرة التي تقع على مشارف الغابة. أخرجت رسالة أبي من مخبئها في درج المكتب. نظرت لها طويلا بين يدي. قبلتها فوجدت فيها رائحته. فابتسمت له ومسحت دمعة غالبتني قبل أن أقرأ له الفاتحة. وقبل خروجي تذكرت حالة مود الطبية فعدت إلى صيدلية المنزل وأحضرت كل ما يمكن أن يكون مفيدا.

لم تسألني مود عن وجهتنا. لكنها تمتمت أكثر من مرة بصوت ضعيف بأسفها على دخولها حياتي وإرباكها لي. فمسدت شعرها بحنان أخوي وساعدتها على وضع حزام أمان السيارة بالشكل الذي لا يؤلم

وشمها الملتهب. لكنها بمجرد خروجنا خارج مونتريال واتخاذنا اتجاه الشمال. ابتسمت بعد أن رأت الخريطة التي أتبعها معلقة:

«نحن في طريقنا إلى بيت الغابة، أليس كذلك؟ ما زالت كارما قادرة على رسم خرائط جميلة». لتكمل دون الانتظار لردي. «سأنام قليلًا، أيقظني من فضلك عندما نصل. لكن رجاء لو توقفت لشراء الطعام بالطريق لا تشتر اللحوم لأني نباتية كأمي». قالتها واستندت برأسها على زجاج السيارة الجانبي وأنتظم تنفسها مباشرة في نوم عميق.

الطريق الطويل إلى حيث مدخل الغابة يتلوى بحاراته الأربع. لا أحد يحاول سباقك أو مضايقتك. فقط سيارات تعبرنا بهدوء. كأننا جيران في سرب كبير من الطيور المهاجرة إلى الشمال البارد. نتف الثلج تهبط بوداعة على زجاج السيارة التي أطفأت موسيقاها لتخلد مود للنوم. الأبيض الثلجي يغطي كل الاشجار الصامتة مثلي ومثل مود. الغمام يغطي الطريق فيعطي للضوء بعدا أسطوريا حزينا. تراودني رغبة ملحة لسماع أم كلثوم في عديدها الشجي «وكفاية بقى تعذيب وشقى، ودموع في وداع ودموع في لقى»، لكني احترمت نوم مود فلم أبحث عن السي دي ولم أستمع إلى الأغنية. لكنها تترد في عقلي بتكرار مذهل. فأشعر بوحدة وشجن لا يمكن وصفهما. لكني مع ذلك مستمتع بهما جدًّا. كجرح يحاول الالتئام تصيب حكته باللذة.

أشرد بذهني مع الطريق الطويل الهادئ متسائلا: لماذا تتعذب أرواحنا بالحنين إلى الماضي؟ هل لأن الحياة قصيرة جدًّا. أم لأن فتنة الذي كان ربما أروع من الأمل في الذي سيكون؟ يحارب الإنسان حياته كلها هربا من الوحدة. رغم أنها الحدث الأصيل في وجودنا البشري.

نأتي فردا ونرتحل إلى الموت فردا. لنبدأ بين الميلاد والممات رحلة البحث عن ملح المؤانسة. الذي بدونه تكون الحياة بلا طعم. نصادق، نحب، نصنع أسرة، ننجب الأولاد ونتعذب بمحبتهم. نكون جماعات تشاركنا ما يشغلنا. لكننا دائمًا نظل منفردين رغم كل ما نحاول صنعه من ضجيج في حياتنا القصيرة. لنكتشف بمرور الوقت أن الماضي وذكرياته هما ظلنا الخالد في وحدتنا. الجميع في لحظة مريرة سيرحلون ويتركونك تجتر ذكرياتك معهم. ليرحلوا هم أيضًا في طريق وحدتهم وذكرياتهم. البشر تعساء جدًّا لأنهم لا يملكون سوى الذاكرة والوحدة وجنون الدوران الدائم في متاهة البحث عن المؤانسة. كثيرًا ما أحسد مرضى التوحد. ربما لأنهم الأصدق في رؤية العالم على حقيقته. بلا ضجيج تخبرهم عقولهم ـ التي نصفها لسذاجتنا بالمريضة ـ بأنه ليس هناك من يحتاجونه سوى أنفسهم فقط. لتبدأ رحلتهم الأهم إلى الداخل. فيصلوا سريعا إلى جوهر الحقيقة. ربما أسرع من العجائز أنفسهم بعد عمر طويل لا يسمح لهم بالوقوف مرة واحدة.. مرة واحدة فقط. للنظر إلى الداخل.

علامات الطريق تشير بأنه في المخرج القادم على الطريق السريع محطة بنزين ومتجر صغير للهدايا والأطعمة. فأقرر العروج إلى المتجر. ربما أجد ما طلبته مود للغذاء وأشتري قهوة تهب عقلي اليقظة. على باب المتجر تلفحني البرودة التي تعيدني إلى واقعي المحير. رجل يرتحل إلى المجهول بصحبة فاتنة مريضة. لا تنتمي إلّا لعالم الأساطير. أتجاوز سريعا الشحاذة التي ترتدي معطفا أغلى من معطفي بمرات. تمد يدها بكوب قهوة فارغ طالبة المساعدة. لكنها رغم البؤس البادي تنتزع ابتسامة. متمنية يوما سعيدا لشبحي الذي لم يلتفت لها هربا من البرد.

في داخل المحل تقابلني زينات أعياد الميلاد وشجرة الكريسماس التي اقتلعوها من الغابة لتمثل دور المهرج صانع البهجة. أغاني الكريسماس تصدح من سماعات معلقة في جهات المتجر الأربع. متمنية الحياة لرياح الشتاء وللميلاد المجيد. أختطف سريعا خس الأيس بيرج وأكياس الجزر القزم وبضع حبات من الطماطم. لأقف مع المسافرين الآخرين في طابور الحساب. أمامي طفل صغير يحاول فتح كيس من الحلوى لكنه لا يستطيع. بينما أمه مشغولة بمحاسبة الفتاة الحسناء التي ترتدي قبعة بابا نويل. أميل على الطفل الذي يحاول فتح كيس حلواه، فأفتحه له. يأخذه من يدي ويخرج الحلوى. وعندما تلاحظنا أمه تبتسم. وتسأل الطفل: ماذا يجب أن تقول؟ فينظر لي الصغير قائلا: «شكرا». تكرر الأم شكرها وتعاود الابتسام. فأبتسم. أضع مشترياتي أمام البائعة التي تردد كلمة «صباح الخير» بميكانيكية آلة ناطقة وتبلغني بالحساب. أطلب منها كوبين من القهوة بلا حليب أو سكر. وأخرج حاملا مشترواتي والقهوة.

كانت السيدة ما زالت تقف خارج المتجر متمنية الصباحات السعيدة للمارة بلا استجابة. فأقدم لها كوب قهوة ربما يساعدها على احتمال البرودة القارصة. أضع أيضًا ما تبقى من نقود معدنية في كوبها الفارغ. فتبتسم وتشكرني. فأسمعها تهمهم خلفي لنفسها:

«أحتاج إلى أن أتحدث فقط».

* * *

عدت إلى السيارة فوجدت مود بيير تستمع إلى جمالات شيحة. «سبع سنين السنة دي وأنا بطبطب وأدادي، شمت فيَّ الأعادي، ياما دجت على الراس طبول». ضحكت من توقيت سماعي للأغنية ومن مود لأنها استطاعت أن تجد السي دي المختفي في السيارة من شهور. يبدو أن الموسيقى الشعبية أعجبتها لدرجة أنها كانت ترقص رغم آلامها، لتسألني عن المطرب صاحب الصوت الحي. وعندما أخبرتها بأنها جمالات شيحة أحد أشهر المطربات المصريات الشعبيات. علقت بأنه لا بد أنها سيدة لها روح فاتنة. بالتأكيد كان من المستحيل ترجمة كلمات الأغنية لأنها بعيدة عن المفهوم الكندي للغة. فألفت كلمات عن المحن والأمل تحمل مضمون الأغنية. غيرت إيقاع الرحلة الموسيقى، وتحسنت حالة مود التي تبدو أكثر نضارة بعد ساعات طويلة من النوم. لتختفي مسحة الشجن التي ألقتها عليّ متسولة متجر القهوة والخضراوات. لنكتشف بعد فترة أننا فعلا نبتعد عن المدنية وننحرف إلى طريق صغير متعرج يصعد الغابة. في البداية كنت شديد الحذر خصوصا مع وجود كل هذه الثلوج في الطريق. لكن إطارات السيارة التي صُممت خصيصا لهذا الجو العصيب، ساعدتنا على الوصول بأمان إلى النقطة التي يستحيل بعدها السير بالسيارة. ليظهر البيت أمام أعيننا على مسافة دقائق مشيا بين الأشجار. بيت صغير تكاد ثلوج الشتاء المتراكمة أن تخفيه. فلا يظهر منه سوى نصف نوافذه.

بمجرد إطفاء محرك السيارة هجم علينا الهدوء المرعب. للهواء أيضًا رائحة الصمت.. (وهل للصمت رائحة؟ لا أعلم، لكن الذي قفز في رأسي حالا هو أن هذه الرائحة التي تجمع النداوة والبرودة ورائحة الغصون المتجمدة هي رائحة الصمت ولا شيء سواه). هواء الغابة الجبلي الذي أصاب قلبي بالانقباض. حوَّل مود التي نزلت من بيتي محمولة، إلى طفلة تقفز بين الأشجار في الممر الملتوي. تسبقني لتتركني أحمل الحقيبتين وحقيبة الخضراوات وأصعد خلفها لاهثا. فتُجمد البرودة رئتي. تبدأ بإزاحة الثلوج بيديها العاريتين من أمام الباب. وتسألني بفرح عن المفتاح.

البيت من الداخل يصلح كمنزل صيفي لشخص يهوى العزلة بامتياز. كان هذا هو انطباعي الأول عن المكان بعد أن أضاءت مود الشموع التي تحفظ مكانها. فالبيت الذي لا تصله الكهرباء، يضاء فقط عبر مولد صغير يعمل بالكيروسين. لكن خبرة الشخص الذي أعد توزيع الشموع في البيت سمحت بإضاءته بشكل رائع. البيت مجرد حجرة واحدة وغرفة استقبال تحتوي على المطبخ والحمام الصغير. رغم صغر حجم البيت، يبدو كمتحف مدهش للمشغولات الإفريقية التي جمعتها أم مود لسنوات قبل اختفائها المفاجئ. كثير من الوجوه الإفريقية على الحائط وعشرات التماثيل الصغيرة في كل مكان. مكتب صغير في الزاوية عليه صورة قديمة لمود وأسرتها. مكتبة عامرة بعشرات الكتب. أريكة يمكن تحويلها لسرير بجوارها جهاز راديو عتيق وطبلة إفريقية كبيرة. في المطبخ، طاولة صغيرة حولها ثلاثة كراسي فقط بعدد أفراد أسرة مود، وموقد صغير يعمل بالغاز. بحجرة النوم سرير صغير يتسع لشخصين. فوقه نسخة كبيرة من لوحة الصراخ الشهيرة لإدفارد مونك. هذا هو كل شيء.

أشارت لي مود التي ارتمت على الأريكة من التعب إلى المدفئة الصغيرة التي لم تميزها عيناي اللتان مسحتا المكان. فأشعلت اللهب في الخشب المعد مسبقا لقدوم زوار البيت في الشتاء. ليبدأ الدفء في طرد برودة البيت الحبيسة لشهور. جلست إلى جوار مود التي جعلتها انعكاسات أضواء الشموع أكثر جمالا. أسأل نفسي لأول مرة، وكأني أفقت من حلم طويل جنوني ابتدأ في بيت تيكانا وانتهى في بيت معزول في غابة فوق الجبل.. وماذا بعد؟

يبدو أن مود أدركت شرودي فربتت على كتفي لتخبرني بأنه يجب علينا إعمال مولد الكهرباء لتدفئة الجو وتسخين المياه التي في خزان مدفون تحت الأرض. يتحتم أيضًا ترك المياه تجري في الأنابيب حتى يزول السائل المانع للتجمد. والذي بفضله لا تنفجر أنابيب المياه من شدة البرودة. وكطفلة صغيرة مستبدة ومحببة. أمرتني أيضًا أن أخرج إلى خارج البيت لأحضر الحطب المغطي للمدفأة. وستتولى هي تحضير العشاء. دون أن أجد الوقت لأفكر في سؤالي.. وماذا بعد؟

وجدتني أقف بمعطفي أصطك من البرودة خارج المنزل. محاولا إزالة هرم الثلوج من فوق حطب المدفأة المحفوظ تحت غطاء سميك من البلاستيك من الصيف الماضي. أدندن بأغنية جملات شيحة «ياما دجت على الراس طبول» بينما سلام أبدي وبهجة غامضة يلفان روحي.

* * *

أغلقت كتيب رسالة أبي من دون أن أقرأ فيه حرفا. محاولا الهرب من الحنين واضطرابي لقراءة رسالة أنتظر أن تغير حياتي. سحبت الغطاء على جسدي الذي ما زال يشعر بالبرودة رغم نيران المدفأة. نور الشمعة الوحيدة التي كنت أقرأ على ضوئها سمح للقمر بإلقاء أشعته في المكان. معطيا لأقنعة الوجوه الإفريقية المعلقة على الحائط حياة ورهبة. كأن لكل منهم حكايته التي يريد أن يحكيها لي فيستريح من همه. حكاية سيحكيها بفعل صداقة مفترضة بيننا كمهاجرين. لهم نفس الحنين إلى ماضيهم الإفريقي. لكنني رغم كل مشاعري المتضاربة بسبب رسالة أبي وتأثير وجوه قارتي وأساطيرها. اخترت أن أهرب إلى واقع مود بيير الكندي الحي. أنا الأربعيني الذي اعتقد أنه خابر النساء وسحرهن. وأمتص رحيق بنات حواء حتى ثمل. أنا الأربعيني الذي حان وقت نضوج قلبه. وعندما شاهد نداء التعفف والحكمة قريبا من حياته، فاطمأن بتوديع طيش الشباب بلا ندم. أعادتني مود بيير إلى حزن الفطام عن الجمال بالبهجة التي تخلقها حواء منذ الأزل.

عشاؤها البسيط من الخضراوات والفواكه تحت أضواء الشموع. حركتي كرجل يحمل الحطب ويشعل المدفأة. الصمت الذي لف الوجود. ضوء القمر المتلصص علينا من السماء. أصوات تكسر الأغصان الجافة تحت أقدام حيوانات تبحث في سلام الغابة عن شيء تأكله. كل هذا وضعنا في ألفة روتين زوجين اختبرا معا الحياة الهادئة لعقود.

وكما لم أتوقع أبدًا. تناولنا عشاءنا بصمت. مختلسين النظرات كل منا للآخر. وددت أن أسألها عن حكمة وجودنا في هذا المكان المنعزل. لكني لم أجد الشجاعة. وعندما انتهينا. قامت وعزفت على الطبلة. رتم وحيد متكرر لدقائق. تكرار منتظم كصوت دقات القلب. تسارعت الضربات وأنا أنظر لها بحيرة. مغمضة عيونها تتمتم بكلمات لا أعرفها. يتغير الرتم إلى ضربات أسرع. فترقص حول الطبلة مهتزة مرددة همهمة بلغة ربما هي لغة قبيلة أمها. أضواء الشموع وأشعة القمر تتراقص على وجهها وشعرها المتطاير فتزيدهما جمالا. فأراها ساحرة طيبة في غابة إفريقية. وأراها طفلة لا تعلم بأن دقات قلبي مجنونة بتتبع دقات عزفها المحمومة. أراها كاهنة وثنية تستحضر كل أرواح الجدود. لتعطينا الأمان الذي نستحقه كعاشقين وحيدين في زورق يطوف إلى نهاية الوجود في قلب المحيط. وأمام كل هذه الحياة التي خلقتها موسيقى مود. لم أستطع التماسك. أنا المسكون بوقار زائف ورخيص. انتفض جسدي الذي لم يرقص أبدًا. منضما إلى مود في صلاتها الاستثنائية. تمايلت واهتز جسدي كدراويش الموالد. محاولا التواصل ومتمنيا الوصال. تغمرني محبة أكبر من محبة رجل لامرأة. تتغير أحوالي بعشق الدراويش. فأكتشفني ولهان بالقمر وبالنجوم وبسناجب الغابة. يضيء قلبي نور محبة الخالق الذي تمتمت بشكره لأنه وضعني في التجربة. أرقص أنا ومود فنعود إلى بكارة العالم. في هذا الجمال الذي تعطي ضربات يد مود على طبلتها نبضه. صمتي ودوران جسدي المحموم يجعلني آدم ويجعلك حواء. مختصرا ملايين السنوات وعابرا كل شقاء البشرية لنذوق طعم مودة الخالق الذي سمح لنا بالعودة إلى الجنة.

لكن كل هذا الوصال بجوهر الكون انقطع فجأة كما كان الوصول له مفاجأة. سقطت مود مغشيا عليها. يعبر جسدها كل دقيقة هزة تشنج. حملتها إلى السرير. وانتظرت أن يهدأ قلبها. وبابتسامتها الرائعة أخبرتني بأنها تحتاج إلى النوم فقط. وبأنها تشعر بأن بداية رحلتها قريبة جدًّا. لتخبرني بأنه عليّ أن أفعل ما يجب عليّ فعله كي نصل إلى النهاية. فأحكم الغطاء عليها. وأبحث عن رسالة أبي، محاولا أن أجد فيها ما يجب عليّ أن أفعله.

* * *

استيقظت على صوت نقار الخشب الذي لم أره يوما. كان قريبا جدًّا من النافذة. يصنع بدقاته خبطات أسرع من دقات الساعة المنتظمة برتابتها. ليقف بعدها للحظات يختار برأسه الأحمر أين ستكون خبطاته القادمة. يرطم رأسه بالشجرة المستكينة وهو يعلم أن منقاره الرفيع أقوى من جذعها العملاق. كانت هذه هي العلامة التي أهدتها لي بداية هذا النهار. بعد نومي لليلة هادئة رغم كل شيء. ربما جودة الهواء أو هدوء الغابة أو كلاهما، سمح لي بالنوم بهذا العمق المدهش. ليخرجني من شرودي صوت مود بيير محدثة شخصا ما.

كانت ما زالت في سريرها تغمض عينيها. فعرفت بخبرة طبية أنها الحمى. كان مجرد لمس جبهتها يخبر بأننا وصلنا إلى مرحلة الخطورة. لعنت غبائي ونومي الثقيل الذي لم أعتده، محاولا أن أخفض الحرارة بأسرع ما يمكن. كان من المستحيل عمليا حمل مود ووضعها مباشرة في حوض الاستحمام، كما أنصح غالبا مرضاي في حالات مشابهة، فالمنزل ليس به حوض استحمام والمياه مثلجة. كما أن فكرة نزع ملابس مود عنها وهي في هلاوس الحمى، فكرة في منتهى السخافة. فلم أجد سوى إحدى مناشفي. قطعتها إلى أجزاء وصنعت منها كمادات حول قدميها وذراعيها ورأسها. يبدو أنها شعرت بي لأنها همست باسمي في جملة لم أفهمها جيدا. لكني فهمت أنها

تشكرني وتمتن لوجودي. لتعود إلى الغياب في هلاوس الحمى التي بدت لي ككلمات بلا معنى. لكني بعد قليل من التركيز اكتشفت أنها تخاطب والديها.

«أي جنون ترغبان في أن تصيباني به. لا أحد يحبني في هذا العالم». «أنت شاذ جدًّا يا إدوارد. من أين أتيت باسم كارما هذا؟ لم أسمع اسمًا كهذا الاسم في كيبك من قبل». «إدوارد أنت لم تحبها أبدًا. أنت تريد أن تكمل بها غرابتك. كهالة أسطورية حمقاء تتمنى أن تشتهر بها بين أصدقائك». «ماما أنا جائعة. لا أحب الخضراوات. أريد أن آكل اللحم مثل صديقاتي. لماذا ترغمينني على أن أكون نباتية مثلك؟». «أمي لقد تعبت. ثلاث ساعات وأنا ثابتة كصنم. لكني لم أستمع لصوت جدي الذي تحدثينه». «أمي أنا وحيدة جدًّا. إدوارد سيتحول لمرأة وسيسمي نفسه كارما. هذه وصمة عار لا تحتمل». «أنا أكرهك يا أمي. أكرهك بكل ما تستحقين من كراهية». «إدوارد ستتسبب لي في فضيحة بين زميلاتي. كيف سأقدمك لهم، أبي الأنثى أم أمي الذكر؟». «أمي، أبي، أنا وحيدة جدًّا وخائفة حتى الموت. لماذا تتركانني لكل هذا الجنون!».

يتشنج جسد مود فجأة وتدخل في نوبة صرع لم أعلم أنها مصابة به. فأضع قطعة قماش بين فكيها. وأنتظر حتى يرتخي جسدها. فتعود ببطء إلى الحياة. تبتسم مرة أخرى لي وكأنها تراني لأول مرة هذا الصباح. فتقول لي: «صباح الخير يا أشرف. هل نمت جيدا، أم أن البرودة وأقنعة أمي المخيفة حرمتك من النوم؟».

ساعتها فعلت ما لم أستطع فعله من قبل. انحنيت على مود بيير وضممتها لصدري بشدة. أخبرتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام. فدفعتني عنها برفق متألمة من حروق وشمها الملتهبة. ليعتلي وجه راقصة الإستربتيز المحترفة حمرة خجل لم أر في حياتي أروع منها. فأشعر بأني طفل صغير قد ارتكب جرما، يتمنى أن يضرب رأسه بالحائط لأنه لا يعرف طريقة أخرى للاعتذار.

* * *

أعلم منذ طفولتي البعيدة بأن ملامحي تفضحني. عَدَّ كثير من أصدقائي ذلك علامة أصيلة على طيب الجوهر. عددتها أنا، علامة كاملة على فشلي اجتماعيا. يصفني البعض بأنني شخص مدمن على الاعتذار. أحب الادعاء بأني أنكشف سريعا أمام النساء والمرضى. أعتقد أيضًا، أني بطيء الفهم خصوصا مع النساء. عقلي كعقل أغلب الرجال. لا يعرف سوى الخطوط المستقيمة. يفقد ذلك تفكيرنا كثيرا من البهاء الذي تصنعه انحناءات التفكير الأنثوي. الدوائر والأقواس، قمم جبال وسهول خاصة بجنة النساء اللاتي نصنع في أرحامهن. لنخرج إلى الحياة بجسد مستقيم كجذوع النخل. ينقصنا انحناءات السعف الأخضر النسائي كي نطرح ثمارا ونعطي حياة. خطوط تفكيرنا الذكورية تجعلنا أسرع للوصول إلى الهدف. لكن بأكثر الطرق إيلاما. لنكرر أخطاءنا بنفس الغباء ونفس الإصرار.. (وأي غباء أوضح من محاولة سد ثقب لدن لا يمكن سده بعضلة متشنجة بحثا عن المتعة).

يبدو كالعادة أن ندمي على اتصالي الجسدي قد انكشف سريعا أمام مود. ولأنها تفوقني نضوجا وخبرة. قامت متحاملة على ضعفها. تربت على كتفي متسائلة:

ـ ما رأيك بإفطار خاص جدًّا. أعرف زوجين يديران مطعما ريفيا بالقرية. تستطيع أن تعدَّهما صديقين. سأغسل وجهي ونتجه إليهما. أعدك بأفضل إفطار تستطيع تناوله في كندا.

ومن دون أن تنتظر ردي اتجهت إلى الحمام. أغاظتني طريقتها المعتادة في إعطاء الأوامر. فصحت خلفها:

ـ لا يمكنك الخروج من هنا. هل أنت مجنونة؟ حرارتك مرتفعة. أنت مريضة للغاية يا مود. أنت هنا تحت مسئوليتي حتى يلتئم جرحك وتتحسن حالتك.

مود التي عادت من غسل وجهها. نظرت لي بوجه أكثر صرامة من وجهها الطفولي الذي أعرفه.

ـ أشرف. أنت لست مسئولا إلّا عن نفسك. تستطيع العودة إلى مونتريال حينما تشاء. أنا بخير. أحتاج فقط إلى طعام جيد والمشي في هواء الغابة البارد.

ومن دون أن تتلقى ردي. ترتدي معطفها وتفتح باب المنزل. وتنظر لي منتظرة. فأستخدم طريقة تفكيري الذكورية فائقة السذاجة لأسألها:

ـ مود، منذ متى وأنت مصابة بالصرع؟

أجابتني مود بنظرة اختصرت عشرات المشاعر المتناقضة. قبل أن تغلق باب المنزل. فألبس معطفي وأجري خلفها.

في البداية لم يكن الجو بالبرودة التي تخيلتها. مود الغاضبة تمشي بخطى سريعة رافعة رأسها إلى قمم الأشجار. أستمع إلى صوت تنفسي وأتابع بخار الماء خارجا كدخان أثناء زفيري. مع الوقت والمشي السريع بدأت البرودة تتسرب إلى أطراف أصابعي. فأضعهما تحت إبطي. ينتابني شعور طفولي بالندم والارتباك. لكني أستمر في المشي في الممر الضيق بين الأشجار. أقدامي تغوص حتى منتصف ساقي في ثلوج الغابة المتراكمة فيزداد شعوري بالبرودة. اعتقدت للحظة

أن مود تبكي. فحاولت الاقتراب لألمح وجهها. لكنه لم يكن يحمل سوى نفس ملامحه المصممة على الوصول إلى القرية خلف الغابة. كانت بالتأكيد غاضبة. ربما بسبب انكشاف عورة مرضها أمامي. أو ربما بسبب تدخلي المتكرر في حياتها. هي المستقلة بحرية لم أختبرها في نساء المشرق الذي أنتمي له. لكنها أيضًا كانت تعرف أنني سأتبعها وبأنني سأنفذ كل ما تطلبه.

مود التي فطنت سريعا لسبب تلصصي على وجهها. توقفت بعد عدة خطوات والتفتت إليّ، قبل أن تتكلم. فتنهي صمت الغابة الذي لا يقطعه سوى أصوات لهاثي خلفها.

ـ دكتور أشرف، أعرف أنك تهتم لأمري. ربما كما لم يهتم لأمري أحد من قبل. لكننا نحتاج إلى أن نتكلم كثيرًا. وأكره أن أتحدث لشخص أحبه وأنا جائعة.

كان ذلك بيانا مدويا بالمحبة لقلبي الذي أصابه الجنون. فاختفى صمت الغابة وثلوجها فجأة. رأيت العشرات من طيور الغابة تغرد لنا في الطريق الوعرة. تتنقل خطاي فوق الثلوج فلا تترك أثرا. كأنني فقدت وزني البشري. شعرت أن برودة أطرافي تختفي أمام حرارة قلبي. فبدأت حبات العرق تغزو جبيني. اعتقدت أنه يجب عليّ التوقف لخلع معطفي. لكن بيوت القرية ظهرت قريبة جدًّا. ومود تجري على الطريق كطفلة يستحيل ملاحقتها.

* * *

يحمل المطعم الذي قصدناه اسم «تمامًا كما كانت جدتك تطهو». اسم قديم بدا لي مضحكا. لكنه من الداخل مكتظ بالسائحين الأمريكان الذين أتوا للتزلج بمنطقة جبل مونترامبلان. المنطقة الأشهر لهواة التزلج على الجليد في شرق قارة أمريكا الشمالية. رائحة الطعام ذكية جدًّا رغم أنه يقدم وجبة الإفطار التقليدية، البيض المقلي بشرائح لحم الخنزير «البيكون»، شرائح الخبز المحمص المدهون بالزبدة، مربى الفواكه والقهوة. يدير المطعم زوجان من العجائز يثيران التعجب لقدرتهما على إدارة مكان بهذا الازدحام. المرأة العجوز تعد الطعام خلف البار المكشوف للحضور. أما زوجها فيقوم بخدمة الزبائن ومحاسبتهم. والذي بمجرد مشاهدته مود صاح:

ـ يا يسوع المسيح. ابنتنا مود بيير الجميلة!

قالها بصوت مسموع التفت له كثير من الزبائن. فتوقف بعضهم عن الأكل ليشاهدوا لقاء هذا العجوز بابنته الصغيرة أو ربما حفيدته. بينما مود تجري وترتمي في أحضانه مداعبة:

ـ چون العجوز، ما زلت قويا يا فتى أحلامي المخادع.

ودون أن ينتظر حتى تقدمني له. يسحبها من يدها إلى زوجته المديرة ظهرها للمشهد، منشغلة في إعداد طعام زبائنها. وكما حدث مع الرجل، حدث مع المرأة. صياح وأحضان وقبلات. تفصيلة وحيدة مختلفة

وشاهدة على عمق العلاقة بين المرأتين. دموع غزيرة أشاهدها على وجه مود بيير، التي لا أتذكر أنني رأيتها يوما تبكي.

بسرعة أعد لنا الرجل طاولة هي الأقرب إلى البار الذي تحضر زوجته خلفه الطعام. يجلسنا، ويذهب إلى زبائنه. بعد أن طلبت مود منه أن يتركنا لأننا نحتاج إلى أن نتحدث. متحججة بأنه يجب العودة إلى عمله لأن المطعم مزدحم. مؤكدة بأننا سنمضي معهما بعد الظهيرة وبأنها تتضور جوعا. تضيف: صديقي نباتي مثلي فمن فضلك لا تضعوا له شرائح البيكون.

مسحت مود ما تبقى من دموع في عينيها بظهر يدها واستعادت هدوئها.. (أحيانًا أفكر بأن مود بيير مسكونة بجني ما. تمامًا كما يعتقد البسطاء من أهل مصر. فتحولات حالتها مجنونة وغير منطقية. فلو أنني أخبرت أي شخص من العشرات حولنا بأن هذه الفتاة المسكونة بكل هذه الحياة، قد أمضت ليلتها محمومة تعاني من الهلوسة، وأنها أفاقت من الحمى على نوبة صرع من ساعة فقط لاتهموني بالجنون). لتبدأ معي حوارا ربما هو الأهم منذ أن عرفتها:

ـ هل ستقبل لو طلبت منك أن تحكي لي ما حدث بالأمس؟

ـ لم يحدث بالأمس سوى أننا تناولنا العشاء. وعزفت على الطبلة فرقصنا بشكل رائع قبل أن نذهب إلى النوم.

ـ لا تكن سخيفا. هذا أعرفه تمامًا. اليوم استيقظت ووجدت ضمادات الحمى بجواري. وأنت تحدثت عن نوبة صرع. أنت أيضًا احتضنتني وقلت لي بأن كل شيء سيكون على ما يرام. أنا لا أتذكر سوى احتضانك لي وخجلك المزري من هذا.

ـ مود حرارتك كانت مرتفعة جدًّا وكنت تهلوسين. ثم حدث ما شخصته مبدئيا على أنه نوبة صرع. ألم تصابي أبدًا بنوبات مشابهة؟

ـ أبدًا. لكن بماذا كنت أتحدث في أثناء الحمى؟

ـ أشياء غير هامة.

ـ أشرف كل شيء لا بد أن يكون واضحا بيننا، وإلا لا معنى لأن نكمل الطريق سويا. بالأمس كان حضور چون سبيستيان أندريه متجسدا بشكل مذهل. لدرجة أنني صرخت عليك كي تراه معي، لكنك لم تستجب لصراخي.

ـ وماذا طلب منك؟

ـ يجب أن تخبرني أولا بما حدث لي.

ـ كنت توجهين حديثك إلى أبويك. لم تكوني مسرورة منهما. ناديت كارما باسمها الأول، إدوارد. ووصفته هو وأمك بالنذالة وبأنهما لم يحباك أبدًا.

ـ غريب فعلا ما تقول. هل تعتقد أنني مصابة بالشيزوفرينيا؟ أتسكن أكثر من شخصية في جسدي. أرى وأستمع إلى أوامرها من دون قدرة على تذكر أفعالها؟

ـ احتمال ضعيف للغاية يا مود. لأن چون سبيستيان أندريه شخصية ذات وجود فعلي. صحيح أنه مريض مربك. قد يعيش الطبيب النفسي عمرا كاملا دون أن يقابل حالة مشابهة. لكنه شخص لا يعيش في خيالك بكل تأكيد. ربما چون سبيستيان أندريه شخص ذو قدرات خاصة. لكنك كطالبة بكلية الطب، تعرفين كيف يرفض الطب الحديث الدخول في متاهات الميتافيزيقا.

ـ لكن هل لديك تفسير لهلوساتي الغريبة عن كراهيتى لميريام أمي وكارما. أنا فعلا أحبهما جدًّا. وأعتقد أنني مدينة لهما بكثير من الأشياء الرائعة في حياتي.

ـ ربما عقلك اللاواعي يرفض كثيرا من تصرفاتهما. هناك ذكريات أليمة عنهما تحاربين حتى لا تطفو على سطح محبتك لهما. لكن ماذا عن چون سبيستيان أندريه؟

ـ لم يتحدث كثيرًا. كان يخبرني بأنك خطير جدًّا على وجودي. وبأن لك ماضي قاتل نساء محترف. وبأن عليَّ أن أهرب وأعود إلى مونتريال.

ـ وماذا كان رد فعلك؟

ـ صرخت لك كي تحضر. لكنك لم تسمعني. وأمام إصراره على تكرار نفس الكلام وخوفي. أغمضت عيني ووضعت الوسادة على أذني كي لا أسمعه. فغبت مباشرة في نوم ثقيل ولم أنتبه إلا وأنت تحتضنني صباحا.

قطع كلامنا چون العجوز الذي وضع أواني الطعام والقهوة على طاولتنا. متمنيا لنا إفطارا سعيدا. بينما زوجته تبتسم لنا من مكانها مشجعة. كأنها تخبرنا بأنها صنعت لنا الطعام بكثير من المحبة. فبدأنا تناول الطعام في صمت. لكني لم أشعر بأي مذاق لما أضع في فمي. فتوقفت عن الأكل متناولا قهوتي سوداء بلا حليب أو سكر. أنقل عيني بين چون العجوز وزوجته وزبائن المطعم من السياح الباحثين عن المتعة. بينما في الخارج يعود الثلج إلى التساقط وتستمتع الغابة بصمتها الأزلي.

* * *

استأذنت مود معلنا رغبتي في أخذ جولة صغيرة منفردا بالقرية. فهزت رأسها بالموافقة بوجه خال تمامًا من المشاعر. كنت أحتاج إلى الهواء البارد الذي أهرب منه عادة. في الخارج كانت نتف الثلج المتساقطة بغزارة تزخرف المشهد الكندي بامتياز. القرية الرابضة على سفح الجبل تحظر استخدام السيارات في طرقاتها. يترك الزوار سياراتهم في مرأب للسيارات خارجها. يساهم ذلك في إضفاء المظهر المختلف للمكان. ويحافظ على هواء الجبل من التلوث. البيوت كلها صغيرة ومتباعدة. كثير منها حول جزءا من الواجهة إلى متجر للهدايا التذكارية. دمى للدببة مبتسمة تحمل علم كندا، أو حيوانات وعل من القطيفة. كل ذلك صنعته أياد صينية مقابل سنتات أو وجبة غذاء ساخنة. ليشتريه الزائرون للقرية بعشرات الدولارات والكثير من السعادة لأنهم احتفظوا بذكرى من المكان والرحلة. هدوء القرية وعزلتها جعلاها مكانا ممتازا للهروب من صخب المدن الكبيرة ومدنيتها. ورغم ذلك، يوجد هنا كل مطاعم ومقاهي الشركات الشهيرة؛ ماجدونالز، ستارباكس، تيم هورتن وحتى ساب واي. يحتاج سكان أمريكا الشمالية لجرعتهم المهدئة من الطعم البلاستيكي الذي أدمنوه. لذلك لم يكن عجيبا بالنسبة لي اكتشاف هذه الأسماء التي لا أحبها في هذا المكان البكر.

موسيقى الكريسماس تنشرها مكبرات الصوت. فتصنع بهجة زائفة تمامًا كتخفيضات الموسم التي تدعو الجميع للاستهلاك حتى آخر

سنت في كروت الائتمان. أفكر بأنه لا يوجد ما يستحق الفرجة حقا. فأقرر العودة إلى مطعم «تمامًا كما كانت جدتك تطهو». لكنني ألمح مكتبا لخدمات الإنترنت. وجوده أكمل المشهد الكندي. فرغم أن الجميع يحملون الإنترنت في هواتفهم المحمولة. فإن هذا المكتب لن يعدم السائحين الذين سيستعيضون به عن خدمات الإنترنت عبر أجهزة المحمول المبالغ في ثمنها، وخصوصا لو كانوا من خارج كندا. اعتقدت أن تمضية بعض الوقت عبر الإنترنت ستكون فكرة مفيدة. كي أترك لمود فرصة الثرثرة مع أصدقائها دون وجودي، والأهم الاطلاع على إيميلي. لمعرفة رد المستشفى على طلب إجازتي وأخبار مرضاي.

وكما توقعت كان هناك إيميل من مديري المباشر في العمل، وآخر من هناء محمود. ففتحت إيميل مديري أولًا.

«العزيز الدكتور أشرف المدني..

أتمنى أن تمضي وقتا ممتعا في إجازتك. من المفيد جدًّا أخذ إجازة من وقت لآخر. كنت أتمنى أن تخبرني بإجازتك هذه من فترة كافية كي أتدبر من يحل محلك. أتفهم تمامًا توترك في الفترة القصيرة الماضية. لذلك قررت القيام بمتابعة حالاتك بنفسي. هنا في المستشفى كل الأمور جيدة. مرضاك يتحسنون بشكل ملحوظ. خططك العلاجية معهم مرضية بالنسبة لي. استرح جيدا وعد لنا أكثر نشاطا.

ملحوظة: مريضك چون سبيستيان أندريه تحسن بشكل ملحوظ. أعتقد أني سوف أدعه يخرج من المستشفى، بعد أن أصبحت حالته لا تستدعي الوجود بالقسم الداخلي. ربما

حالة هذا المريض وقصته المخيفة هي السبب في هروبك للإجازة. لذلك قررت أن أرسل لك بشكل استثنائي وثيقة ستريحك كثيرًا. في الملف المرفق صورة من الرسالة التي وجدوها مع جثة زميلنا السابق الدكتور نواز أحمد. ربما تساعدك في فهم أن أسطورة الخوف من هذا المريض لا معنى لها».

حملت الملف المرفق على سطح جهاز الكمبيوتر. وضغطت على أيقونة الطباعة. لكني لم أرغب في قراءة الرسالة. كنت فقط أتمنى أن أرد على مديري برد مقتضب:

«صديقي العزيز، أشكرك على قبول الإجازة.

ملحوظة: أذهب أنت وجون سبيستيان أندريه والمستشفى وكل عالمك البلاستيكي إلى الجحيم!».

لكنني بجبني المعتاد، لم أرسل الرسالة.

إيميل هناء لم يكن غريبًا على عادتها معي. كتبت لتخبرني بأنها سامحتني على معاملتي السيئة لها بشقتي (مسامحة لم أطلبها، ولم يخطر على ذهني طلبها). كتبت أيضًا كي تطمئن على أخباري وتسأل عن مكاني. لتخبرني بأنها على استعداد للحضور إلى مكاني أينما أكون، وبأنها تتفهم الظروف الصعبة التي أمر بها. لتؤكد بأنها الشخص الوحيد القادر على الوقوف بجواري.

بالطبع لم أرد على رسالتها، رغم امتناني الشديد لها. ذهبت إلى الطابعة وحملت رسالة صديقي العزيز نواز، ومن دون أن أقرأها، طويتها في جيب معطفي متمتما له بالفاتحة. أغلقت الإيميل وجهاز الكمبيوتر

وخرجت متجها إلى المطعم، أتنفس الهواء وأستمتع به. مرددا موسيقى احتفالات الكريسماس. شاعرا بقرب نهاية الكابوس.

في طريق العودة شرد ذهني. متسائلا كيف ستنتهي هذه الحكاية، ماذا سيحدث لو خرج چون أندريه سبيستيان من المستشفى؟ هل ستنتهي علاقته المشئومة بي. وتنتهي معها كل مهاترات بحثي عن حياة أخرى قد أكون عشتها؟ هل سأفقد علاقاتي المركبة مع مود بيير وتيكانا وكارما وكل هذه الشخصيات الغريبة التي اقتحمت حياتي فبدلتها؟ حكاية لو حكيتها لأصدقائي في مصر لاتهموني بالجنون. وأصبح مكاني الطبيعي هو مستشفى الأمراض العقلية كنزيل وليس كطبيب. لكن مع غرابة المحنة أشعر بأنني أولد من جديد. أختبر تجارب لا يمكن وصفها. أعيد قراءة المجتمع الكندي قراءة مغايرة.

لو قدر لي أن أختار شخصية العام كعادة المجتمعات الغربية. ربما أحتار من هو الفائز بهذا اللقب بين تيكانا وأبي. كلاهما يحاول أن يصل بي إلى نار معرفة السؤال الذي لم أطرحه على نفسي أبدًا. من أكون وماذا أفعل في هذه الحياة؟ سؤال لن أكون أول من سأله أو آخرهم. معلمي الأهم في علم النفس كار جوستاف يونج ذكر تجربته المشابهة في الكتاب الأحمر. عندما ظل يبحث فيه عن سر نفسه اللاواعية ستة عشر عاما مستمعا لأصوات وخيالات. لكني لم أتخيل أبدًا أن القدر سيضع تلميذا مجهولا مثلي في تجربة خاضها أستاذه الأكثر شهرة في العالم.

هدأت حركة الزبائن في المطعم مع انتهاء ساعات الإفطار. مود تتخذ مكانها بجوار السيدة العجوز وتساعدها في غسل الصحون. قابلتني بابتسامة عندما رأتني أدخل إلى المكان. «تبدو أفضل حالا».

قالتها وما زالت تحمل المنشفة وتجفف صحنا في يدها. لتضيف: «اجلس سأحضر لك بعضا من القهوة التي تدمنها».

كان الجلوس وحيدا في انتظار القهوة فرصة لاستخراج رسالة الدكتور نواز أحمد وقراءتها:

«بسم الله الرحمن الرحيم..

عجيب أن يكتب الشخص رسالة كي يودع بها العالم. لكني أشعر بأنه لم يعد لديّ ما أفعله. ولدت طفلا فقيرا جدًّا في باكستان. لأب لا يمتلك سوى ثمن وجبة طعام واحدة لي ولإخوتي التسعة. عملت منذ أن كان عمري سبع سنوات يوميا بعد عودتي من المدرسة. فقدت حاسة الشم من كثرة ما استنشق أنفي من روائح كريهة في بيت لا يوجد به صرف صحي أو مياه نظيفة. لكني لم أغب يوما عن المدرسة التي مشيت لها طويلا في البرد والحر على السواء. ودائما بنفس الحذاء المثقوب. ضُربت كثيرًا في العمل والفصل الدراسي لأنني كنت أسقط في النوم رغما عني. لكني تعلمت بأن قسوة الحياة حافزي الأكبر للهروب من هذا الجحيم. كرهت قريتي وعائلتي وفقرهما. وعندما فزت بمنحة دراسة الطب بأمريكا، اعتقدت أن الحياة قررت الابتسام، وأن العدالة شيء يمكن الحصول عليه بكثير من العمل. فنجحت كما تمنيت أن أنجح. لكني اخترت كندا للحياة لأنها أكثر تسامحا ومودة. الشيء الوحيد الذي لم أكتشفه عن الحياة، هو أن السقوط إلى القاع هو الخطوة التالية للوصول إلى القمة. فقمم الجبال ضيقة جدًّا. لا تسع سوى شخص وحيد. والوحدة هي الطريق الأقرب للنهاية. أشتاق كثيرًا إلى الأيام التي كنت أصارع فيها

لأجد مكانا لجسدي كي أنام وسط إخوتي الذين كرهتهم بنفس الغباء الذي كرهت به نفسي. مات أمي وأبي ولم أدفنهما. ماتت أيضًا أختي الصغرى من دون أن أسمع صوتها لسنوات. لأنني كنت لا أبحث إلّا عن القمة، التي تدعوني اليوم إلى الاستمتاع بالطيران الحر إلى الهاوية. تعلمت من مرضى الاكتئاب الحاد الذي أعلم أني أعانيه، بأن الموت هو العلاج الوحيد الناجع للانتهاء من تجربة الوحدة المريرة. لذلك سأستمتع بالنهاية المحتومة لكل البشر. وسأقدم عذابي بأبشع طريقة للموت ككفارة إلى الله عن أنانيتي المطلقة في حياتي. لأنه الوحيد الذي يتفهم أنني لم أرغب في معصيته بقتل نفسي. هو الكريم الذي يدرك معاناتي وألمي الذي لا يحتمل. لأنه الوحيد الذي كتب على نفسه الرحمة.

أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله».

انتهيت من القراءة وسقطت في بكاء مرير. وكأنني أقرأ الرسالة التي ربما سأكتبها يوما بنفسي.

* * *

أغلق المطعم أبوابه منتصف النهار. فبعد عمر طويل من العمل المضني، قرر العجوزان أن يقدم المطعم وجبة الإفطار فقط. أظهرا تعاطفا واضحا معي عندما رأيا بكائي. لكنهما احترما رغبتي في البقاء وحيدا. حتى مود، انتظرت حتى جفت دموعي واقتربت بحذر لتسألني: «هل كل الأمور على ما يرام». فابتسمت لها هازا رأسي.

بعد أن أعدوا المطعم لاستقبال غد جديد. اقتربت مني السيدة العجوز وقدمت نفسها لي مادة يدها العجوز المتعرقة بالسلام.

ـ اسمي مانو، أنا جدة مود بالتبني. كلمتني مود عنك كثيرًا أثناء غيابك في القرية. سيسعدنا أن تكون ضيفنا على الغداء. أخبرتني مود أيضًا بأنك مصري. أعتقد أن لديك الكثير لتخبرنا به عن هذه البلاد الرائعة. التي لا بد أنها تغيرت كثيرًا منذ زيارتنا الأخيرة لها في شبابنا أنا وزوجي.

نتحرك كقافلة صغيرة إلى بيتهم. بعد أن وضع زوجها لافتة «مغلق ـ ننتظركم غدا السادسة صباحا» على الباب. البيت لا يبعد سوى مسافة بضعة بيوت عن المطعم. بيت صغير لا يختلف كثيرًا عن بيوت القرية. لكنه بلا واجهة تجارية لمحل هدايا. البيت مدهش فعلا من الداخل. عشرات اللوحات المتراصة لأعمال سلفادور دالي. وكأنها متحف يقتني مجموعة هائلة للعبقري المجنون. سمرتني الدهشة فور عبوري الباب الخشبي للمنزل. فرددت في سري. هذا جنون كامل لا يمكن تصديقه. لكن مود همست سريعا في أذني:

ـ چون أحد أصدقاء دالي. ومانو تربطها صلة قرابة بزوجته جالا دالي. تعامل بطريقتك المهذبة المعهودة. ومن فضلك أغلق فمك فأنت تحرجني.

لكن تصرف مانو وجون كان أكثر لطفا معي. فابتسما معبرين عن اعتيادهما رؤية الدهشة في وجوه الزائرين إلى بيتهم. تناولت مانو العجوز معطفي لتعلقه في خزانة المعاطف. ليخبرني چون بالقصة.

ـ أنا وزوجتي من أصول كاتلونية. ولدنا في قرية فرنسية على حدود إسبانيا. قرية جبلية صغيرة تشبه هذه القرية لكنها على جبال البرنيه. جمعتنا صداقة حميمة بسلفادور دالي بسبب صلة القرابة بين مانو

زوجتي وجالا زوجته. كانوا يعتبروننا إخوتهم الصغار بسبب فرق العمر بيننا. لكننا فضلنا الهجرة إلى كندا بعد أن تبنينا مريام والدة مود. كانت الطفلة السمراء الوحيدة في قريتنا الفرنسية. فسبب ذلك لها ولنا كثيرا من المشكلات. البعض ما زال لا يفهم أحقية الاختلاف في هذا العالم. كندا استقبلت مريام بالشكل الذي تستحقه كفتاة رائعة. أعتقد أن سلفادور دالي شخص عبقري، ظلم كثيرًا بالتأكيد، رغم ما حقق من شهرة وثراء. كان يخفي داخله حزنا ونبلا حاول دائمًا إخفاءهما بالنرجسية والجنون.

ـ شاهدت معظم أعماله. وأعتقد دائمًا بأنه المرجع الأهم لعلاقة الفن بالطب النفسي.

ـ هل شاهدت الأفلام التي كتبها؟

ـ لا أعلم أنه قد كتب سيناريو أفلام. لكنه بالتأكيد سيهمني مشاهدتها.

ـ ربما نشاهد فيلمه القصير «الكلب الأندلسي» في نهاية اليوم. فجنون دالي في هذا الفيلم لن يسمح لك بتناول الأكل بشهية مفتوحة. لا بد أنك جائع. لاحظت أنك لم تمسس طعام إفطارك. ربما لم يعجبك أو أن بالك مشغول بما منعك عن الأكل. لكني أعدك بغداء فرنسي رائع. مانو طباخة لا مثيل لها. طعامها هذا هو أول ما أحببته فيها. لكني مع العشرة والزواج. أردد مقولة دالي الشهيرة: «إن كل رسام يريد أن يكون مبدعا وينجز لوحات رائعة، عليه أولا أن يتزوج زوجتي». لكني أعدل عليها قليلًا لتصبح «إن كل رجل يريد أن يكون سعيدا ويأكل أشهى طعام في العالم، عليه أولا أن يتزوج مانو».

يضحك الجميع، فتضربه مانو بدلال على كتفه مداعبه. موجهة كلامها لمود:

ـ هذا العجوز لن يكف أبدًا عن المراهقة.

كعادة الفرنسيين في ولائمهم قدموا لنا الشراب لفتح الشهية. حاولت ألّا أكثر من النبيذ الفرنسي لنهاية الموسم ذي المذاق الحلو. لكن جودته كانت ممتازة. فشربت كـأسين على معدتي الخاوية. سمح ذلك لي بالتحرر والقدرة على حكي القصة كاملة لمود. التي استغلت انشغال العجوزين في إعداد الغداء وحاصرتني بالأسئلة عن سبب بكائي في المطعم. حكيت لها عن چون سبيستيان أندريه، ومحاولات تيكانا للبحث في حياتي السابقة عن حياة عشتها ستسمح لي بالنجاة من چون سبيستيان وكابوسه. أخبرتها أيضًا عن قصة فتاة الأنكا وما أخبرتني به من ضرورة البحث عن جذوري بقراءة رسالة أبي التي أخشاها. لكنها من كل هذا لم يدهشها فعلا سوى مومياء فتاة الأنكا. فطلبت مني أن أريها صورتها. لتخبرني بعد أن شاهدت صورتها عبر الإنترنت في جهاز الكمبيوتر: «عجيب جدًّا يا أشرف ما تحكيه. لكن الأعجب هو أنني من سنوات طوال أشاهد نفس الفتاة تلعب معي في أحلامي». لكنها بعد فترة تأمل في الحكاية كلها. شربت فيها كأسي الثالثة شاعرا بالتحرر من حملي الثقيل. وبأنني لم أعد وحيدا في السير في المتاهة. داعبتني متظاهرة بالغضب: «كيف تسمح لنفسك بارتداء جسدي من دون استئذان. حتى ولو في نوبة هلوسة تحت تأثير مخدر تيكانا»، فأرد عليها وقد بدأت أشعر بالسكر اللطيف يزحف على جسدي: «أنت مجنونة يا مود، مجنونة تمامًا ككل أسرتك وأصدقائك». فتقوم وتجلس إلى جواري واضعة رأسها على صدري: «حسنا يا صديقي، مرحبا بك في أسرتك الجديدة من المجانين!».

الطعام لذيذ بشكل ملفت. اكتشفت ذلك بعد أن نادى چون على

مود ومانو ليفتتحا المائدة أولا، تبعا للآداب الفرنسية. لنجلس أنا وهو بعدهما. كنت أتضور جوعا. لكني أتبعت التعليمات التي أتقنها. فانتظرت حتى انتهت السيدتان من ملء طبقيهما. محاولا التحكم في جوعي والظهور بالمظهر اللائق. وكما تقتضي الآداب أيضًا ملأت طبقي بالقليل فقط من الطعام كما فعلوا. أكلت ببطء منتظرا أن ينتهوا من أطباقهم لأعاود ملء صحني (رغم كل السنين الطويلة التي عشتها في الغرب. أنا أكره هذه العادة الصحية المتزمتة. عادة تمضية الوقت في المضغ وكأنني بقرة مجترة). كنت أنتظر أن يبدءوا في الحديث كعادة كل الفرنسيين على الطعام. لكنني لم أكن على استعداد للحديث عن مصر. خوفا من نوبة حنين ستدمر مزاجي. تمنيت فعلا أن أكسب الفرصة لمعرفة الكثير عن مود وأسرتها. تحديدا مريام أمها، الشخصية الأكثر غموضا في الحكاية. وعلى أنغام موسيقى موتسارت التي لم تنقطع عن صنع خلفية عشائنا. وتحت عيون العشرات من كائنات سلفادور دالي العجائبية. قررت أن أبدأ المبادرة.

ـ كيف تعتقدون أنه بإمكانية شعب كامل الحياة بدون مرض والوصول دائمًا إلى سن المائة؟

مانو: تتحدث عن المونجا قبيلة ابنتنا مريام، أليس كذلك؟

ـ بلى. أخبرتني كارما أنهم يمارسون رياضة روحية تحميهم من المرض وتمد أعمارهم. لو وجد شيء كهذا فعلا، فلا بد أن العلم الحديث سيجد في هؤلاء الأشخاص مادة مهمة للدراسة.

مانو: أو ربما أن في الحكاية سرا ما وبعض المبالغة.

چون: حبيبتي، أنت تعلمين فعلا أن المونجا شعب من الأصحاء

والمعمرين. بشرط أن يحافظوا على الانغلاق على أنفسهم والتزاوج من داخل القبيلة.

ـ طبيا ذلك مناف لجوهر علم الوراثة. فالفصائل المنغلقة على نفسها والأكثر نقاءا، أكثر عرضة للأمراض.

مود: أعتقد أن الأمر برمته يحتوي على خدعة ما. فبعضهم يصاب بأمراض الحياة العصرية كالضغط والسكري. كما أني أتذكر أن أمي أخبرتني بوفاة سيدتين من القبيلة متأثرتين بمضاعفات مرض الإيدز.

چون: أوافقك يا مود، لكن نادرا ما يحدث لهم ذلك. ربما لأن معتقدهم الديني الذي لا نعرفه، يحمل خصائص شديدة الصرامة تجاه المرض والموت.

مانو: سمعت مرة من مريام بأن ديانتها تعتبر المرض خطيئة. لذلك يتبع أفراد القبيلة نظاما غذائيا خاصا يعتمد كليا على الخضراوات والفاكهة، لا يدخنون أبدًا ولا يشربون الكحول. يعيشون في أقل الأماكن تلوثا. ويمارسون الجنس أسبوعيا حتى يومهم الأخير. الأهم أنهم يحترفون الجلوس لساعات طويلة بلا حركة في الغابات يتأملون الطبيعة. بعضهم يدخل في صوم طويل عن الكلام والحركة ربما لأيام، في انتظار تفتح برعم صغير أو وردة.

مود: المرض والموت في وجهة نظري، مجرد قرار شخصي.

ـ ماذا تقصدين بأن المرض والموت قرار شخصي؟

مود: بالتأكيد يا أشرف المرض قرار شخصي. حتى ولو كان بشكل لا يدركه وعي الشخص نفسه. تعلم أن الخلايا تموت وتتكاثر في

أجسادنا كل يوم. يتحكم في ذلك جهاز المناعة الذي يطلق الهرمونات التي تسرع من موت الخلايا «الاببتوزيس»(*)، أو يطيل أعمارها. الخوف والاكتئاب وضغوط الحياة العصرية هي المحفز الأكثر تدميرا للجهاز المناعي.

ـ لكن ألا تتفقون معي على أن ميريام وقبيلتها يحققان أسطورة حلم بها البشر دوما.

چون: البشر يا دكتور محدودو المعرفة. بمعنى أننا مهتمون في الأغلب بالبحث في ثقافتنا الخاصة وما يشبهها من ثقافات. نحاول أن نصل إلى مصوغات لتصديق ما نؤمن به. وهذا الذي نؤمن به، ليس سوى موروث ساذج لمجموعاتنا العرقية أو الدينية.

ـ وماذا عن الموت القدري. ألا يصاب أفراد المونجا في حوادث سير عادية. اصطدام سيارة أو حريق أو حتى سقوط طائرة؟

چون: ملك المونجا الذي هو والد مريام ابنتنا، حرم على شعبه ركوب الطائرات. لأن السقوط بها يخرج عن سيطرة أفراد قبيلته. طبعا هناك حالة اسثنائية وحيدة. وهي حالة ميريام التي اضطرت إلى العودة إلى بلادها بالطائرة. أما سؤالك عن حوادث السير فلا يحمل سوى

(*) عدد خلايا الكائنات المتطورة منضبط للغاية. يحدد عدد الخلايا في هذا المجتمع معقد التنظيم، التحكم في معدل انقسام الخلايا الجديدة، والتحكم في معدل موت الخلايا. وإذا لم تعد هناك حاجة إلى الخلايا، فإنها تنتحر عن طريق تفعيل برنامج الموت داخل الخلايا نفسها والذي يسمى الاببتوزيس. (المقطع مترجم بشكل مبسط من مرجع علم الأحياء الجزيئية للخلية. الطبعة الرابعة):

Apoptosis: From Molecular Biology of the Cell. 4th edition.

مزحة سيضحك منها أي فرد من أفراد القبيلة. لأنه ببساطة، شخص يستطيع التحكم في جسده مستيقظا لأيام متتبعا تفتح برعم زهرة، لن يغفل لأي حركة مفاجئة.

مود: ألا يكفيكما أنتما الاثنين حديثا عن أناس تصيبني سيرتهم بالارتباك والتوتر.

أوجه كلامي ممازحا مود:

ـ أنت تحديدا يجب أن تتوقفي عن التوتر. فالمرض قرار شخصي كما أخبرتنا. لا أريد أن تسقطي في الحمى مرة أخرى.

مانو: عن أي حمى تتحدث يا دكتور؟ هل أنت مريضة يا صغيرتي؟

ومود التي نظرت لي نظرة غضب أجابتها:

ـ هو يبالغ دائمًا يا جدتي. مجرد نزلة بسيطة أصابتني من برودة بيت الغابة قبل أن نعد المدفأة. (لتكمل مغيرة مجرى الحديث).. أتساءل الآن عن ماذا أعدت لنا جدتي الحبيبة للتحلية.

وتماما كما تقتضي العادة، أحضر چون لوحا خشبيا كبيرا عليه أصناف الجبن الفرنسي. فاخترنا منها ما اشتهينا. قبل أن تحضر مانو طبق الشيكولاتة بألوانها الثلاثة، الأبيض والبني والأسود. يتبعها القهوة التي أعادت لذهني يقظته.

جلسنا جميعا نشرب قهوتنا مستعدين لمشاهدة فيلم «الكلب الأندلسي» الذي كتب له السيناريو سلفادور دالي. جلست مود إلى جواري على نفس الأريكة، أمام الشاشة مباشرة. بينما جلس العجوزان منفصلين على مقاعد إلى جوارنا. ليبدأ الفيلم العجيب. كنت أعتقد

بأن الفيلم الذي أنتج في أوائل القرن الماضي لا بد أنه يحتوي كثيرا من سيريالية وعجائبية دالي. لكني لم أكن أتخيل أبدًا بأنه يحمل كثيرا من فصول ورموز قصتنا. ليس فقط للشبه المرعب بين بطل الفيلم المجنون وجون سبيستيان أندريه. ولكن أيضًا التشابه مع أهم شخصيات القصة. أنا ومود وكارما وحتى أبي. تم ذكرنا بطريقة ما في فيلم فرنسي أنتج سنة ١٩٢٩.

* * *

عدنا إلى المنزل قبل الغروب، مقتفين أثر ما تبقى من ضوء الشمس. كنا نمشي صامتين تحت تأثير صدمة فيلم دالي الذي لا صلة له بعنوانه. الكلب الأندلسي. فلا يحتوي الفيلم على كلب أو أي ذكر للأندلس. الفيلم صامت يتكون من مجموعة مشاهد لا تربطها أي خطوط درامية. هناك فقط موسيقى بيانو منفرد تتصاعد وتهبط تبعا للموقف. يحتوي الفيلم على كثير من المشاهد العنيفة غير المفهومة. البطل «شبيه چون سبيستيان» يقطع عين البطلة بموسى حلاقة. نمل أسود كبير يخرج من ثقب في يده. يحاول اغتصاب البطلة ويفشل فينتهي المشهد بجره لبيانو يشنق رجلين. فيظهر على ظهر البيانو صورة رأس حمار ينزف دما. كل هذا كان مقززا ومقبولا من ملك السريالية. لكن المشاهد التي تتماس مع حكايتي الشخصية كانت مربكة جدًّا لي. رجل يقود دراجة ويرتدي ملابس سيدة يسقط أرضا مصطدما بالرصيف (إدوارد أو كارما قبل تغييره جنسه). سيدة بقصة شعر ذكورية ترتدي ملابس رجال تبدو كامرأة فاتنة بأقدام صغيرة (كارما بعد تحويل جنسها). شاب يتحدث له والده معطيا ظهره للكاميرا. يقدم له كتابا. يتحول بعدها الأب إلى صورة طبق الأصل من الابن (أنا ورسالة أبي المكتوبة في دفتر. والشبه المذهل الذي يجمعنا في نفس الفترة العمرية). فتاة تحاول الهروب دوما من البطل شبيه چون سبيستيان أندريه الذي ينجح دائمًا في ملاحقتها والوصول اليها (مود بيير وجون سبيستيان). لكني قبل

انتهاء الطريق إلى بيت الجبل نجحت في إقناع نفسي بأن كل هذا مجرد تهيؤات. وبأنني أحاول إسقاط تفاصيل ما يشغل بالي على الفيلم. كرد فعل من عقلي الباطن على ما يبدو لي غير مفهوم.

بمجرد دخولنا إلى بيت الغابة ارتمت مود في أحضاني. كان جسدها كله يرتعش ولكنها لم تكن مصابة بالحمى.

ـ أنا خائفة جدًّا يا أشرف. خائفة لدرجة أنني أتمنى الموت.

ضممتها لصدري بقوة وكأني أريدها أن تدخل جسدي (كنت أستأنس بها كي أهزم خوفي وخوفها معا). جلسنا على الأريكة كتوءمين ملتصقين لا يمكن فصلهما. وعندما انتهى جسدها من الارتعاش. بدأت دموعها في التساقط.

محزن جدًّا ما فعلوه بفتاة الأنكا. كيف استطاعوا أن يفعلوا ذلك بفتاة بمنتهى الرقة. كنت أعُدَّها دائمًا صديقتي المخلصة. سري الذي لم أطلع عليه أحدا أبدًا. لا أتذكر متى بدأت تظهر في أحلامي. ربما أول ذكرياتي في هذه الدنيا تعود لها هي. كنت في الخامسة أو السادسة من عمري عندما شاهدتها تأتي لي في الحلم لأول مرة. كانت تحب اللعب. وكنت طفلة وحيدة لا يلعب معي أحد. والداي ينتميان إلى عالمين شديدي الاختلاف. كل واحد منهما ينتمي إلى أنانيته الخاصة. أنا أكرههما فعلا يا أشرف. أكذب دوما بغير ذلك. فأنا لا أملك عالما خاصا سوى عالم المتناقضات. أدرس كي أصبح طبيبة لأشفي الجسد البشري من أمراضه. وأعمل راقصة إستربتيس لأنها المهنة الأكثر احتقارا للجسد. تمامًا كأمي المنتمية لقبيلة تعتقد أن الإصابة بالمرض جريمة ومعصية. وأبي الذي لا يرى تحقق العالم إلا بامتهان جسده والانضمام إلى المثليين.

وحدها تلك الفتاة التي كانت تكبرني في طفولتي، كانت من صادقني وأعطتني القدرة على تقبل عالمي. دائمًا تحضر لي الأزهار ودمى عجيبة من الذهب. كنت أذهب إلى النوم فقط كي أقابلها. وعلى عكس كل الأحلام العادية، لم أنس أوقاتنا معا. أحيانًا كانت تتوقف عن اللعب مرتعشة من البرودة فأخلع لها معطفي. فتشكرني مخبرة بأن البرودة فوق الجبل لا تحتمل. وبأنهم تركوها هناك وحيدة. لذلك تنتظر كل يوم نومي كي تجد من يلعب معها. كنت أكبر بمرور الأعوام، وهي كما هي لا تكبر أبدًا. وعندما سألتها لماذا لا تكبرين مثلي. أخبرتني بأنهم منعوها من أن تكبر ككل الأطفال. ليلتها سألتني بكثير من الحزن: هل تكرهينني لأنني أصبحت أصغر منك؟ فقبلتها وضممتها إلى صدري قبل أن نعود إلى اللعب. لكني لم أعاود سؤالي هذا أبدًا. خوفا من امتناعها عن زيارتي وتركي وحيدة. إلى اليوم الذي وضع الملعون چون سبيستيان أندريه وشمه الغبي على جسدي. بعدها توقفت تمامًا عن زيارتي. أفتقدها بشدة وأفتقد أوقاتنا الممتعة معا. أنا حزينة جدًّا على ما حدث لها يا أشرف. حزينة وكأنه أنا من وضعوني فوق الجبل كي أموت من البرد والوحدة.

لم أعرف بماذا أخبر مود الحزينة. لكن شيئا داخلي دفعني لأن أخبرها بأنها ستراها قريبا جدًّا، ربما أقرب مما تتصور. أضم رأسها إلى صدري ممررا أصابعي في شعرها الناعم. فتتمتم بصوت مبحوح:

ـ أتعدني بذلك؟

فأرد بعد فترة صمت:

ـ لا أعلم يا مود.

جافاني النوم تمامًا. فحملت أحد مقاعد المائدة وجلست إلى جوار سرير مود الخائفة. والتي تحولت فجأة إلى طفلة كبيرة تنام ببراءة لا توصف. تفتح عينيها كل فترة كي تطمئن على أنني ما زلت موجودا معها بالغرفة. لتعاود الذهاب إلى أحلامها بسلام. وأمام طفلتي الساحرة، اعترفت لنفسي بأنني فعلا أحب هذه السمراء التي لا تشبه سوى نفسها. كان بيننا فرق عمر لا يمكن قبوله كحبيبين. مشاعري نحوها خاصة وندية. أحب تفاصيل جسدها الدقيقة إلى حد الفتنة. حتى وشمها الأبيض الملعون، أحبه لأنه معجزتها الخاصة رغم كل شيء. أعتقد أيضًا أنه يستجيب لوجودي معها بشكل سحري. فيلتئم حرقه بسرعة لن يمتلك أي طبيب تفسيرها. لكني أحب أكثر شخصيتها المسيطرة بنعومة وثقة. اعتزازها بنفسها ومعرفتها الخاصة بعالم الرجال. لقد عشت عمري كله أحلِّق كنسر وحيد لا يرى في السهول سوى مساحة شاسعة للقنص. لكنها أعادتني برقة إلى معدني الأرضي. فانكشف لي ضعفي البشري الذي أحببته لأنه هديتها الخاصة لشخصي الجديد. أشرف آخر أكتشفه، قادر على الاعتراف بسذاجته والفرح بها.

لم يكن مزاجي رائقا للعودة إلى سيوة ومذكرات أبي. الذي أصبحت أحمل له الآن مسامحة وتفهما لم أعرفهما في حياتي كلها. اختفت من قلبي عصبية تنافر الأقطاب المتشابهة التي طالما جعلتنا كندَّين. لتحل محلها محبة خالصة لصديق أتفهم أزمته. ربما بعده الأبدي وسني الذي تجاوز الأربعين سمحا لي بالنضج أخيرًا.

* * *

عندما هزتني يد مود برقة. كانت أشعة الشمس تملأ المكان. أمسك في يدي الكراس الذي يحتوي رسالة أبي. فعرفت أنني سقطت في النوم على مقعدي أمام سريرها. كانت رائقة المزاج جدًّا. فاجأتني بضمة وقبلة على خدي. استطاعت أن تذهب الألم الذي شعرت به من النوم متصلبا لفترة طويلة. تدور كفراشة في الغرفة محدثة نفسها بصوت عال لتسمعني: «كم أنت محظوظة يا مود. هناك رجل محترم ينام ليلته على مقعد إلى جوارك، كي تنامي بأمان». تقولها وتعود لاحتضاني وطبع قبلة أخرى على خدي الآخر. فأشعر بالسعادة وأقوم فاردا جسدي.

أتتبع مود إلى المطبخ مستمتعا بسعادتها. أستند إلى جدار المطبخ، مشبكا يدي على صدري ومبتسما. فتضع القهوة على النار، وتخرج الكرواسون من الحقيبة الصغيرة التي أعطاها لنا جدها چون. تخرج أيضًا الزبد والمربى اللذيذة التي صنعتها مانو. تلتفت إليّ مبتسمة وتخبرني باعتذارها على تركي أمضي ليلتي هكذا. أخبرها بأنني أمضيت الليلة أحاول أن أقرأ رسالة أبي. كما طلبت مني صديقة عزيزة. فتسألني بغيرة أنثوية لم تستطع إخفاءها.

ـ أي صديقة هذه التي تصفها بالعزيزة؟

ـ تيكانا.

ـ يعني لي الاسم شيئا ما. آه تذكرتها الآن. أليست هذه هي أستاذة علم الاجتماع الهندية التي حاولت اكتشاف خرافة حياتك السابقة معها؟ حدثتني عنها كارما كثيرًا، لكني لم أقابلها أبدًا.

ـ هي نفسها. غريب فعلا أنك لم تقابليها.

ـ أعتقد أنها كانت تزور أمي عندما كنت صغيرة. لكني لا أتذكر شكلها.

ـ أخبريني هل زارتك صديقتك فتاة الأنكا؟

بحزن تخبرني:

ـ شاهدتها تجلس وحيدة فوق الجبل. لكنها لم تلتفت إلى صوتي عندما ناديتها. على الأقل تبدو بخير. كان ذلك كافيا لإسعادي.

تجلس إلى المائدة. أمام الإفطار المعد وتسألني:

ـ هل سأتناول إفطاري وحيدة؟

أجلس أمامها. وأبدأ في تناول طعامي. لأخبرها:

ـ يبدو هذا إفطارا رائعا لإنهاء عام كان هو الأصعب.

أمضينا حتى الظهيرة في تنظيف المنزل. أحضرت الخشب للمدفأة من الخارج. ساعدت مود في مسح ما تخيلته غبارا من على تماثيل وأقنعة أمها الخشبية. وقررنا الذهاب لتناول الغداء في القرية. انتظرت مود حتى تنتهي من حمامها السريع. خرجت ملفوفة في «بشكير» أبيض وكأنها تمثال فاتن من الأبنوس والعاج. أخبرتني أنها تركت ما يكفي من ماء ساخن لي. فتذكرت أني لم أحلق ذقني أو أستحم من أيام. فأخذت

حماما سريعا وحلقت ذقني. لأخرج فأجد مود ترتدي رداء أبيض قصيرا يكشف ذراعيها وساقيها الفاتنة. فأطلقت صيحة إعجاب أضحكتها. اخبرتني بأن الفستان كان لجدتها مانو الطيبة. وأنها وضعته في سلة طعام الإفطار. مؤكدة لها بأنها ستحتاج إليه. شربنا قهوتنا للمرة الثانية. وجلسنا قليلًا نتحدث قبل أن تعطيني كشافا صغيرا يعمل بالبطارية الجافة. سنحتاج إليه في طريق عودتنا لو قررنا البقاء بالقرية للاحتفال بليلة العام الجديد. نرتدي معطفينا وننطلق إلى القرية. لأعيش ليلة لن أعرف فيما تبقى لي من حياة أروع منها.

* * *

المطعم الإيطالي ذو طراز متفرد الفخامة. كأنه غرفة طعام في أحد قصور روما القديمة. الأثاث الخشبي والديكور يوحيان بعراقة لا يمكن تجاهلها. الثريات الكريستال تضيء من دون الالتفات إلى ضوء النهار الشاحب بفعل الغيوم، فتضيف للمكان بهاء وغنى. موسيقى جاكومو بوتشيني بأصالتها، ترحب بالزائرين في مكان لا ينتمي إلا للقارة الأوربية. وكسيدة أعمال أو ممثلة شابة مشهورة. تقف مود بثقة من تعود على زيارة الأماكن المفعمة بالفخامة. تنتظر النادل الذي يرتدي حلة كاملة، يزيح لها المقعد ويجلسها. شراشف الطاولة مطرزة كلها بخيوط ذهبية بطريقة بديعة. ورغم إضاءة المكان القوية، يشعل النادل شمعة حمراء في شمعدان من الفضة أمامنا. فيفوح عطر نبيل في المكان. بعدها، يقدم لنا قائمة الطعام. متحدثا بلكنة إنجليزية جميلة: «اسمي فليب. يسعدني أن أكون في خدمتكما. شاورا لي عندما تنتهيان من اختيار وجبتكما».

الأسعار الخيالية وأناقة المكان المبالغ فيها، جعلاني أتساءل عن سبب وجود مثل هذا المطعم هنا. تخبرني مود بأن معظم الزبائن من الأثرياء الأمريكان محبي التزلج. وأن أناقة المكان هذه، جعلته أيضًا قبلة لسكان المدن الصغيرة التي لا تبعد كثيرًا.

تركت الاختيار لمود لأني أسيرها هذه الليلة. لها الحق في أن تفعل بي ما تشاء. أضحكها تعبيري المنتمي لثقافة لا تعرفها. ولأني من سيدفع

الفاتورة، لم تختر سوى الباستا وسلطة الخضراوات. بعدها، أشارت للنادل الذي أحضر معه كأسين من نبيذ السبعينيات المعتق كهدية من المطعم احتفالا برأس السنة.

لسبب لا أعلمه قفزت هذه الفقرة من مذكرات أبي إلى رأسي. سطور استقرت في ذاكرتي من قراءة واحدة:

> «وما السعادة يا ولدي؟ سوى ساعة بصحبة حبيب لا يعلم مكنون قلبك. عذابك بالصمت في حضرته، صلاة أمل. خوفك من انقضاء الوقت ونهاية أجل الوصال. سلامك واستسلامك، رعشة يديك، خفقان قلبك، هروب بصرك إلى جمال المحيط بالحبيب لأنه صنيعة وجوده في عينيك. فإن صادفك يا ولدي ما أخبرك به. اعلم أنك هالك لا محالة. فاذهب ولو زاحفا إلى موتك المشتهى. واعلم أنك خابرت أثر السعادة».

سألتني مود عما يدور في خاطري. فشعرت بأن الدماء تقفز إلى وجهي من شدة الخجل. فابتسمت ورفعت لي كأسها: «في صحة صداقتنا وعامنا المنتظر». ساعتها شعرت بأني أحتضن روح أبي. وبأني مدين له بأكثر مما أعتقد.

عندما خرجنا من المطعم كانت الشمس قد شارفت على الرحيل. أضواء زينات القرية تنير الوجود كشمس أخرى قادرة على هزيمة الليل المنتظر. تجمع السكان والزوار حول شجرة عيد الميلاد العملاقة التي وضعوها في منتصف ميدان القرية. عشرات الأكشاك الخشبية المزينة بزينة الاحتفال تبيع الكحوليات ومشروب الشيكولاتة الساخن.

موسيقى الاحتفالات تصدح من مكبرات صوت عملاقة لم تكن موجودة بالأمس. عجائز القرية يغذون النار في مراجل كبيرة يلتف حولها الباحثون عن الدفء. أنا ومود نعيد تكوين العالم كأنه خلق من أجلنا فقط. تمسك بيدي كطفلة تكتشف جمال الدهشة لأول مرة. تصرخ فرحًا لمشاهدة حيوان الرنة الذي أحضروه كأيقونة للاحتفال. تربت عليه وتقبله. فيدخل الكائن البديع برأسه في حضنها. يلتقط لهما مصور مترجل الصورة التي سأحافظ عليها لآخر أيام حياتي، كتذكار حي عن معنى السعادة. نرقص مع الآخرين في دوائر، مستمتعين بسلام أخوتنا جميعا كبشر. أشتري لها الشراب الذي أكثرت مود منه، لأنني لا أستطيع أن أجيبها بالنفي. حررها السكر تمامًا من الخوف. لكنه لم يصبها بالجنون. كانت فقط سعيدة. تخبر الجميع بأنها تحبهم. تحتضن الآخرين صائحة بأمنيتها لهم بعام جديد سعيد. لم تكن وحدها التي أصابتها هذه النوبة العارمة من السلام والمحبة. كثيرون كانوا يتمنون سعادة العام الجديدة للغرباء أمثالي. وفي وسط كل هذا الفرح دمعت عيناي من مودتهم الصادقة. فسلمت جسدي وروحي للأحضان التي لم أعرفها منذ قدومي لهذا البلد البعيد عن بلادي. أحضان المحبة الخالصة. حتى ولو من غرباء لم أقابلهم يوما في حياتي.

بدأ العد التنازلي لاستقبال العام الجديد. شعرت بمود تبحث عن وجهي بأصابعها المتجمدة من البرودة. فتشعلني الرغبة وفرحة الانتظار. لا أذكر أني بدأت عاما على وسادة شفاه أنثوية أبدًا. يصعر وزن الأرقام القادمة من مكبر الصوت العملاق معلنة عن بداية العام الجديد. خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنين، واحد. تنطلق الألعاب النارية مضيئة سماء قريتنا. شفتاها بطعم العسل والرمان تمحوان كل شقاء فمي. أنا مفعول

به كغريق يشعر بقبلة حياة. فيستسلم لأمله الأخير في النجاة. توقف الزمن. ولم تنطفئ الألعاب النارية في المدى. بقيت بهجتها معلقة في سمائي للأبد. وجهانا التحما في قبلة، فحمل عنقانا رأسا واحدا. تدور بنا الدنيا فنصير مجرد أثير من الوجد. لا نسمع صيحات المحتفلين ولا نهتم بهم. أسمع همس الكلمة التي أنتظرها «أحبك». فلا أعلم من منا نطق بها أولا. لكننا نؤمن بأنها كلمتنا المستحقة، وبأننا الأجدر بالحياة.

كان هذا ميثاقا أعاد ابتكار عالمي مع مود بيير. نحن حبيبان. تبادلنا الأدوار كثيرًا في علاقتنا القصيرة. طبيب ومريضة. مصري وكندية. رجل وفتاة. أبيض وسمراء. مطيع ومستبدة. متعقل وطائشة. لكن العام الجديد اختصر كل هذا التوتر والشقاء بكلمة واحدة.. حبيبان.

أعجبنا كثيرًا ما أصبحنا عليه. فأكثرنا من الشراب والرقص والقبلات. وانهزم خوفي من كون اللحظة وليدة السكر وجنون فرحة العام الجديد. لا أعرف متى قررنا العودة إلى بيت الغابة. كان الوقت لا يحمل أي معنى لقلبين قررا الفرح. ركضنا عبر الغابة خلف ضوء الكشاف الصغير الذي أحمله. نصطدم بالأشجار ونضحك. لا البرد ولا السقوط على الثلج يوقف ضحكنا من أنفسنا. كأنها غزالة وكأني صياد عجوز طيب يلهو ولا يريد بها شرا. أسقط فترميني بكرات الثلج وتضحك. فأضحك على خيبتي لأن كل هذا العمر مر، بلا ضحكة واحدة من القلب.

بيت الغابة الوحيد كزورق في محيط من الأشجار، أصبح فجأة الجنة المشتهاة. تعانقنا تحت عيون الأقنعة الخشبية المسلوبة من إفريقيا البعيدة. فابتسمت لنا وأغمضت عيونها. لتعطي لذوابنا خصوصيته. كنا

نلهث كذئاب البرية. نعوي من النشوة والفرح. نجرح صمت المكان بأغنية آدم وحواء الخالدة. نتعلم معنى الذوبان. تحرق وجوهنا أنفاسنا الملتهبة بالشوق. لكننا نكبح اللهفة بفضيلة البطء، لنعيد اكتشاف أرواحنا الجديدة كعاشقين. أتحسس جسدها بأناملي التي ابتكرت قدرتها على العزف. تتلمس الجسد المشتهى كأصابع موسيقي عجوز يحن على الأوتار، فتهبه الموسيقى التي تُفتح لها أبواب الجنة. تداعبني أصابع مود فترتخي عضلاتي كأنني تمثال يسخر روحه لفنان يمتلك موهبة إعادة تشكيل الكمال البشري في جسد حي.

توقف الزمن للأبد، فأغلقت عيوني على سمرائي الفاتنة. أراني معها على شاطئ المحيط الشاسع موجة حنون تحتضنها بفرح طفولي. تلمس مود كتفي فأصبح فرسًا جامحًا يعبر السهول ليصل إلى قمة جبل يرى العالم ويمتلكه. تحط شفتاها كفراشة على رقبتي فأتوتر، وترفرف أجنحتي كطائر نورس. تضيع مسافات البحر اللانهائي تحت إصرار أجنحته المسحورة برقة الأزرق، دون حسرة على بعد الأرض الخضراء.

دارت الدنيا برأسي كرجل عاش ألف عام لا لشيء سوى السكر من خمر النشوة، فأصابته حمى التحسس. كل حواسي احتواها جلدي. محاولا ارتداء جسد مود كعباءة، تماما كما رأيت في هذياني عند نبع ماء السكان الأصليين. ألتصق أكثر بالجسد الشهي كأنني أرغب في السباحة في شريانها، لأنها المكان الأكثر أمانا في العالم. كل لمسة بستان خاص وعامر. ألاف العطور والأزهار تجتاحني وأنا أتنقل كمجنون عاش محروما من الجمال والمحبة. حتى وشمك الأبيض الذي أخافني دوما من نعمة الوصال، كان له طعمه الخاص تحت يدي المرتعشتين، كفرحة سجين بالتحرر، حتى لو مات بفعل هواء الحرية الذي نسي رائحته.

وعندما نفد صبرك يا حوريتي الصغيرة، وقررت الوصول إلى المبتغى. كنت تهمسين في أذني بأننا أصبحنا جسدا واحدا يا حبيبي. تكررينها بنبل وتبتل في أذني، كأنك في صلاة طويلة لا تتمني أن تنتهي سوى بانعتاق روحك، مرضية بنعمة الحب الذي لم يعرفه الكثيرون في حياتهم أبدا.

لكن فجأة أشرقت الشمس وفضحتنا. شمس سوداء حقودة وسافلة. شاهدته مود أولا، فتوقف جسدها عن صلاة العشق. كان يقف خلفي مباشرة. تبخ حيتا الكوبرا المرسومتين على عنقه سمومهما في عروق حبيبتي. چون سبيستيان أندريه اللعين، يتابعنا بحقد لا يوصف. عيناه جاحظتان ووجهه مسود من الحقد. يرتعش جسده الذي غطاه العرق. يهمهم بتعويذة كراهية قادرة على تسميم أنهار العالم. يتكلم بلغة لا أفهمها فترتخي عضلات مود بين يدي. أحاول الصراخ فيختفي صوتي. مشلول تماما لا أقدر على إيقاف الجريمة.

تسلطت فجأة لوحة الصرخة المعلقة فوق سريرنا كخلفية حية للمشهد المشئوم. سماء عيني حمراء دموية وصراخ اللوحة الصامتة يسرق صوتي. ذهول وجه لوحة الصرخة المعذب بالشقاء الأبدي يتقمص وجهي. وقبل أن أفيق من المفاجأة. بصق الشيطان في وجهي قائلا: «خائن». لأكتشف أن مود جثة بين يدي.

* * *

رددت على أسئلة المحققين بأقل إجابة ممكنة. بعد أن شُخصت الوفاة بهبوط حاد في وظائف القلب، كما أخبرتني هناء محمود بوجه شمعي بلا تعبير. لكنهم لم يسمحوا لي بإلقاء نظرة وداع أخيرة على فتاة عمري. حولني موت مود بيير إلى شبح إنسان يحركه الحزن والغضب. حتى تيكانا وكرما منعتاني من حضور قداس الكنيسة خوفا من أن تزداد حالتي سوءا، بعد أن فقدت القدرة على المشي والكلام لأيام انقطعت فيها تمامًا عن الأكل والشرب. لكنهما سمحتا لي بحضور الجنازة، كي أتوقف عن البكاء والتضرع لهما بعيون كلب حزين فقد صاحبه. فوضعتني تيكانا على كرسي متحرك واصطحبتني إلى جنازة مود الغالية.

وفي الأيام التي سبقت الجنازة، تجسدت لي المشاعر التي لم يرها بشر. الحزن بجسده القصير الممتلئ ووجهه العجوز الكئيب. يصنع قهوتي ويجالسني نرتشفها معًا. يكمن في أحضاني كطفل صغير لا يكف عن البكاء. يحتضنني ويضمني إليه فتئن روحي. يغرقنا العرق وتتلون جلودنا بالسواد. تمر الكراهية أمام عينّي بجسدها الفارع الخشن. شابة لحوح لا تسكتها وعودي المتكررة بالانتقام. تحترف البصق في وجهي واتهامي بالجبن. يشاركني الندم الفراش بجسده النحيف ووجهه الممصوص. تحتك عظامه البارزة بجسدي كإبر توقظني كلما أغلق التعب جفوني. يتسلل بخبث لحن مشئوم ويسكن عقلي، يكرر بأنني المسئول عن كل ما حدث لي ولمود.

يرقبني من بعيد الجنون. كملك طاغية يرتدي ملابس مهرج خفيف الظل. لا يتحدث أبدًا. لكنه لا يكف عن فرد ذراعيه لي مرحبا وواعدا بعوالم سينتهي معها شقائي الذي لا يحتمل. يحاول دائمًا إبهاري بألعاب يخرجها من كيس كبير يحمله فوق ظهره. ألعاب يطوحها في الهواء فتصنع عوالم كاملة من البهجة أو الكآبة. يغير مجال الفضاء ويريني ما يجعلني أبكي وأضحك في الوقت ذاته.

كانت مشاعري الغريبة كلها تحاول السيطرة على ذهني المشتت والمريض منتظرا جنازة مود بيير. وحده الموت الذي لم يدخل اللعبة الشرسة. أتى مرة واحدة فقط وهمس في أذني بكلمته التي لم تفارقني: «أنا الطريق يا صديقي للخلاص. معي تنتهي الآلام. معي تبدأ أيضًا الحياة، التي ستجد فيها ما فقدت». ليخرج ساحبا الظلام من شقتي، التي اختفى النور منها بمجرد دخوله. لم أر ملامحه ولم يستطع عقلي تخيل شكله، الذي يجب أن يكون مخيفا. لم يقدم نفسه لي. ولم أسأله عن كينونته. لكن حضوره كان أكبر من أن يُعرف. وكلماته أهم من كل المشاعر التي تلاعبت بعقلي.

في الجنازة المنتظرة لأيام. كنا مجموعة صغيرة من المعزين. أصغر كثيرًا مما تستحقه مود بيير صانعة البهجة والبراءة. أقل حتى من أحزانها وأيامها الصعبة الطويلة التي مرت سريعا في عمرها القصير. أصغر من آلامها التي صنعها أب وأم لا أستطيع وصفهما إلا بالجنون والأنانية. نستمع للخطبة القصيرة التي ألقاها متعجلا كاهن الكنيسة عن ملكوت الله الواسع الذي يسعد فيه أصحاب القلوب النقية كحبيبتي. نكون نصف دائرة أمام التابوت الأبيض الذي يضم جسد ملاكي الأسمر. يعاود الغضب ملء روحي، فتتوقف كل الدموع التي لم يكف جريانها

على خدَّي لأيام. أتنفس بصعوبة وتتسارع الرؤى أمام عيني. محاولا ألّا أسقط في الهلاوس. لكن عينّي تلهمانني الرؤية التي تستحقها مود الجميلة. بينما فتاة الأنكا الحزينة تقف صامتة إلى جواري. تنظر لي ولتابوت مود بوداعتها وابتسامتها الحزينة. فتزيح مود غطاء التابوت الخشبي وتخرج مرتدية فستانها الأبيض الفاتن التي أمضت به ليلة بداية العام. تقترب مني وتطبع قبلة على شفتي. تخبرني بأنه يجب عليّ أن أتركها للرحيل. وبأنها ستكون أكثر سعادة بصحبة صديقة أحلامها الصغيرة. وبأنها ستنتظرني هناك في العالم الذي لا يعرف الموت أو الأحزان. وبأنها تحبني أكثر مما تخيلت أنها تستطيع أن تحب. تقبلني على خدي وتمسح دموعي. تشكرني على أنها اختبرت معي الحب الذي طالما عاشت لتعرفه. قبل أن تهمس في أذني «إلى اللقاء» وتمسك بيدها فتاة الأنكا وتجريان معا. بعيدا عن التابوت والمقبرة التي لا تستحقها. ربما إلى هناك حيث قمم الجبال أو إلى الفردوس المنتظر الخالد. فلا يهيلون التراب إلا على تابوت فارغ. لا يحق له أن يضم عظام فتاة خالدة كمود بيير. لأبتسم لأول مرة من أيام ويجتاحني البكاء. تحتضنني تيكانا وتغني لي بصوتها الأجش أغنية بلغتها التي لا أفهمها. لكني أرى من بين دموعي دموعها التي تتساقط على وجهي.

لشهور بعد الجنازة امتنعت عن الذهاب إلى المستشفى. انقطعت تماما عن العالم الذي أعرفه. حتى محاولات هناء المستميتة للوصول لي، انهيتها بردود غاية في القسوة. داومت فقط على المشي لساعات في شوارع مونتريال وحدي. أصابني الهزال والرعشة كعجوز ثمانيني. كنت أستيقظ صباحا لأمشي اليوم بطوله متأملا شوارع مونتريال. أبحث عن چون سبيستيان أندريه غضبان وحائرا كشخص يحاول الوصول إلى

شوكة آذته في مدينة بحجم العالم. مونتريال التي أحببتها بصدق ومودة. لكنها لم تعطني سوى عاري الشخصي ووحدتي. أفكر طوال اليوم في طريقة مناسبة للانتحار تسبب لي أقسى ألم أستحقه. لكني أتوقف عن إنهاء حياتي على أمل أن أجد چون سبيستيان وأقتله. لكنه اختفى وكأنه دخان لم يكن أبدًا. أتفحص جلدي باحثا عنه. أسأل عنه المباني الشاهقة، أشجار الحدائق، لوحات الإعلانات، غيمات السحب، أي شيء يمكنه أن يساعدني. وعندما ينهكني التعب، أجلس وحيدا أبكي من الغضب والحيرة، متخيلا سيناريوهات قتل سبيستيان اللعين، من دون اهتمام برواية هناء محمود التي تركتها لي عشرات المرات على جهاز التسجيل الخاص بهاتف منزلي، مدعية بأنهم وجدوا جثته متفحمة في أحد محال الوشم بأطراف المدينة. تشوش رؤيتي أصوات وأطياف لأشخاص رحلوا، فأصرخ في وجوه المارة المتعاطفين معي. لأعود مكدودا في آخر الليل فأجدها في انتظاري.

الوحيدة التي بقيت لي بعد كل هذا الجنون الذي مر بي. سامحتني ببراءة وكأنها أمي التي لم تغضب مني أبدًا. رغم كل محاولاتي لطردها من حياتي بعنف لم أعهده في نفسي. تقابلني على باب شقتنا وتخلع عني معطفي. تأخذني لتضعني في الحمام كطفل مشاغب. تغني لي بالساعات ربما تزيح عني همومي في البحث عن وهم لا أعرفه. ولأول مرة منذ معرفتي بها تخلت بكامل إرادتها عن افتتانها المرضي بجسدها. اختفت غيمة روائحها المعتقة غالية الثمن. فقط أصبح لها رائحة أنثى طيبة كأمي. تنمو في أحشائها معجزتنا الخاصة. طفل يحمل إرثي وإرث جدودي في ترحالنا الدائم بحثا عن هوية نتمناها ولا نعرفها.

هناء محمود.. المصرية الرائعة التي تحمل كل جينات المصريات

الطيبات. التي أصبحت زوجتي وأم ابني المنتظر، في لحظة لم يصبح من الممكن أبدًا تذكر تفصيلاتها. غيرتها تجربتي المريرة في البحث عن نجاة لروحي بعيدا عن ثوابتها التي تنتمي لمجتمعنا البعيد. كنت مرآتها التي أهدتها لها ثقافة كندا التي حاول كلانا أن يغزوها ويتصالح معها. كانت أذكى مني كما أيقنت دائمًا، فهربت إلى العالم الذي تستطيع أن تفهم قواعد لعبته.. «أسرة صغيرة مع مصري ستستمتع معه بمشاهدة أفلام شاهداها عشرات المرات، وهموم خاصة بمستقبل الأولاد والبنات انتظارا للموت».. شجاعة جدًّا في الوصول إلى أرض تستطيع النجاة فوقها لتشكيل حياة تملكها.

هناء محمود.. الوحيدة التي لم تخذلني بعد أن تناساني الجميع، حتى نفسي ذاتها. الوحيدة أيضًا التي استطاعت حل كل تفصيلات اللغز وأعادتني إلى المكان الذي وجدت فيه الشفاء الذي لم أكن أبدًا أهتدي له بدونها.. واحة سيوة.. كنز أبي الذي تدور عنه رسالته، والحكاية التي هي أعجب من حكايتي ألف مرة.

* * *

رسالــة أبي..

أشرف الحبيب. أكتب هذه الرسالة الطويلة من أجلك بعد أن قررت الهرب والبعاد. كم هي غريبة أقدار البشر. ربما كنت سأريح ضميري باتهامك بالعقوق والتمرد لو لم أسبقك في فعلتك هذه بعشرات السنوات. لكن الشبه بيننا يتخطى كثيرًا حدود التشابه. ولأعوام طوال كنت أكرر لنفسي بأني لن أملك الشجاعة كي أخبرك. ولن تملك الصبر لكي تستمع لحكايتي، التي احتفظت بها كسر مخجل وحزين لا يجب لأحد أن يطلع عليه.

تنتابني الحيرة يا ولدي متسائلا. وما الطائل من ذلك؟ معاودة كتابة ما كان يجب عليَّ أن أقرأه لنفسي عندما كنت في نفس عمرك. أليس ظلما أن أجعلك مرآتي التي لم أتحرك من أمامها قبل أربعين عاما. فأحكي ما يستحيل عليك أن تعرفه. لكن العالم لن يثبت حركته أمام المرآة بجنون مثل جنوني. فكبرت سريعا من دون أن أسمح لك يوما بملامسة شرنقة روحي التي غلفتها بتكبر أبوي صارم. مارست عليك الأبوة كشرقي منغلق، معتقدا أنني أعلمك معنى الرجولة. من دون أن أسمح لأحد بأن يرى دموعي. لأني ابن الواحة والصحراء. لا ضعف علني لأبناء الصحراء يا ولدي. لهم فقط روح حائرة في المدى وسماء تسع كل نجوم الدنيا. لكنها لا تعترف بالمطر أو الدموع.

وما الطائل من ذلك يا ولدي؟ أن أكتب لك وأنا على يقين بأن كلماتي هذه لن تُقرأ إلا بعد هروبي بالموت الذي يجالسني الآن ملحًا في طلبه بالانتهاء. من دون أن أسمح لك بطرح الأسئلة عن حياة أبيك الذي لم تعرفه. أبيك الهش الذي لبس كل الأقنعة كي يقنع الجميع بجبروته. لكنه سيموت لأنه لن يحتمل فراق ابنه، الذي تعمد ألّا يضمه إلى صدره أبدًا. ربما لأن الأحضان زاد المرتحلين وزيت قنديل السفر. وأبوك يا أشرف أدمن كراهية السفر.

كنت أتفهم دموع مراهقتك يا صغيري. كشمس ولدت في بيتنا تضيء وتنتظر الشروق على عالم جديد لا نعرفه. كانت أمك مهمومة بهذه الدموع التي قابلتها أنا بكثير من الصمت. لكني كنت أفهمك يا أشرف. من دون أن أملك الشجاعة كي أخبرها بأنني مررت بنفس الدموع التي لا تعني سوى انتظار الرحيل للبعيد يوما. قرأت كارل يونج قبل أن تقرأه بسنوات طويلة. ومعه تعلمت أننا لسنا سوى محصلة تجارب أجيال من الجدود. لا اختيار لنا. لم تحتويني الواحة ولن تحتويك المدينة. لأننا أحفاد الرُحَّل في الصحراء الشاسعة. وكأن أرواح جدودك تولد في أجسادنا. نحن الخائفين دوما من الاستقرار والحالمين دوما به. لذلك تمنيت كثيرًا يا ولدي أن آخذك معي إلى سيوة كي ترى بعينيك ما كان. تزور الصحراء وترى مقابر أسرتنا. فتعرف روحك إلى أي الرجال تنتمي. لكن العمر مضى من دون أن أجد في نفسيّ الشجاعة لفعل ذلك.

سامحني يا أشرف واقرأ لروحي القرآن كثيرًا. الحياة اختبار صادق للألم وما يسمونه الأمل. تمنيت أن تكتشف دروبها

بنفسك. وقتها كنت شابا يحلم بالتحقق والحياة رجلا. كنت أؤمن بأن وعورة الطريق تجعل المسافر أكثر انتباها وقوة. فحرمتك من الحكايات التي تعطي الرحلة مؤانستها. كنت أقول لنفسي ماذا سيتعلم من حكايات واحتك التي هربت منها بسذاجة آدم! كم كنت طائشا يا صغيري. لكني بعد كل سنوات عمري هذه تعلمت. أخبرني الهرم الذي اجتاح جسدي بخفة نسمة صيف. بأن كل الحكايات التي اختبرتها طفولتي هي التفسير الوحيد لإنجابي ولدا رائعا مثلك. فقررت أن أكتب لك بعضا مما كنته. لأنه إرثك وإرث أجدادك الأهم. ربما يكون زادك الوحيد في رحلة سفرك الطويلة.

ولد أبوك يا أشرف في الليلة الكبيرة لعيد السياحة. هناك في العراء تحت سفح جبل الدكرور بشالي غادي. كنا في الليالي القمرية لشهر أكتوبر. وكما جرت عادة الجدود من ثلاثمئة سنة، تجمع أهل الواحة لإحياء التقليد الذي ابتدعه جدك الشيخ محمد مدني الظافر. شيخ الطريقة المدنية الشاذلية رحمه الله. فأخلوا الديار وصعد الجميع إلى الجبل الذي يقع على أطراف سيوة. يتناولون الطعام مجتمعين مستجيبين للنداء، «واعلم». كلمة واحدة يا ولدي لا بد أن يستجيب لها الكبير والصغير فيأكلوا جميعا معا. متناسين كل أحقاد السنة. كلمة جمعت كل حكمة جدودك وصبرهم على الحياة في قلب الصحراء الموحشة. «واعلم» يقولها شيخ الواحة فيتعلم الجميع كل الذي مضى وكل ما هو في الانتظار. «واعلم» التهديد، تذكر المتخاصمين بأن الهجر والعناد سم المعزولين في غياهب صحراء تأكل العابرين بجوع وعطش ومتاهة.

«واعلم» الترغيب، تبشر المتصالحين بجوهر المحبة الذي تطرح به غصون الزيتون وشواشي النخيل. «واعلم» المطلقة، تخبر أهل الواحة بأنه في السماء رب اسمه العادل الجبار، فلا قدرة لظالم على مظلوم إلا بمشيئته هو. الخالق الذي لا يرد مظلوما رفع يديه للسماء.

ليلتها كانت أمي «حنة» مجرد طفلة فرحة ببطنها المنتفخ. تنظر إلى الراية الخضراء لأبناء الشاذلية المدنية وتستبشر بأني ذكر. يرث ورع جدي مولاك المدني الذي ألف القلوب وأنهى الصراعات بين البطون والعشائر. ضاحكة من زوجها حسن، الشاب الوقور صاحب الهيبة وقد لبس ملابس الشحاذين. مر هو وأكابر الواحة في زيهم العجيب هذا. يجمعون الطعام من الخيام والبيوت التي تقع على أطراف الواحة. ليصنعوا هرما من العطايا. ويقيموا الحضرة إلى جوارها. حتى إذا ما انتهى القوم من حضرتهم. هجم الأطفال فأكلوا ما أكلوا وحملوا إلى خيام أهليهم ما أستطاعوا. ليقطع ضجيج الأطفال صوت صراخ أمي معلنة قدومي للحياة. فيبتسم الرجال العجائز ويهنؤن جدك حسن. بينما النساء يزغردن لميلاد الذكر الذي سيكمل سلسال سيدنا مدني. وكأن ميلاد أبيك رسالة يبعثها جدك المدني الكبير من رحيله في دار الحق. مباركا أهله وخصلتهم الحميدة في المداومة على عيد السياحة. ليلتها سموني مبروكا لأني باركت الواحة وأهلها. وغيروا اسم أمي إلى المبروكة بعد أن كان حنة. فأصبحت المبروكة أم المبروك. من دون أن يعلموا أي قدر سيحمله لهم هذا المبروك. لأنهم أناس طيبون رغم كل ما فعلوا بنا أنا وأمي.

آآآآآه يا ولدي لو كان لي لسان يومها، ما كنت خاطبت أحدا إلا أنت. لأنك الساكن في الآتي البعيد. ولكنت تحدثت لك كما كان يتحدث جدودك وهم يتصايحون مبتهجين حول صحون الطعام. فأخبرك بكلمة سر من تحمل دماءهم كوشم بروحك. فأصيح بك «واعلم» بأن قسوة الأحباء أشد وجعا من حد السيوف. «واعلم» بأن النهايات لا تولد من رحم البدايات. «واعلم» بأن قلب المحب خوان لا يصون كرامة ولا يرفع رأسا. لكنني كنت طفلا يا ولدي كأمي لا نعلم ما خبأه لنا القدر.

تمنيت كثيرًا يا ولدي أن تقابل جدك حسن المدني. هذا الشاب الذي أعطاه الله من كل الأسباب فأصبح زينة الواحة وفارسها. بعثه أبوه إلى الأزهر الشريف ليكون شيخا وفقيها كجدك المدني الكبير. فحفظ القرآن وعاد إلى الواحة في أشهر معدودات. أقام له مشايخ العشائر الأخرى حلقة للتسميع وتقييم حفظه لكتاب الله. علهم يجدونه هرب من الأزهر وقسوة مشايخه. فيصبح وصمة عار في جبين أبيه وقبيلته. لكنه أبهرهم بحسن حفظه وطلاقة لسانه. فأقام أبوه حضرة ذكر حمدا لله، وذبح عجلا سمينا أكل منه الجميع. ولأنه أصبح رجلا في عيون الجميع. خطب له جدتك حنة. الطفلة التي لم تر واحة سيوة جمالا كجمالها. ليدخل بها وهي ابنة خمسة عشر عاما. فيصبح لها الصديق والأخ والسند. وتصبح حكايتها الحكاية الأعجب في تاريخ أهلنا.

كانت جدتك حنة يا أشرف حكاءة لا تضاهيها حكاءة في الواحة. ورغم صغر سنها فإنها حفظت كل حكايات الجدود

والجدات. يستمتعون بحسن معشرها وخلقها. يتبركون بها لأنها ابنة شهيد. جدودها من نسل النبي. قطع جدها الولي الصالح المسافة من ضريح السيدة زينب إلى واحة سيوة في يوم وليلة. مرددا اسم الله الحفيظ. وحيدا في طريق يحتاج إلى أسبوع أو أكثر. بصحبة دليل خبير بالصحراء ودروبها. موفيا بنذر نذره للعلي القدير. بأن يهب نفسه لخدمة مقام رجل جعله الله سببا لصلاح حال العباد. فصلى الفجر وقرأ الفاتحة في مقام جدته السيدة زينب. وخرج متكلا على الله وفي سبيله. يتتبع الطير في السماء مستظلا بغمامة تقوده، إلى حيثما يريد فالق الحب ومسير الرياح. فيجد نفسه على تخوم الصحراء بحدود قاهرة المعز الغربية من دون الوصول إلى مبتغاه. لا الغمامة توقفها الرياح، ولا يظهر لعينيه مقام ولي من أولياء الله. فيستمر في تتبع الغمامة وقدره. يختفي من عينيه الحضر ويذوب في قلب الصحراء بلا زاد إلا اسم الله الحفيظ. تقابله قافلة تجار مغاربة عائدين من الحج. فيأكل طعامهم ويسألونه عن وجهته. يخبرونه بأنهم يقصدون واحة اسمها سيوة سيصلونها بعد أسبوع. ليستريحوا ويتزودوا بالماء والتمر. قبل أن يكملوا رحلة العودة إلى الديار. ويخبرهم بأنه لا يعلم من طريقه إلا أنه في صحبة الحفيظ ولا يقصد إلا وجهه. فيستبشرون بصلاحه والنور الساطع من وجهه. ويستبشر هو بزيارتهم لقبر جده المصطفى. ليغادرهم متتبعا غمامته التي انتظرته حتى استراح وشرب من ماء زمزم الذي حمله الحجيج. ليفاجئوا به عند مقام جدك. سيدي مدني بالواحة. يخدم الزائرين وينظف المقام ويرشه بالعنبر

وماء الورد. وقد سبقهم بست ليالي كاملة. فيخبروا أهل الواحة بقصته وصلاحه ونسبه. ليصبح عند أهل الواحة من المباركين. يتسابق شيوخ العشائر في خطبته إلى بناتهم حتى ينالوا شرف مصاهرة أهل البيت. رغم أنه العربي وهم أبناء الأمازيغ. وأنت لا تعلم يا ولدي ماذا فعل قبائل العرب البدو بالأمازيغ من أهل واحتنا الطيبة.

سموه الشيخ عبد الحفيظ من دون أن يسألوا عن اسم ولادته. لأنه لم يخبرهم باسم ولادته. فرحا باسم الله الذي عبر به الصحراء وقحلها وحيدا إلا من صحبة خالقه. زوجوه بنت شيخ قبيلة الزناين أكبر قبائل أمازيغ الواحة. فأنجبا جدك محمود الذي مات دفاعا عن الواحة ضد بدو رُحل، تعودوا الهجوم والخطف وحرق ما تصل لهم أيديهم. فتربت جدتك حنة يتيمة. ينال الجميع شرف التبرك بها والتقرب لله برعايتها. هي الطفلة التي تنتمي لأهل البيت. ابنة الشهيد الشجاع والولي الذي مات فقيرا كما أتى إلى الديار.

أخبروا أباك يا أشرف أن فرح جدتك حنة وجدك حسن استمر لأسابيع. لم تنم الواحة فيها من السعادة بالفأل الحسن. فحافظ القرآن وزينة شباب الواحة سيتزوج بحنة المبروكة. اجتمعت النساء يزغردن ويرقصن في دار العروس. تذهلهن حنة بحكاياتها التي استمعتها طوال سنوات تنقلها في بيوت من عطف عليها.

تحكي فيصمت الشيخ قبل الطفل. تمزج حكايات الواحة التي يحفظها الجميع عن ظهر قلب، بحكايات عجيبة عن فرسان وقبائل وملوك لم يسمعوا بها أبدًا. يقول عنها من

يحبها من نساء وعجائز قبيلتها بأنها معجزة بركة آل البيت. لم ينقطع عنها آثار وحي النبوة. فتتحدث بما لم تسمعه أذن قط. وتتبع نساء وعجائز القبائل الأخرى نار غيرة قلوبهن. فيخبرون عنها ـ سرا ـ بأنها شيطانة تتسمع حكايات الجن عند عيون مياه الواحة فتخبر بما تخبر من أعاجيب. ليزدن، بأن الشيطان علمها لغة الكفار الذين عاشوا في الواحة من قرون بعيدة. قاصدات لغة الفراعنة والرومان من سكان الواحة الأوائل. وبأنها تخرج عند اكتمال القمر. تزور معابد الفراعنة وتقرأ ما كتبوه على معابدهم من حكايات وأسرار.

وبين هؤلاء وهؤلاء، لا يتتبع جدك حسن سوى قلبه الذي هام بجمال تلك الفتاة الجميلة. التي وقع في سحر جمالها وفتنة حكاياتها.

عشت يا ولدي طفولة رائعة في صحبة أبي وأمي. كنت أستمتع فيها بحكايات أمي حنة المبروكة. لأنام أحلم بأنني أصبحت كاهنا طيبا في معبد التنبؤات. أستعد مع أبناء شعبنا لتأمين الواحة ضد جيش قمبيز الفارسي المجرم. أنظر إلى حركة النجوم في السماء، فأنبؤهم بنبوءة غرق جيشه في بحر الرمال. بعد أن تهب الرياح فتمحو أثرهم للأبد. فتفرح الواحة بنبوءتي التي تتحقق. وأصبح بطل الواحة.

أنام وأحلم، فأراني في حلمي قد أصبحت الإسكندر المقدوني. أستحم في عين الحياة بينما الرعية ينتظرونني لأنصب ابنا للإله. فأكون فرعونا عادلا، غير فرعون موسى الذي لا يكف أبي عن لعنه. ودائما أبدًا، أنام وصوت أمي حنة يرتل القرآن والأدعية في أذني. فأشعر بالأمان وبأن

واحتنا هي الجنة التي خرج منها آدم إلى الأرض. وأن أمي حنة واحدة من بنات الحور. اللاتي يبدع أبي في وصف جمالهن للمصلين في خطبة الجمعة.

كان بيتنا الصغير يا ولدي هو أسعد بيت في الواحة. عاشق وعاشقة وبينهما طفل لا يكف عن اللعب وابتداع السعادة. إلى أن أتت الرياح كعادتها بما لا تشتهي السفن. مرض أبي مرضا قصيرا. مات على أثره وهو في ريعان شبابه. لترينا الدنيا وجهها الذي لم نعرفه يوما. تحولت أمي إلى «غولة»(*) كما تقتضي عادات الواحة. فحبسوها في بيت جدي لأبي وحيدة لمدة أربعين يوما. منعوني فيها من زيارتها حتى لا يصيبني نذير الشئوم الذي يصاحب الأرامل. الغولة يا ولدي اسم وقدر بغيض جلبه أهل الواحة من عادات الأفارقة الزنوج من زمن بعيد. فاعتادوا ممارسته على الأرامل من بناتهم فور وفاة الزوج. من دون أن يجدوا سببا مقنعا سوى الحفاظ على عادات الآباء والجدود، مخافة الجن والغيلان والعين. تُحبس الأرملة في خلوة لا ترى فيها أحدا. يحرم عليها مخالطة أهلها أو حتى النظر إلى وجهها. ترتدي ملابس الحداد البيضاء. لا يقترب منها أحد سوى خادمة يسمونها «الشوشان» تقدم لها الطعام من فتحة صغيرة في الباب وتهرب. وعند نهاية المدة المحددة للحداد، ينادي المنادي من فوق أسطح البيوت. بأن الغولة «فلانة» ستخرج للاستحمام بعين «طموسي». فيلزم كل أهل الواحة بيوتهم. وتمنع الأمهات الأطفال من اللعب في الحواري حتى لا تراهم الغولة، فتصيبهم بشؤم قدرها. تمشي وحيدة في طرقات الواحة التي اختفى منها المارة

تتبعها الشوشان من بعيد. وعند عين الماء تخلع الغولة كل ملابسها وزينتها وتغطس في العين فتغمرها المياه. عندها تقترب منها الشوشان وتساعدها في ارتداء ملابس جديدة لم تلبسها قط. وتعود إلى بيتها مصحوبة بنفس صيحات التحذير والترهيب إلى دارها. حتى بعد أن محت عنها مياه العين وصمة موت زوجها. يستقبلها من تبقى لها من أهل وينتهي عندها حداد الغولة.

كانت تلك الأيام يا أشرف أصعب أيام حياتي. فقدت فجأة فيها سند أبي، وحنان أمي وروعة حكاياتها. وبدأت أختبر نفس طفولة أمي التعيسة. كطفل يجلده مصير اليتيم والوحدة. لكني بدلا من أن أحتمي من مصيبتي ببيوت الواحة وناسها الطيبين، كما فعلت حنة الصغيرة. اعتزلت الأقارب وأصدقائي الأطفال.

أصبحت نهاراتي كلها محاولة لإعادة اكتشاف الواحة. أتنقل بحرية بين بيوتنا في شالي وما تبقى من أثار للفراعنة ومن سكن الواحة من الجدود. أقف بالساعات متأملا الرسوم والزخارف محاولا فك طلاسمها. ربما تخبرني بحكايات ساحرة كحكايات حنة. لا أفهم شيئا من الرموز والكتابات. لكني أشعر بأني أنتمي إليها. وبأنها تريد أن تخبرني بشيء لا أفهمه، لكنه يجعلني أكثر سلاما وسعادة. لا أخاف من الدخول إلى الدهاليز والحجرات الفارغة إلا من الكتابات العجيبة كأطفال الواحة. حتى أصبحت التماثيل والكلمات والرسوم أصدقائي الذين تؤنسني صحبتهم.

ومع مرور الوقت وغياب من يهتم بشأني. بدأت رحلاتي

تبتعد إلى أطراف الواحة. لا تقلقني الأخبار التي لا أفهم معناها عن الحرب الدائرة في الجوار. لا أعرف الفرق بين الألمان والإيطاليين والإنجليز. هؤلاء الذين تشعل أخبارهم أحاديث العجائز خوفا ورهبة حول جلسات السمر وشرب الشاي الأخضر. أميز قائدا يسمونه روميل يتكرر ذكره بكثرة. لكني لا أعرف لأي فريق ينتمي. مرددين مآثر دهائه وقدرته على هزيمة أعدائه، الذين لا أعرفهم أيضًا. أستمع إلى مخاوف الشيوخ من غزوات قبائل البدو. التي قد تضطرهم الحرب إلى الهرب إلى واحتنا. رغم ما بيننا وبينهم من عداء. بعد أن اعتادوا الهجوم علينا وسرقتنا.

في يوم جمعة اشتد شوقي إلى أمي حنة المبروكة. أتذكر هذا اليوم يا أشرف وكأنه أمسنا القريب جدًّا. رغم كل هذه السنوات التي مرت بسرعة لا توصف. انتظرت حتى هدأت الحركة في بيت جدي لأبي الذي لم نكن نمتلك بيتا غيره. كنا وقت راحة القيلولة قبل صلاة العصر. فخلا البيت من عماره المستريحين في غرفهم. فوقفت بباب الحجرة التي حبسوا أمي فيها أبكى. أنادي باسمها فلا تجيبني. يزداد بكائي وغيظي. أضع أذني على الباب الخشبي الكبير. أتنصت على صوت بكائها المكتوم في الحجرة. تنوح بصوت مجروح باسم والدي، تعاتبه لأنه خذلها بموته. تسأل روحه باستعطاف: «ماذا فعلت حنة يا حسن لتتركها وحيدة؟ حنة ومبروك يحبانك يا أجمل من رأت عيناي. لماذا الموت يا بن الناس؟ الموت مخيف يا حسن. أحضن الموت أطيب من حضن حنة؟ أرائحة القبر أحب لك من عطر حنة؟ أصحبة

الديدان والتراب أجمل من مجالسة حنة؟». وأنا من وراء الباب أستمع إلى نحيبها وأبكي. فأرتكب الجرم الذي لم يكن عليَّ فعله. أشب بقدمي الصغيرتين حتى ألامس مقبض الباب وأفتحه. فتراني أمي وأرتمي في حضنها. نبكي معا وتبلل دموعنا وجهينا. أشم رائحة أنفاسها على وجهي الذي تقبله في كل مكان. فأسكر بالمحبة التي حرمت منها لأسابيع مريرة. ولا أفيق إلا على صوت صرخة وعويل خارج الحجرة.

جدى ينتزعني من حضن أمي ويركلها فتسقط أرضا. يتهمها بأنها ستجعلني مشئوما عمري كله. أراها من بين دموعي وقد تكومت على نفسها أرضا، فأركل جدي كما ركل أمي وأهرب من قبضته العجوز. أدعه يبكي على ولده. نساء الدار يولولن على المصيبة التي أصابتهن. بعد أن كسرت الغولة حدادها. واحتضنت ابنها الذي ربما سيصيبه الشؤم إلى الأبد. أخرج من البيت أجري تملأ المرارة حلقي.

* * *

كنت أجري يا ولدي بقدمي الصغيرتين تحرقهما رمال الطريق الساخنة كالجمر. تتساقط الدموع من عينّي ويملؤني غضب لا حدود له. لا أعلم إلى أين أتجه. أتمنى أن أموت كي أقابل أبي وأنقل له حزن أمي الحبيسة. أهرول لأن الأرض ساخنة جدًّا. قدماي ملتهبتان كعينّي اللتين هيجتهما الرمال التي تثيرها خطواتي المذعورة الغاضبة. جريت كثيرًا يا ولدي. وكلما تعبت، حاولت الجلوس لأرفع قدمي الحافيتين من على الأرض. لكن الشمس كانت في عرشها ترسل الجحيم إلى

الرمال فتلهبها. تحرم النخيل من ظله وتحرمني من التوقف بعد أن أصبحت الواحة وبيوتها خلف ظهري. تكاد مؤخرتي تحترق بمجرد الجلوس. فأعاود الجري باتجاه الجبل الذي طالما سمعت عنه الحكايات والأساطير المخيفة.. جبل الموتى، بمغاراته وعيونه التي يخشاها أهل الواحة. لأنها مليئة بجثث من ماتوا من زمن لا يذكره أحد. ألقي بجسدي الصغير في أول مغارة من مغارات الجبل. لا أستطيع المشي على قدمي الملتهبتين كقطعتين من اللحم المشوي. أعاود البكاء خائفا ووحيدا. أتمنى العودة إلى بيت جدي حتى لو ضربني.

وفي جبل الموتى، أذهلتني المفاجأة من بين غشاوة دموعي. رأيت يا أشرف ما لم أر في عمري الصغير شيئا مثله. رسوما وطلاسم ملونة أزهى عشرات المرات مما اعتادت عيناي مشاهدته في معبد الوحي وما تبقى من معبد آمون. بدأت في الحبو على يدي وركبتي متعمقا أكثر إلى الداخل. تسحرني رسومات حيوانات وملوك وآلهة. يستعذب جسدي رطوبة المكان وهواءه البارد كلما تقدمت في الدخول. ليتخدر جسدي الصغير بعد إرهاق المسافة الطويلة التي قطعتها جريا. أحتضن بجسدي الصغير الأرض الباردة. فأنام وما زالت آثار البكاء في عينّي.

لا أعلم يا ولدي كم من الوقت نمت. لكني استيقظت بفعل برودة الجو وعطشي الشديد. أفتح عينّي فأجد المكان يلفه الظلام. ألمح ضوء النجوم قادما من فتحة المغارة. أحاول الجري إلى الخارج لكن قدميّ المحروقتين تؤلمانني. فأحبو خائفا نحو النور. وقد تحولت في عينّي الرسومات

والطلاسم إلى أشباح تخيفني. يقابلني هواء الواحة الدافئ فتتوقف رعشة جسدي. أشاهد من بعيد أضواء الواحة. أصرخ بأعلى صوتي على جدي. ليرتد لي صدى صوتي فيكاد قلبي أن يتوقف من الرعب. أكرر النداء فيتكرر الصدى. أنادي على أمي حنة. فيرتد اسمها من قلب المغارة التي أجلس على بابها. تعجبني اللعبة رغم خوفي. فأكررها مناديا أسماء أصدقائي. أضحك رغم كل حروق قدمي وخوف روحي. بعد فترة ينتابني الضجر. فأرفع رأسي للسماء أتابع النجوم المتلألئة في الفضاء الشاسع. آلاف النجمات تضيء لي وحدي يا أشرف. الشهب تصنع احتفالية خاصة لليتيم الذي وضعه قدره في التجربة. أصفق بيدي الصغيرتين كلما رأيت شهابا يهبط في السماء صانعا خيطا من الضياء. قبل أن يختفي في ظلام الصحراء. تلهيني الفرجة قليلًا عن عطشي وجوعي. ليظهر لعيوني أمل النجاة فجأة. أشاهد عشرات المشاعل تتهادى في غيمة غبار قادمة من بعيد. فأتحامل على ألم قدميّ وأصرخ أنا والصدى ملوحا. أنا هنا يا جدي. المبروك هنا يا أهل الواحة. من دون أن يدرك عقلي الصغير وقتها، لماذا مصدر الضوء البعيد قادم من الصحراء. وليس كما يجب أن يكون من اتجاه الواحة.

لم يطل الوقت حيرتي. فبعد وقت قصير بدأت الأضواء في الاقتراب من الجبل. مهتدية بصوتي الذي حملته الرياح بعيدا في اتجاه الصحراء. ومع قربها بدأت عيناي في رؤية المشهد المهيب. عشرات الجمال تمشي في خط مستقيم محملة بكثير من المتاع. يجلب الهواء لي صوت حديث

وبكاء أطفال. أتنصت على ما يصلني من كلمات مختبئا في فوهة الكهف. فأعرف أنها لغة أهل قبائل البدو العربية. لغة سمعتها كثيرًا من والدي في دارنا. عندما يلتف حوله الطلاب يتدارسون آيات الذكر الحكيم أو في خطبة الجمعة. لا يشوب كلام القادمين لفظة أمازيغية واحدة من كلام أهلي في الواحة. فأتذكر حكايات العجائز حول جلسات الشاي الأخضر. يرعبني هاجس هؤلاء الغزاة الذين اعتادوا قتالنا. وأجبرتهم الحرب على الفرار للواحة.

بالطبع لم يكن اكتشاف مكاني صعبا. حملني رجل دميم الوجه بيد واحدة من جلبابي. كجرذ لا يكف عن ركل الهواء والبكاء. يده الأخرى تحمل مشعل النار. يهدد بحرقي حتى أكف عن الصياح. تتلقفني عند سفح الجبل يد سيدة شابة يمسك بجلبابها طفل في عمري. فأحتمي بحضنها من قسوة الرجل الدميم. يرتعد جسدي من الخوف بعد أن بللت سروالي. فأسمعها تردد آيات القرآن في أذني كحنة أمي. فيبدأ جسدي في السكون. لكني لا أكف عن البكاء والتشبث بها. تتابع عيناي نفس الرجل عائدا إلى المغارة وقد اصطحب معه هذه المرة آخرين شاهرين سيوفهم. يعودون بعد مدة. فيدخلوا إلى خيمة أعدت عند سفح الجبل على عجل لشيخهم. بينما أنا جالس وسط أطفال هذه السيدة التي لا أعرفها ولا أعرفهم. آكل مما تبقى للقافلة من تمر جاف بعد رحلتهم الطويلة. أميز كلمة «آثارات» التي رددها الرجال العائدون من مغارة الجبل. فيتهلل لها وجه شيخهم العجوز الذي يشبه جدي. لأنام بعد أن ارتويت وامتلأت معدتي.

مطمئنا بوجود السيدة ونور الفجر الذي بدأ في الظهور. مختبئا وسط بنات السيدة الثلاث وولدها الوحيد.

عندما استيقظت وجدتني في مغارة أخرى تشبه مغارتي الأولى. نفس الرسومات الزاهية والطلاسم القديمة. لكنها أوسع كثيرًا. تدير السيدة ظهرها لوجهي منهمكة في شيء تفعله. تبتسم لي واحدة من بناتها الصغيرات وتخبرها باستيقاظي. فتقترب مني أمها مبتسمة حاملة في يدها جلبابا وسروالا نظيفين لولدها. تسحبني من كتفي متجهة إلى داخل المغارة. آمرة بناتها بعدم تتبعنا. وعلى بصيص الضوء الخافت الذي حملته لنا الشمس، تخلع عني ملابسي المتسخة ببولي من الليلة الماضية. وتلبسني ملابس ابنها النظيفة. تحتضنني وتهمس في أذني بالعربية التي اتقنتها من صحبة والدي: «رجل صغير وتبلل ملابسك! لا تفعلها ثانية يا وليدي». لتجلس تستمع إلى حكايتي. يهيلها منظر قدمي المحترقتين. تبكي فجأة. فأستعجب من حنان هذه السيدة التي لا تعرفني.

كان اسمها وديدة. عرفت الاسم من نداء بناتها عليها. تمرر علينا قصعة من الفخار ممتلئة بحليب الناقة بالتتابع. حتى شبعنا جميعا. تتركنا لتعود بأعشاب تمضغها وتضعها على قدمي المتورمتين فأصيح من الألم. لكني أمنع دموعي أمام الفتيات اللاتي التففن حولي. حتى وأنا أصرخ عندما ربطت قدميّ بقطعتين نظيفتين من القماش، لم أبك متذكرا خجلي من نفسي لأني بللت سروالي بالأمس.

أخبرتني وديدة الطيبة بأن زوجها سيحملني لأهلي لأنني لن أستطيع المشي. وعند سماعي لكلامها. انهارت مقاومتي

وانفجرت في البكاء. توسلت لها بأن تأتي معي لتحمينى من بطش جدي، الذي لا بد أنه غاضب جدًّا. لكنها لم تملك سوى معاودة ضمي لصدرها والبكاء. فيأتي رجل يرفعني بين ذراعيه ويضعني فوق جمل صغير. متجها بي نحو الواحة بصحبة مجموعة من الرجال. فأنظر إلى وديدة وأطفالها بحسرة. وأكتشف أن القبيلة احتلت أغلب مغارات جبل الموتى. فأدير وجهي ناحية واحتنا. التي ما أن اقتربنا منها حتى سمعت صوت الأذان. كنا قبل وقت صلاة الظهر والشمس لم ترتفع إلى منتصف السماء. فأعرف أنه آذان التحذير من الغزاة. وأوقن بأن أبواب الواحة قد تم إغلاقها. وبأنني أصبحت نذير شؤم لأهلي لأني عدت بصحبة البدو.

وضعني زوج وديدة وصحبته أمام باب الواحة وعادوا إلى الجبل. فزحفت نحو باب الواحة الخشبي الكبير. أدقه بيدي الصغيرة وأصيح على جدي. لكن الباب لم ينفتح. إلى أن عاد الآذان يبشر بالأمان بعد أن رحل الأغراب. تُفتح البوابة على حذر ويراني الرجل الذي فتحها. يحملني إلى بيت جدي. لا أعلم هل أنا خائف أم فرحان بعودتي لأهلي. لكن أصوات الصراخ التي سمعتها قرب بيتنا جعل قلبي الصغير ينقبض.

كان جدي يقف أمام الدار يلتف حوله الرجال. بينما صراخ النساء يتعالى من الداخل. ليصيح أحدهم عند رؤيتي ها هو ذا وجه الشؤم عاد. فينظر له جدي نظرة تسكته. لكنها لن تسكت أهل الواحة عن تغيير اسمي إلى المشئوم بعد أن كان المبروك. يحتضنني جدي ويتشممني وكأنه يجد في رائحتي ذكرى ولده الميت. أسمعه يتمتم لنفسه «مسكين يا وليدي..

لا أب يصلب عودك ولا أم تمسح دمعك». يعيدني إلى ذراعي الرجل الذي كان يحملني. يدخل بي إلى صحن الدار فتتلقفني ذراع واحدة من الحريم وتدخلني حجرة أمي. أرى حنة ملفوفة بالأبيض لا يظهر إلا وجهها. فأتحامل على آلام قدمي وألقي بنفسي فوقها. أهزها فلا ترد عليّ. أناديها فلا تجيب خوفي ودموعي. أجذب وجهها فيميل رأسها نحوي صامتة مغمضة العينين. فيرفعونني عنها. وأعرف أن حنة قد ماتت كأبي.

انتظروا مرور أيام الحداد الثلاثة قبل أن يستدعوني أنا وجدي إلى مجلس العشائر. كان العرج يصاحب مشيتي التي أصبحت أفضل بعد أن بدأت حروق قدمي في الالتئام قليلًا. فدخلنا إلى بيت شيخ قبيلتنا الزناين. يحضر المجلس شيوخ باقي قبائل الواحة: الحدادين ـ اللحمودات ـ الشرامضة ـ الجواسيس ـ السراحنه ـ الشحايم ـ أيت موسى ـ أغورمى وأم الصغير. يسألني الشيخ عما دار بيني وبين البدو العرب. فأحكي له الحكاية كلها. يستفسر عن عددهم. فأخبره بأنهم كثيرون لا يمكن عدهم. وبأن معهم نساء وأطفال. لديهم كثير من الجمال. أخبره أيضًا بأنهم أشهروا سيوفهم عندما دخلوا إلى الجبل. أحكي لهم عن وديدة وفعلتها الطيبة معي. دون أن أذكر أنني بللت سروالي من الخوف. فيسمحون لي بالخروج إلى اللعب في الخارج. ويستمر مجلسهم إلى وقت لا أعلمه.

لم تتأخر أخبار البدو عنا كثيرًا. فبعد أسبوع من رجوعي إلى الواحة. عاودوا زيارتنا حاملين رايات بيضاء. حملوا أيضًا الهدايا من فرش الأرض الذي غزلته نساؤهم بصوف الماعز.

تركوها أمام باب الواحة. وابتعدوا قليلًا في الصحراء منتظرين السماح لهم بالدخول. فسمح شيخ الواحة بدخول شيخهم وحده. ليجتمع بمجلس العشائر ويخبرهم بأن الخواجات هاجموا ديارهم وشردوهم. وبأنهم يستنجدون بنا. وبأننا أهل كرم ومعروف. ليقدم لشيخنا صرة مليئة بفضية الخواجات طالبا شراء التمر والزيتون والخبز لأهله. فيجيبه أهل الواحة في طلبه. على شرط أن يبقوا حيث هم في جبل الموتى. تفتح لهم أبواب الواحة يوما واحدا في الأسبوع هو الجمعة. يصلون معنا في المسجد القديم ويشترون ويبيعون إلى وقت صلاة المغرب. بعدها تغلق أبواب الواحة في وجوههم إلى الجمعة القادمة.

عم سلام بيننا وبين البدو لسنوات. سلام سمح لي بزيارة وديدة وأولادها مرات لا حصر لها. أجد بينهم الحنان الذي فقدته بموت أبي وأمي. وأستمتع بصحبة الأطفال التي حرمتني منها أمهات الواحة. لأني المشئوم الذي احتضنته أمه الغولة. فهرب عائدا بنذير البدو إلى الواحة بعد أن قتل أمه بهروبه. فماتت بحسرتها عليه متخيلة أن ذئاب الصحراء قد أكلته.

كنت أزور أسرة وديدة كل جمعة بعد الصلاة وأعود إلى الواحة قبل أن تغلق أبوابها مع غياب آخر خيط للشمس. من دون أن يهتم لأمري أحد حتى جدي. مستفيدا من خلو جبل الموتى من رجالهم. لأنهم يتبضعون من واحتنا. ألعب مع أولاد البدو كواحد منهم. أنتظر يوم الجمعة كسجين يأمل في الخروج إلى هواء الحرية. أمضي أيام الأسبوع في

الواحة مستأنسا بالسباحة في عيون المياه. أو اللعب وحيدا في معابد الفراعين. إلى أن حدث لأبوك يا أشرف أعجب شيء قد يحدث لمخلوق.

* * *

في ليلة قمرية خرجت فيها هاربا من حرارة البيت. متلمسا نسمة هواء ترفض الهبوب. كان جدي قد أصابه الهرم. وأصبح يناديني بحسن، معتقدا أنني ابنه الميت. فذهب بعجزه الرداء الواقي الذي كان يحميني من أن يناديني أهل الواحة بالمشئوم. تسعدني الحرية وتقتلني الوحدة والعار الذي يحمله اسمي. أختبئ طوال النهار في بيتنا أستمع إلى حكايات جدي الذي أفنى طول الأجل عقله. فيحدثني بأخبار لا أفهمها. يشوش بها ذهن المراهق الذي كنته. لا يكف عن الصلاة والبكاء والتذكر. ينام وقتما يشاء ويستيقظ وقتما يشاء. ورغم كل هذا الجنون، لم نعرف الفقر أو العوز يوما يا ولدي. لأن شيخ الزناين أصبح الولي على ميراثي بعد خرف جدي. كنا أثرياء نمتلك مئة نخلة وعشرات الجمال. لكني كنت وحيدا يا أشرف. وحدة أتمنى ألا يختبرها أحد من نسلي أبدًا.

في تلك الليلة القمرية، قادتني قدماي إلى معبد الوحي فدخلت قدس أقداس المعبد. أتسلى كعادتي منذ سنوات طوال بالفرجة وتأمل الصور. أحدث صور الفراعين الذين لم يعد لديّ أصدقاء سواهم. منتظرا ببراءة أن تنهي حيرتي البشارة كما حدث للإسكندر الأكبر. ليحدث الأمر الذي غير حياتي كلها، من دون أن أعرف كيف حدث. انحلت

أمام عيني أبيك المراهق الطلاسم. واكتشفت أنني أستطيع فهم الرموز ومعنى الرسومات. أقرأ المكتوب فأستوعبه من دون أن أستطيع نطقه. تمامًا كالأمازيغية التي ننطقها ولم تعرف واحتنا سيوة كتابة لحروفها.

هل كان ما حدث نذير شؤم آخر لأبيك المشئوم؟ أم مجرد برهان جديد على صدق نظرية علم النفس الجمعي لكارل جوستاف يونج؟ وأننا نحمل فعلا ميراث جدودنا كوشم للروح لا يفنى؟ لا أعلم يا أشرف. لأن ما حدث بعد ذلك كان أكبر من أن أستطيع تفسيره ربما إلى الآن. حتى بعد كل هذه السنوات التي أمضيتها بعيدا عن الواحة التي لم تطأها قدماي من يوم خروجي منها. مكتفيا بوصية أن أدفن فيها بجوار قبر حنة وحسن. رغم أنني أعلم أنه ـ ربما ـ لن يستطيع أحد التعرف على قبرهما بعد كل هذه السنين. عاش فيها من عاش ومات فيها من مات من أهلك.

علمني منطق لغة الأجداد بأن هناك كثيرا من الحكايات التي رسموها على الصخر قد محي بفعل الزمن والغزاة. الأسوأ أن بعضهم طمس أمجاد بعض. ليصب لعنات وأكاذيب على من خالفه في المعتقد. وصمة بشرية أصيلة في جنسنا الذي نعتقد أنه الأرقى. بالتأكيد لم يكن لعقل أبيك القدرة الواعية للفهم. كنت أكبر سريعا بفعل مرارة التجربة وقراءة مكتبة جدك حسن. من دون أن أعي أغلب ما تحمله هذه الكتب من فقه ومواعظ وحكايات. لكني كنت أقرأ وأعيد القراءة هربا من الملل. يعجبني منطق الطير وابن أوي في كليلة ودمنة. تسحرني سير أعلام العرب الذين لا أفهم اختلافهم عنا

كأمازيغ. رغم أنهم يصلون معنا ويصومون رمضان مثلنا. ومع مكتبة جدك تعلمت أيضًا أن عالم الحكايات بحر لا ينتهي. لأنني ابن حنة التي وجدتها شهرزاد ألف ليلة وليلة. يقودني كل ما تعلمته إلى الطريق الذي لم يكن عليّ يوما أن أسير فيه.

كان المكتوب على جدران المعابد قصصا غير مكتملة في الأغلب. ينقصه دائمًا كثير من التفصيلات التي أخفاها الجدود. لأنهم يعلمون بأن أعمارهم أقصر من الحياة. ومنذ بداية رحلتي في اكتشاف كنوز واحتنا. كانت هناك ألغاز لا يكفي لحلها مجرد معرفة الرموز. فأجدادك آمنوا في خلود الموت أكثر من سكرة الحياة. صحيح أنني اكتشفت بقايا معبد وسراديب دفنتها الرمال. أماكن لم تطأها قدم بشر ربما إلى الآن. بألوان أكثر نضارة عشرات المرات من كل ما رأت عيناي في الواحة. إلا أن كل ما اطلعت عليه لم يكن سوى الشق الفاني في حياة من أحمل في عروقي دماءهم. دماء امتزجت بسحر كل من مر على هذه الرمال الصامتة. فراعنة ورومان وعرب وأمازيغ. لكن نصف الحياة الحقيقي كان هناك. في جبل الموتى الذي أزوره كل جمعة. لأكتشف كم الدمار الذي لحق المكان بتلصصي السريع على جدرانه. وأعرف من أين يأتي البدو بفضة الخواجات.

تمامًا يا ولدي كما توصل ذهنك وأنت تقرأ كلامي هذا. كان البدو لصوصا لم يحفظوا للمكان حرمته. يشترون منا ما نملك من تمور وزاد، بعد أن يبيعوا للأوربيين ما نملكه أيضًا من آثار هي ملك للواحة وأهلها. لكني رغم ذلك، لم أجد الشجاعة كي أخبر أحدا بما تيقنت. كان أهلي سيتهمونني

بالجنون. كطفل مشئوم يدعي معرفته بلغة الأقدمين التي لم يفهمها أحد أبدًا. كانوا أيضًا سيكتشفون سر ذهابي إلى وديدة فيحرمونني من شريان الحنان الوحيد في حياتي. وبالتأكيد لن يكون البدو العرب أرحم بي. وربما قتلوني أو عذبوني لأكشف لهم عما لم تصل له أيديهم من كنوز.

عشت في همي هذا طويلا يا ولدي. شهورا كاملة انقطعت فيها عن زيارة معابد الواحة وآثار من أعتقد أنهم جدودي. كانت نقوش ورسومات الجدران غاضبة مني. أصبحت رؤيتها تخيفني لأني في عيونها الحزينة مجرد خائن. لم يحافظ لأصدقائه على ما عاش لآلاف السنين في انتظار قيامتهم من عالمهم الأهم. عالم الموت. رغم أنهم لم يبخلوا عليّ بعطفهم وأسرارهم كما فعل أهلي في الواحة. أنا المشئوم ابن الغولة التي ارتكبت جريمة احتضان ولدها اليتيم.

وهكذا كانت أيام الأسبوع تمر عليّ. أعيش فيها بين جنون جدي وجنوني. أشعر بأن كائنات المعابد تعيش معي في بيتنا. تعاتبني بنواح شبيه بنواح حنة على حسن. تحدثني بالامازيغية والعربية ولغة الفراعنة والرومان. فأرد عليها كما تحدثني. فتتداخل حكايات جدي بأساطيرهم. فأعرف من أين جاءت حنة بحكاياتها التي أربكت عجائز الواحة. الأغرب هو أنني بدأت أشعر بأن روحي أقدم كثيرًا من روح طفل مراهق. وبأنني عشت في أجساد كثيرين من شخوص الخيالات التي تعذب وجودي في بيتنا. أدخل في نوبات من أحلام اليقظة. فأراني أسير في أماكن لم ترها عيني قط. وأتحدث إلى أناس بملابس لا أعرفها. تمر عليّ الأيام منتظرا أمل حلول يوم

الجمعة المبارك. ليس لأني سأستحم وأذهب إلى المسجد. بل لأني بمجرد أن تنتهي الخطبة. سأسابق الريح كي أرتمي في أحضان وديدة وألعب مع ابنها يوسف وبناتها نرجس وفيروز وكبيرتهم التي أصبحت أعشقها.. زينب.

ينتابني الخجل يا أشرف لأنني لم أحك لك عن زينب يوما. ربما لأن الحياة علمتني بأن العشق جريمة. أخاف عليك منها يا ولدي. تمامًا كما خفت عليك من هشاشة روحي وحكايتي الحزينة. فعشت معك بقناع القسوة عمرا أندم عليه الآن أشد الندم.

زينب يا ولدي هي صاحبة الوجه الجميل الذي استيقظت عليه عيناي في نهاري الأول في المغارة. وهي من أخبرت أمها عن استيقاظي قبل أن أغير ملابسي وأحكي حكايتي لوديدة. كبرى بناتها والأكثر شبها بها. عيناها بجمال القمر وبياض بشرتها رائق كالحليب. لم ترث كأخواتها جهامة وجه أبيها وسواد بشرته. بل كانت وديدة صغيرة بعطفها وطيبتها. لا تكف عيناها عن تتبع حركتي أينما ذهبت. تغار عليّ من اللعب مع أخوتها البنات ويوسف، الذي أحببته كما لم أحب طفلا من أولاد الواحة. زينب ساعد وديدة في السهر على الأسرة وقرة عين أبيها التي يفضلها على الجميع. انجذابي لها مغامرة وجنون. لأن البدو لا يفهمون محبة القلوب الصغيرة. لكنني كنت في عيونهم طفلا ينتمي إلى الزناين أكبر قبائل الواحة. شيخ قبيلتنا وليٌّ على ما أملك من ثروة لا يستهان بها. وفوق كل هذا أنتمي إلى آل بيت النبي محمد الذين يكن لهم بدو الصحراء كثيرا من الإجلال.

علاقتي بزينب لم تتخط أبدًا لهو المؤانسة بالنظر إلى المحبوب. لم تفهمني براءة سنوات عمري أن هذا التعلق بالنظر إليها، هو الغرام الذي قرأت عنه في كتب جدك حسن. لكنها كانت أنضج مني. بذلك الذكاء الأنثوي الذي ترثه البنات عن أمهاتن صغيرات جدًّا. فتهمس أحيانًا في أذني عندما تختلي بي، بينما أنا تائه في التطلع إلى جدران مغارتهم وأسرارها: «ستكون يوما لي وسأكون لك». وتجري من دون أن أفهم مقصدها. بالطبع لم يكن اكتشافنا صعبا لعيني أمرأة خابرت الحياة كوديدة. لكنها كانت تحبني كولدها يوسف. تعلم طيب جوهري بعد أن ربتني لسنوات بطول الحرب، وما تبعها من سنوات في انتظار التيقن من زوال الخطر.

ومع زينب أحببت الشعر الذي لم أكن أفهم بلغة أي شيطان يُكتب. فبدأت تعجبني مرثيات بكاء الأطلال وقصائد مدح الأحبة. أكتب أبيات تشبهها. لا أخبر بها أحدا سوى جدي في عالمه الغامض. فيستحسنها مبتسما من دون رد. اكتشفت أيضًا في مكتبة أبي دفتر أشعار ورسائل كتبه لأمى بعربيته الفصحى الشفيفة. أستهله بكتابة تلك المقطوعة. وكأنها وصية يعلم أنها ستصل إلى يدي في هذا الوقت من بداية شبابي المربك.

«وما السعادة يا ولدي؟ سوى ساعة بصحبة حبيب لا يعلم مكنون قلبك. عذابك بالصمت في حضرته صلاة أمل. خوفك من انقضاء الوقت ونهاية أجل الوصال. سلامك واستسلامك. رعشة يديك. خفقان قلبك. هروب بصرك إلى جمال المحيط بالحبيب، لأنه صنيعة وجوده في عينيك. فإن

صادفك يا ولدي ما أخبرك به. فاعلم أنك هالك لا محالة. فاذهب ولو زاحفا إلى موتك المشتهى. واعلم أنك خابرت أثر السعادة».

كلمات رددتها كثيرًا حتى حفظتها عن ظهر قلب. يصطلي بها وجداني كالنار التي تكوي الجروح فتؤلمها أملا في الشفاء. لكن شفاء قلب والدك المشئوم يا ولدي كان ثمنه أغلى مما يعتقد.

ففي يوم جمعة حزينة فتحت أبواب واحتنا كالمعتاد. فودع البدو شيوخ الواحة ورجالها. طالبين منهم مضاعفة ما يشترون من زادهم الأسبوعي. لأن الحرب قد انتهت. والأخبار تبشر برحيل الخطر. وبأنهم سيعودون إلى حيثما أتوا. فطارت أقدامي لزيارة خالتي وديدة كما اعتدت أن أسميها. لأتأكد من الخبر الذي أبكاني طوال الطريق إلى جبل الموتى.

كان الخبر صادقا. وكانت الصدمة فوق طاقتي. فظللت أردد «غير معقول بالأمازيغية» بينما أسرة وديدة لا تفهم ما أنطق. لتقفز في رأسى الفكرة الشيطانية التي ندمت عليها عمري كله. فكرة وهبتني سعادة الدخول إلى الجنة لشهور. وتركتني أعيش في الجحيم ما تبقى من عمري.

صحت في وديدة بما أعلم عن بيعهم لآثار جبل الموتى. أخبرتها أيضًا بأنني أستطيع أن أدلهم على المزيد الذي يستحيل أن يعرفوا مكانه. بكيت لها بحرقة وقبلت يديها. فبكت وبكى معنا أولادها. لكنها لم تستطع أن تفعل لي سوى المواساة. فاعتقدت أنها لا تصدقني. وبأنها تتخيل أن

ما أخبرها به كذب. كي أمنعهم من الرحيل التي لن تستطيع إيقافه. فسحبتها من يدها أريها النقوشات التي في مغارتهم ومغارات أخرى تسكنها أسر بدو آخرين. أعلمها ما بها من أسرار بسبب تكرار دخولها لألعب مع أولادهم. أسمي لها أسماء الآلهة القديمة. أشير لصورة التمساح الذي لا يعرفه بدو الصحراء أبدًا وأقول لها: هذا هو التمساح. وحش يعيش على ضفاف ماء عظيم بعيد جدًّا عن الصحراء اسمه النيل. عبده الأقدمون كإله اسمه سوبيك إله الخصوبة. وسماه من بعدهم اليونانيون الإله سوخوس. أدخل بها إلى مقبرة أخرى فأشير إلى صورة المرأة الجميلة الواقفة تحت شجرة الجميز وأخبرها بأنها الإلهة نيث أو تانيت كما سماها جدودى الأمازيغ. وبأنها أم رع رب أرباب كل العصور القديمة من الفراعنة. وبأن المقبرة لثري إغريقي اسمه سي آمون. لكن كل كلماتي ذهبت كرمال الصحراء في مجابهة العاصفة. فوديدة ومن تبعها من نساء البدو اللاتي تجمعن على صوت صراخي لم يفهمن شيئا مما أقول. لأنهن لم يسمعن من قبل عن آلهة تعبد سوى الله. لا فرق لديهم بين إغريق أو فراعنة. هن بنات الصحراء اللاتي لا يعرفن سوى حكايات الجن والعفاريت حول ما يقابلهن في الترحال من آبار أو عيون ماء. أثار ذلك جنوني. فتحركت يتبعني رهط النساء والأطفال. كأني ساحر يشعرون بأنه يريد أن يخبرهم بشيء هام لا يفهمونه. بدأت في نبش الأرض بيدي كمجنون. حتى ظهرت فتحة لكهف صغير طمسته رمال العواصف المتعاقبة على الجبل. أغيب فيها بجسدي الصغير لدقائق وأعود حاملا تمثالا فرعونيا

صغيرا. أضعه تحت قدمي وديدة. مرددا أنه ما زال كثير من الكنوز في الجبل. وأستحلفها ألا تغادر هي وقومها لأني سأموت لو تركوني. فتتهلل وجوه كل النساء إلا وجه خالتي وديدة. مدركة كم أجلب لنفسي من شقاء.

رغم ذلك رحل البدو عن الواحة كما أخبر رجالها أهلي. رحيل كان سيفقدني عقلي. لولا الزيارة الغريبة التي فاجأتني بعد أقل من أسبوع من عودة البدو إلى حيثما كانوا. زارنا في بيت جدي زوج خالتي وديدة. معلنا لشيخ الزناين بأنه وافق على طلب زواجي من ابنته زينب كعرفان بالجميل لكرم أهل الواحة معه ومع أهله كل هذه السنوات. مدعيا أن جدي العجوز الخرف قد طلب منه خطبتها لي عندما زار بيتنا لوداعه في جمعتهم الأخيرة بالواحة، وبأنه لن يجد لابنته زوجا مثلي. لأن مصاهرة شاب من الزناين يعود نسبه إلى أهل البيت، شرف له ولقبيلته.

مفاجأة لم تكن لتتخيلها أبدًا يا أشرف. أبوك له زوجة لم تسمع عنها أبدًا. والأهم، أن لك أخا يعيش في سيوة. أسرتي التي لم أرها من خمسين سنة.

الآن أعترف لك بأن سفرك وهجرك لي وأنت أحب من مشى على هذه الأرض لقلبي، هو عقابي الذي انتظرته طويلا من دون أن أعلم متى وكيف سيأتي. لتكون اللطمة التي أستحقها في قمة ضعفي وآخر أيامي. بأن تتخلى عني كما تخليت أنا عنهم كل هذه السنين.

عشت مع زوجتي زينب ثلاثة أعوام من السعادة الكاملة. أصبح لي أسرة. وأصبحت خالتي وديدة تزورنا كثيرًا. بعد

أن اشتروا بيتا إلى جوارنا واستقروا بالواحة. يختفي زوجها في الصحراء كل عدة أشهر ليبيع الكنوز التي أخبره بمكانها. أكون دليله وشريكه في الجريمة. نكشف ستر كنوز الأجداد ليلا في جبل الموتى وجبل الدكرور ومعبد أم عبيد وكل أماكن الآثار الأخرى. يعيش معنا جدي الذي شارف على المائة عام. يسمع ويرى ما نفعل. لكنه كطفل ضائع في عالمه الذي آمنا أنه لا ينتمي لعالمنا. ومع هنائي بدفء الأسرة الذي لم أعرفه في طفولتى. اختفت أشباح جدودك الفراعنة التي كانت تتهمني بالخيانة من مخيلتي. أكثرت من البقاء في دارنا التي تنيرها زينب. لتتكرم عليّ الحياة التي لم تكن صديقتي يوما. فأعتقد بسذاجتي أنها أخيرا ابتسمت لي. فأنجبنا أخاك الأكبر الذي أسميته على اسم جدك حسن. دون أن أعلم أن الحياة خوانة بطبعها. وبأنني سأعيش عمري كله محروما منه ومن زوجتي الحبيبة.

في تلك الأيام الخوالي، تعلمت زينب الأمازيغية بسرعة. فتحدثت بها كبنات الواحة. فأصبحت واحدة منهن. عاد لي أيضًا ميراثي بعد أن أصبحت شابا له ما للرجال ما لهم وعليه ما عليهم. يزيدني وجاهة مصاهرة أسرة البدو التي أصبحت غنية، من دون أن يهتم أحد بالسبب. ليعود لي أسمي الأول المبروك. وتناسى أهل الواحة حكاية الغولة وشؤمي. وأصبح بيتي مقصد الشباب والشيوخ الذين طالما احتقروني في طفولتي. لكن رغم كل ذلك، كان هناك في قلبي نقطة مظلمة لم تستطع كل هذه السعادة انارتها.

كنت أخاف أن تنكشف حكايتي. فأصبح مضرب الأمثال كمحمود عزمي. الرجل الذي احتقرت الواحة سيرته للأبد.

المأمور الأحمق الذي هدم معبد أمون بعد أن فخخه بالبارود. لا لسبب سوى أن يبني لنفسه بيتا بالحجر. يختلف عن بيوت الواحة المبنية بالملح والرمال. ينشئ أيضًا بحجارة معبد الإسكندر الأكبر العظيم، مخفرا للشرطة لا يدخله سواه وعساكره من أهل القاهرة عام ١٨٩٠. لأن أهلك في سيوة لا تحكمهم سوى الأعراف وشيوخ قبائلهم. واحتكام أي فرد من أهلنا إلى رجال الحكومة عار يشينه ويشين قبيلته. لكن رغم ما فعله محمود عزمي من فعلة خرقاء كان له عذره. على الأقل كان غريبا عن الواحة. لا تسري في عروقه دماء أهلي. أما أنا فأي عذر كان لي يا ولدي؟

كنت مجرما في حق أهلي جرما تخرسه سعادة قلبي وغرور شبابي. لا أستطيع المسامحة على ما فعلوه بي في طفولتي. بعد أن سموني المشئوم وتركوني وحيدا لقدري. آآآآه يا وليدي من هذا القدر الذي لن يهرب منه أحد أبدًا بجرم اقترفه في حق أهله. لذلك كنت أستحق ما حدث لي. وكأن كل ما عانيت لم يكن يكفي.

حضر إلى بيتنا نذير الموت الذي يستقبله كل البشر. فعلمنا أنها لحظات جدي الأخيرة في هذه الدنيا بعد عمر طويل لم نعد نحصي سنواته. زارنا الشيوخ ليودعوه مجاملة لحفيده صاحب الجاه والعقل المنير كأبيه المرحوم حسن. يساندونني في شدتي ويتسابقون ليكونوا إلى جواري. أحضروا الكفن وفتحوا قبرا في الجبانة. وأحضروا لأهل المتوفي الطعام كعادتنا. لكن جدي العجوز لم يرغب في خروج سره إلى خالقه قبل أن يعيدني إلى ما كنته من وصمة الشؤم وقدر الوحدة.

تحدث الرجل الذي اختبره الخرف لسنوات وسنوات برجاحة عقل عهدوها عنه في أعوام أيام حكمته. أعادت له سكرة الموت وخوفه من مقابلة الرحمن بذنوبه يقظة تناسيناها جميعا. فأخبر شيوخ العشائر الملتفين حول سريره بتبرئه مني. ليصفني بالمشؤم ويحكي لهم جرمي. يصفني باللص الذي خان الأمانة وباع أهله لمن لا تجري دماؤهم في عروقه. لأنه نجس لا عهد له. مجرم فرط في كنوز الأجداد ليتزوج من بنات البدو. ليسلم روحه بعدها لبارئها ويسلمني لأهل الواحة يفعلون بي فعلتهم الشنيعة.

تم طردي من قبيلة الزناين وواحة سيوة كلها. أمهلوني ثلاث ليالي للرحيل. يهدر بعدها دمي لو تصادف وجودي بالواحة أو أطرافها أو أي من الواحات الصغيرة المجاورة. عليّ أن أرحل وحيدا بدون ابني أو زوجتي. لي نصف ما أملك يشتريه مني شيخ الزناين بما أرضى من أموال. وأترك النصف الآخر لأخوك حسن وأمه زينب. لأن حسن طفل يحمل دماءهم رغم كل شيء. ولا عقاب لطفل أو امرأة بفعلة وليهم ولو كان خائنا. أما وديدة وزوجها فتوجب رحيلهم إلى الأبد عن سيوة بملابسهم فقط. تباع دارهم وما ملكوا. يوزع ثمنها على شيوخ القبائل بالتساوي. فيتم وهبها للأيتام والأرامل في كل قبيلة.

الآن يا أشرف بعد أن أنهيت لك رسالتي الطويلة التي كتبتها بدموعي. أنتظر أن أقابل وجه رب رحيم يسامحني على فعلتي بأهلي. لكني أوصيك يا ولدي بأن تزور قبري وتخبر أمك بحكايتي التي لم تعرفها أبدًا. ربما تسامحني على قسوتي

معها طوال عشرتها الطيبة لي. وتغفر لي بعد أن تعرف ما عانيت في سنوات طفولتي ومطلع شبابي.

أوصيك أيضًا بأن تقابل أخاك حسن وتطلب منه المسامحة. أخبر خالتك زينب، إن وجدتها على قيد الحياة، بأن قلبي لم يحب أحدا مثلها. وبأنها زوجتي أمام رب العرش هي وأمك الطيبة. وقبل كل ذلك وبعده، سامحني يا قرة عيني على إرثي الذي هو قدرك الذي يجب عليك أن تتحمله كرجل. تحمل عروقه دماء جدود ربتهم الواحة والصحراء. فأنت يا ولدي ابن كل هؤلاء الذين ورد ذكرهم في حكايتي التي أطلت عليك فيها. فلا تكرر خطأ أبيك بالعيش وحيدا بلا أهل يا أشرف.

ألم أقل لك يا ولدي إنه لو أتيح لي الحديث يوم ميلادي في عيد السياحة لأخبرتك بصيحة «واعلم» التي كررها أهلي منذ القديم.

«واعلم» بأن قسوة الأحباء أشد وجعا من حد السيوف. «واعلم» بأن النهايات لا تولد من رحم البدايات. «واعلم» بأن قلب المحب خوان لا يصون كرامة ولا يرفع رأسا.

مونتريال ـ كندا

٧ مايو ٢٠١٦

شكر خاص

خالص الشكر والتقدير لمجموعتي الأدبية «أقلام عربية» في مونتريال، حلمنا الثقافي الكبير في كندا ووطني الخاص، على محبتهم ودعمهم الدائم خلال تجربة اغترابي عن وطني الأم؛ مصر المحروسة وناسها الطيبين.

كل الشكر للأصدقاء: الدكتورة إيمان عبد الرحمن زوجتي ورفيقة العمر وصديقتي الداعمة لي دومًا. والدتي الأستاذة آمال شمس الدين صاحبة كل الأفضال على شخصي. الأُدباء الكبار الدكتور محمد المخزنجي، والدكتور محمد المنسي قنديل، اللذَيْن تعلمت من نصائحهما الكثير. الدكتور عبد الفتاح الصواف أستاذي ومرجعيتي العلمية في الرواية، الدكتورة فكرية فريد المدققة اللغوية لمجموعة «أقلام عربية» في مونتريال، المهندس شريف رفعت، المهندس محمد عنتر، الدكتور خالد ذهني، المهندس أنيس بن عمار، الدكتور إسلام علي حسن، الدكتور أشرف حسن، الأستاذ أحمد أبو الفتح، الأستاذ زكريا عبد الجواد، المهندسة سارة البدري، المخرج السينمائي مجدي العمري، الأستاذ محمد حسين الأطرش، الأستاذة لبنى زيتون، الأستاذ سعيد شعيب، الفنانة رانيا سعد، المهندسة ميادة عيسى؛ على قراءتهم لمخطوطة الرواية وملاحظاتهم المهمة.. لكم جميعًا كل الشكر والتقدير.

شكر خاص لدار الشروق العريقة على المعاملة الاحترافية التي أسعدتني كثيرًا، فصدر هذا الكتاب في أفضل صورة.

أما القُراء الأعزاء فلهم كل المودة والتقدير.

أسامة علام